

الأربعون

في

عظمة العالمين



محمد صالح المنجد



الآن يبعون
في
عظمة رب العالمين

محمد صالح المنجد

٢) مجموعة زاد للنشر، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المنجد، محمد صالح

الأربعون في عظمة رب العالمين. / محمد صالح المنجد.-

الرياض، ١٤٣٩هـ

٢٧٢ ص. ١٦، ٥ × ٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٠٤٧-٩٦-٥

١- الحديث - شرح ٢- الحديث الصحيح

أ. العنوان

١٤٣٩/١٢٠٠

ديوي: ٢٣٧، ٧

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

نشر 

المملكة العربية السعودية - جدة

حي الشاطئ - بيوتات الأعمال - مكتب ١٦

موبايل: ٩٦٦ ٥٠ ٤٤٤ ٦٤٣٢، هاتف: ٩٦٦ ١٢ ٦٩٢٩٢٤٢

ص.ب: ١٢٦٣٧١ جدة ٢١٣٥٢

www.zadgroup.net

توزيع 

المملكة العربية السعودية - الرياض

طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة

هاتف: ٩٦٦ ١١ ٤٨٠٨٦٥٤، ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

تواصل معنا



CONTACT US



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

المقدمة	٧
الحديث (١): «... كان الله ولم يكن شيء غيره...»	١١
الحديث (٢): «كتب الله مقادير الخلائق...»	١٥
الحديث (٣): «... سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بـ(الطور)»	٢١
الحديث (٤): «نُهِينا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ...»	٢٧
الحديث (٥): «أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بَنِعْمَانَ...»	٣٣
الحديث (٦): «قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يُخْلَقُ...»	٣٧
الحديث (٧): «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟...»	٤٣
الحديث (٨): «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ...»	٥١
الحديث (٩): «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي...»	٦١
الحديث (١٠): «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ، وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ...»	٧٩
الحديث (١١): «يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...»	٨٩
الحديث (١٢): «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ...»	٩٩
الحديث (١٣): «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ...»	١٠٣
الحديث (١٤): «الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبَرِيَاءُ رِدَائُهُ...»	١١٧
الحديث (١٥): «اسْتَوُوا؛ حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي...»	١١١
الحديث (١٦): «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ، وَأَهْلَ أَرْضِهِ...»	١١٧
الحديث (١٧): «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ...»	١٢٥
الحديث (١٨): «قَالَ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ...»	١٣٣
الحديث (١٩): «لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةُ آيَةً...»	١٤١

- الحديث (٢٠): «هل تدرون ماذا قال ربكم؟...» ١٤٧
- الحديث (٢١): «قال الله يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهر،...» ١٥٣
- الحديث (٢٢): «... حين غربت الشمس: «أتدري أين تذهب...» ١٥٧
- الحديث (٢٣): «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة...» ١٦٥
- الحديث (٢٤): «لما قضى الله الخلق، كتب في كتابه...» ١٦٩
- الحديث (٢٥): «اللهم لك الحمد، أنت قيِّم السموات والأرض...» ١٧٣
- الحديث (٢٦): «قال رجل لم يعمل خيراً قط: إذا مات فحرِّقوه...» ١٩٣
- الحديث (٢٧): «اجتمع عند البيت ثقيفان وفُرْشيان أو فُرْشيان...» ٢٠١
- الحديث (٢٨): «مفتاح الغيب خمس، لا يعملها إلا الله...» ٢٠٥
- الحديث (٢٩): «إني أرى ما لا ترون...» ٢١٩
- الحديث (٣٠): «قمتُ مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة...» ٢٢٣
- الحديث (٣١): «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت خولة...» ٢٢٩
- الحديث (٣٢): «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن...» ٢٣٣
- الحديث (٣٣): «من شأنه أن يغفر ذنباً...» ٢٣٧
- الحديث (٣٤): «اللهم رب الناس مذهب الباس، اشف أنت الشافي...» ٢٤١
- الحديث (٣٥): «أنا سيد القوم يوم القيامة...» ٢٤٦
- الحديث (٣٦): «يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟...» ٢٤٧
- الحديث (٣٧): «يوضع الميزان يوم القيامة...» ٢٥١
- الحديث (٣٨): «كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال:...» ٢٥٧
- الحديث (٣٩): «ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟...» ٢٦١
- الحديث (٤٠): «يحشر الناس يوم القيامة عُرَّةً غُرَّةً لا بُهْمًا...» ٢٦١
- مُلَخَّص أَهَمُّ مَا تَضَمَّنَتْهُ أَحَادِيثُ هَذَا الْكِتَابِ ٢٦٥



المقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي شَهِدَتْ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ جَمِيعُ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَقَرَّتْ لَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ جَمِيعُ مَصْنُوعَاتِهِ، وَشَهِدَتْ بِأَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، بِمَا أَوْدَعَهَا مِنْ عَجَائِبِ صَنَعَتِهِ، وَبَدَائِعِ آيَاتِهِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَرَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبُّ وَاحِدٌ، خَالِقٌ، رَازِقٌ، حَيٌّ، قَيُّومٌ، صَمَدٌ، عَظِيمٌ، عَلِيمٌ، قَدِيرٌ، حَلِيمٌ، كَمُلٌ فِي عِلْمِهِ، وَحُكْمَتِهِ، وَحِلْمِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَعَظَمَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَسَائِرِ أَوْصَافِهِ.

وَهُوَ عَزَّجَلَّ «يُدَبِّرُ الْأُمُورَ فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ، وَالسُّفْلِيِّ، فَيَخْلُقُ، وَيَرْزُقُ، وَيُغْنِي، وَيُفْقِرُ، وَيَرْفَعُ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ آخَرِينَ، وَيُعِزُّ، وَيُذِلُّ، وَيَخْفِضُ، وَيَرْفَعُ، وَيُقِيلُ الْعَثَرَاتِ، وَيُفَرِّجُ الْكُرْبَاتِ، وَيُنْفِذُ الْأَقْدَارَ فِي أَوْقَاتِهَا الَّتِي سَبَقَ بِهَا عِلْمُهُ، وَجَرَى بِهَا قَلَمُهُ، وَيُرْسِلُ مَلَائِكَتَهُ الْكَرَامَ لِتُدَبِّرَ مَا جَعَلَهُمْ عَلَى تَدْبِيرِهِ»^(١).

وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

(١) تفسير السعدي (ص ٤١٢).

وفي الحديث: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»^(١).

فهذه الأسماء تدلُّ على تفرُّد الرَّبِّ الْعَظِيمِ بِالْكَمَالِ الْمُطْلَقِ، وَالْإِحَاطَةِ الزَّمَانِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾، وَالْإِحَاطَةِ الْمَكَانِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾.

فَالأَوَّلُ: يدلُّ على أنَّ كُلَّ ما سِوَاهُ حَادِثٌ كَائِنْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَيُوجِبُ لِلْعَبْدِ أَنْ يَلْحَظَ فَضْلَ رَبِّهِ فِي كُلِّ نِعْمَةٍ دِينِيَّةٍ، أَوْ دُنْيَوِيَّةٍ؛ إِذِ السَّبَبُ وَالْمُسَبَّبُ مِنْهُ تَعَالَى.

وَالْآخِرُ: يدلُّ على أَنَّهُ هُوَ الْغَايَةُ، وَالصَّمَدُ الَّذِي تَصَمَّدُ إِلَيْهِ الْمَخْلُوقَاتُ بِتَأْهِلِهَا، وَتَعَبُّدِهَا، وَرَغْبَتِهَا، وَرَهْبَتِهَا، وَجَمِيعِ مَطَالِبِهَا.

وَالظَّاهِرُ: يدلُّ على عَظَمَةِ صِفَاتِهِ، وَاضْمِحْلَالِ كُلِّ شَيْءٍ عِنْدَ عَظَمَتِهِ مِنْ ذَوَاتٍ، وَصِفَاتٍ، وَيَدُلُّ عَلَى عُلُوِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَالْبَاطِنُ: يدلُّ على اِطْلَاعِهِ عَلَى السَّرَائِرِ، وَالضَّمَائِرِ، وَالْخَبَايَا، وَالْخَفَايَا، وَدَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ، كَمَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ قُرْبِهِ، وَدُنُوِّهِ.

وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي كُلِّ النُّعُوتِ؛ فَهُوَ الْعَلِيُّ فِي دُنُوِّهِ، الْقَرِيبُ فِي عُلُوِّهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(٢).

وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعَظِيمُ: ذُو الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ فِي مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، لَهُ عِظَمُ الشَّانِ، وَجَلَالَةُ الْقَدْرِ، يُسْتَحْفَرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كُلُّ ما سِوَاهُ؛ فَلَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَهُوَ الْمُعَظَّمُ الَّذِي تُحِلُّهُ الْمَخْلُوقَاتُ، وَتُعَظَّمُهُ، وَتُسَبِّحُهُ، وَتُقَدِّسُهُ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا إِسْبَحٌ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٢) الحق الواضح المبين للسعدي (ص ٢٥).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُطِّتِ^(١) السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَتَّطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ»^(٢).

وَمِنْ عَظَمَتِهِ سُجْدَانَهُ وَتَعَالَى: أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ أَصْغَرَ مِنْ الْخَرْدَلَةِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ، وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ، وَمَا فِيهِمَا، فِي يَدِ اللَّهِ، إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»^(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَلْ قَوْلُهُمْ^(٤) إِنَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَى فِي كَفِّ خَالِقِ هَذِهِ الْأَكْوَانِ
حَقًّا كَخَرْدَلَةٍ تُرَى فِي كَفِّ مُمَسِّكِيهَا، تَعَالَى اللَّهُ ذَا السُّلْطَانِ^(٥)

وَمِنْ عَظَمَتِهِ سُجْدَانَهُ وَتَعَالَى: أَنَّ الْأَرْضَ جَمِيعًا بِمَا فِيهَا مِنْ بَحَارٍ، وَأَنْهَارٍ، وَجِبَالٍ، تَكُونُ فِي قَبْضَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَاتٌ بِيَمِينِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وَفِي الْحَدِيثِ: «يَطْوِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهَا بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيُّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيُّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»^(٦).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١].

(١) صَوَّتَتْ.

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١١٢٧).

(٣) تفسير الطبري (٣٢٤ / ٢١)، السنة لعبد الله بن أحمد (٤٧٦ / ٢).

(٤) يعني: قول أهل السنة.

(٥) القصيدة النونية (ص ١٤٥).

(٦) رواه البخاري (٧٤١٢) مختصراً، ومسلم (٢٧٨٨).

وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وفي الحديث: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة، وَفَضَّلَ الْعَرْشَ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضَّلَ الْفَلَاةَ عَلَى تِلْكَ الْحَلْقَةِ»^(١).

فإذا كانت هذه عظمة الكرسي، والعرش، فكيف بعظمة الله وهو: ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]؟!

وهو سبحانه وتعالى العظيم الذي تخشع لعظمته القلوب، والأبدان، والأرواح، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ركع في صلاته قال: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، أَنْتَ رَبِّي، خَشَعَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَخِيَّيَّ، وَعَظْمِي، وَعَصْبِي، وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمِي، اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»^(٢).

لَكَ الْحَمْدُ وَالنَّعْمَاءُ وَالْمُلْكُ رَبَّنَا	فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْكَ جَدًّا وَأَجْدُ
مَلِكٌ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيَّمٌ	لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الْجِبَاهُ وَتَسْجُدُ
تُسَبِّحُهُ الطَّيْرُ الْكَوَامِنُ فِي الْخَفَا	وَإِذْ هِيَ فِي جَوْ السَّمَاءِ تَصْعَدُ
وَمِنْ خَوْفِ رَبِّي سَبَّحَ الرَّعْدُ حَمْدَهُ	وَسَبَّحَهُ الْأَشْجَارُ وَالْوَحْشُ أَبَدُ

وفي هذا الكتاب جمع لأربعين حديثاً في عظمة الله رب العالمين بالشرح، والبيان، سائلين الله تعالى أن ينفع به، ويدفع به.



(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٦١)، وهو حديث مختلف فيه، وسيأتي.

(٢) رواه مسلم (٧٧١)، والإمام أحمد (٩٦٠) واللفظ له.



الحديث الأول



عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبَشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ»، قالوا: قَدْ بَشَرْتَنَا فَأَعْطِنَا، فَمَرَّتَيْنِ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبَشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ، إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ»، قالوا: قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قالوا: جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ؟ قَالَ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذُّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ»، فَنَادَى مُنَادٍ: ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الْخَصَنِ، فَاَنْطَلَقْتُ، فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابَ، فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكَتُهَا^(١).

جاء أهل اليمن إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألونه عن أول هذا الأمر، يَغْنِي: أمر الخلق، وبداية العالم.

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ».

وفي رواية: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ»^(٢).

وفي رواية: «كَانَ اللَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ»^(٣).

(١) رواه البخاري (٣١٩١).

(٢) رواه البخاري (٧٤١٨).

(٣) رواه الإمام أحمد (١٩٨٧٦)، وصححه محققو المسند.

ومعناه: أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي لَا يُتَصَوَّرُ لِأَوَّلِيَّتِهِ مَبْدَأٌ حَتَّى يُمَكِّنَ أَنْ يُتَصَوَّرَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، بَلْ هُوَ الْأَوَّلُ بِلاَ بَدَايَةٍ، كَمَا أَنَّهُ الْآخِرُ بِلاَ نِهَايَةٍ.

فَمَا مِنْ غَايَةٍ يُقَدِّرُهَا الْعَقْلُ إِلَّا وَأَزَلَّيْتَهُ تَعَالَى قَبْلَهَا، بِلاَ غَايَةٍ مَحْدُودَةٍ.

و«الْأَزْلُ» مَعْنَاهُ عَدَمُ الْأَوَّلِيَّةِ، فَلَيْسَ «الْأَزْلُ» شَيْئًا مَحْدُودًا^(١).

وَقَدْ رَوَى فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: أَيُّنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ فَقَالَ: «كَانَ فِي عَمَاءٍ^(٢)، مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ، وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، وَخَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ»^(٣).

وَهَذَا كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»^(٤).

فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَوَّلِيَّةِ اللَّهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَبَدِيَّتِهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وَبَقَائِهِ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ.

فَالْأَوَّلُ: يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ حَادِثٌ كَائِنْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَيُوجِبُ لِلْعَبْدِ أَنْ يَلْحَظَ فَضْلَ رَبِّهِ فِي كُلِّ نِعْمَةٍ دِينِيَّةٍ، أَوْ دُنْيَوِيَّةٍ؛ إِذِ السَّبَبُ وَالْمُسَبَّبُ مِنْهُ تَعَالَى.

وَالْآخِرُ: يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْغَايَةُ، وَالصَّمَدُ الَّذِي تَصَمَّدُ إِلَيْهِ الْمَخْلُوقَاتُ بِتَأْلُفِهَا، وَتَعَبُّدِهَا، وَرَغْبَتِهَا، وَرَهْبَتِهَا وَجَمِيعَ مَطَالِبِهَا^(٥).

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ... وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ»:

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ٣٨٣).

(٢) ليس معه شيء.

(٣) رواه الترمذي (٣١٠٩)، وضعفه الألباني.

(٤) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٥) الحقُّ الواضح المبين للسعدي (ص ٢٥)، فقه الأديعية لعبد الرزاق البدر (٣/ ٧٤).

أي: وَقَتَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧].

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى: أَنَّ خَلَقَ الْعَرْشِ سَابِقٌ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضِ، وَأَنَّ الْعَرْشَ كَانَ عَلَى الْمَاءِ عِنْدَ ابْتِدَاءِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ.

وهذا يُدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ مُخْدَتٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ بِصِفَاتِهِ خَالِقًا فَعَالًا لِمَا يُرِيدُ.

وَالْخَلْقُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَنْفَكَ عَنْ هَذِهِ الصِّفَةِ، وَلَكِنْ كُلُّ مَخْلُوقٍ مُخْدَتٌ مَسْبُوقٌ بِالْعَدَمِ، وَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ شَيْءٌ قَدِيمٌ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا أَبْلَغُ فِي الْكَمَالِ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُعْطَلًا غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى الْفِعْلِ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

«فَكُلُّ مَا سِوَاهُ تَعَالَى فَهُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ، مَرْبُوبٌ مُدَبَّرٌ، مُكُونٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، مُخْدَتٌ بَعْدَ عَدَمِهِ، فَالْعَرْشُ الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَى مَا تَحْتَ الشَّرَى، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ جَامِدٍ، وَنَاطِقٍ، الْجَمِيعُ خَلْقُهُ، وَمَلِكُهُ، وَعَبِيدُهُ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ، وَمَشِئَتِهِ»^(٢).

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَكَتَبَ فِي الذُّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضَ»:

أُضِيفَتِ الْكِتَابَةُ هُنَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَشَرِ الْكِتَابَةِ بِنَفْسِهِ، بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَأْمُرَ بِذَلِكَ مَنْ يَشَاءُ.

(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ٣٨٤).

(٢) البداية والنهاية (١/ ١١).

و«الذِّكْرُ» هنا هو محلُّ الكِتَابَةِ، وهو اللَّوْحُ المَحْفُوظُ.

والمُرَادُ: أَنَّهُ تَعَالَى كَتَبَ كُلَّ مَا أَرَادَ إِيجَادَهُ مِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي جَرَتْ فِيهَا الْكِتَابَةُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ^(١).

كما في الْحَدِيثِ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ، مَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ»^(٢).

وفي رواية: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِهَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣).

وفيه دليلٌ على: أَنَّ خَلْقَ الْعَرْشِ سَابِقٌ عَلَى خَلْقِ الْقَلَمِ، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧].



(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/٣٨٦).

(٢) رواه الترمذي (٢١٥٥)، وهو في صحيح الجامع (٢٠١٧).

(٣) رواه الإمام أحمد (٢٢٧٠٥)، وحسن إسناده محققو المسند.



الحديث الثاني



عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» قَالَ: «وَعَزَّشَهُ عَلَى الْمَاءِ»^(١).

الإيمان بالقدر من أركان الإيمان الستة التي لا يتم إيمان العبد إلا بها، وهي التي جاءت في حديث جبريل عليه السلام: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ»، قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ، وَشَرِّهِ»^(٢).

والإيمان بالقدر لا يتم إلا بالإيمان بمراتبه، وأركانه الأربعة، وهي: العلم، والكتابة، والمشية، والخلق، علم الرب سبحانه وتعالى بالأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل كونها، ومشيتها لها، وخلقها لها^(٣).

١. الإيمان بعلم الله الأزلي بالأشياء قبل كونها: وأنه أحاط بكل شيء علماً، وأنه علم ما كان، وما يكون، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، «جُمْلَةً، وَتَفْصِيلاً، وَأَنَّهُ عَلِمَ مَا الْخَلْقُ عَامِلُونَ قَبْلَ خَلْقِهِمْ، وَعَلِمَ أَرْزَاقَهُمْ،

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣)

(٢) رواه مسلم (٨).

(٣) شفاء العليل لابن القيم (ص ٢٩).

وَأَجَاهُمْ، وَأَعْمَاهُمْ، وَحَرَكَاتِهِمْ، وَسَكَنَاتِهِمْ، وَعَلِمَ مِنْهُمْ الشَّقِيَّ، وَالسَّعِيدَ، وَذَلِكَ بَعْلَمُهُ الْقَدِيمُ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَرْلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥] ^(١)، وَقَالَ: ﴿لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

٢. **الإيمان بالكتابة، وأن كلَّ شيءٍ كُتِبَ في اللوح المحفوظ قَبْلَ كَوْنِهِ**، قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ^(٢) ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ^(٣)﴾ [القمر: ٢٥-٣٥]، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ٢١].

وهذا ما دَلَّ عليه هذا الحديث: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».

قال العلماء: المراد: تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ ^(٤).

فالله تعالى أجرى القلم على اللوح المحفوظ؛ ليكتب مقادير الخلائق، ما كان، وما هو كائن إلى الأبد، على وفق ما سبق به علم الله تعالى، وإرادته، ومشيتته سبحانه وتعالى أَرْلَا ^(٥).

كما في الحديث المتقدم: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ، مَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ» ^(٦).

فَنُؤْمِنُ «بأنَّ الله كَتَبَ ما سَبَقَ به عِلْمُهُ مِنْ مقادير المخلوقات في اللوح المحفوظ، وهو الكتاب الذي لم يُفَرِّط فيه مِنْ شَيْءٍ؛ فكلُّ ما جرى، وما يجري، وكلُّ كائن إلى

(١) الوجيز في عقيدة السلف الصالح لعبد الله الأثري (ص ٩٤).

(٢) اللوح المحفوظ، وقيل: كتب الحفظة.

(٣) مستطر: مكتوب.

(٤) المفهم للقرطبي (٦/٦٦٨)، وشرح النووي على مسلم (١٦/٢٠٣).

(٥) مرقاة المفاتيح (١/١٤٧).

(٦) رواه الترمذي (٢١٥٥)، وهو في صحيح الجامع (٢٠١٧).

يوم القيامة، فهو مكتوبٌ عند الله تعالى في أم الكتاب، ويُسمَّى: الذِّكْرُ، والإمام، والكتابُ المُبينُ»^(١).

يقول الشيخُ ابنُ عُثيمينَ رَحِمَهُ اللهُ: «الإيمانُ بالقَدَرِ: أنْ تؤمنَ بتقديرِ الله عَزَّجَلَّ لِأَشْيَاءَ كُلِّهَا، سواءَ ما يتعلَّقُ بِفِعْلِهِ، أو ما يتعلَّقُ بِفِعْلِ غَيْرِهِ، وأنَّ الله عَزَّجَلَّ قَدَّرَهَا، وكتبَهَا عنده قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ، والأَرْضَ، بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ومعلومٌ أَنَّهُ لَا كِتَابَةَ إِلَّا بَعْدَ عِلْمٍ، فَالْعِلْمُ سَابِقٌ عَلَى الْكِتَابَةِ.

ثُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَعْلُومٍ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَكْتُوبًا؛ لِأَنَّ الَّذِي كُتِبَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُنَاكَ أَشْيَاءٌ بَعْدَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَثِيرَةٌ أَكْثَرُ مِمَّا فِي الدُّنْيَا، هِيَ مَعْلُومَةٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِي الْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، أَنَّهَا مَكْتُوبَةٌ»^(٢).

ففي إحدى روايات الحديث: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣).

٣. الإيمان بالإرادة والمشية:

فَقُومُوا بِأَنَّ «كُلَّ مَا يَجْرِي فِي هَذَا الْكَوْنِ فَهُوَ بِإِرَادَةِ اللَّهِ، وَمَشِيئَتِهِ، الدَّائِرَةُ بَيْنَ الرَّحْمَةِ، وَالْحِكْمَةِ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ؛ لِكَمَالِ حِكْمَتِهِ، وَسُلْطَانِهِ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ.

وَمَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مُطَابِقٌ لِعِلْمِهِ السَّابِقِ الْمَكْتُوبِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ؛ فَمَشِيئَةُ اللَّهِ نَافِذَةٌ، وَقُدْرَتُهُ شَامِلَةٌ، مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ؛ فَلَا يَخْرُجُ عَنْ إِرَادَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]»^(٤).

(١) الوجيز (ص ٩٥).

(٢) القول المفيد (٢/ ٤١٣).

(٣) رواه الإمام أحمد (٢٢٧٠٥)، وحسن إسناده محققو المسند.

(٤) الوجيز (ص ٩٥).

٤. الإيمان بالإيجاد والخلق:

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرٌ﴾ [الفرقان: ٢]، وقال: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

فَنُؤْمِنُ «بأنَّ اللهَ خالقُ كُلِّ شيءٍ، لا خالقَ غيرُهُ، ولا ربَّ سِوَاهُ، وأنَّ كُلَّ ما سِوَاهُ مخلوقٌ؛ فهو خالقُ كُلِّ عاملٍ وعَمَلِهِ، وكُلِّ مُتَحَرِّكٍ، وَحَرَكَتِهِ، وأنَّ كُلَّ ما يَجْري مِنْ خَيْرٍ، وَشَرٍّ، وَكُفْرٍ، وَإِيْمَانٍ، وَطَاعَةٍ، وَمَعْصِيَةٍ، شاءَهُ اللهُ، وَقَدَّرَهُ، وَخَلَقَهُ»^(١).

ونؤمنُ بأنَّ «هذه المراتب الأربع شاملة لما يكون من الله تعالى نفسه، ولما يكون من العباد؛ فكلُّ ما يقوم به العباد من أقوال، أو أفعال، أو ثروك، فهي معلومة لله تعالى، مكتوبة عنده، والله تعالى قد شاءها، وخلقها: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[التكوير: ٢٨-٢٩]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعام: ١١٢]، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]، وَلَكِنَّا مَعَ ذَلِكَ نُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لِلْعَبْدِ اخْتِيَارًا، وَقُدْرَةً، بهما يكون الفعل»^(٢).

فليس في كتابَةِ الله تعالى، وتقديرِهِ كُلِّ شَيْءٍ قَبْلَ وجودِهِ، مُنافاةٌ لمشيئةِ الإنسان، واختيارِهِ، كما يَتَوَهَّمُهُ بَعْضُ النَّاسِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ عِلْمَهُ بما يَعْمَلُهُ هَذَا المَخْلُوقُ، وما يَتَرَتَّبُ على عَمَلِهِ، وَلَمْ يُجِبِرْهُ على فِعْلِ المَعَاصِي، بَلْ نَهَاهُ عَنْهَا، وَزَجَرَهُ، وَحَذَرَهُ مِنْ فِعْلِهَا، وَتَوَعَّدَهُ على ذَلِكَ، وَخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ؛ لِيُخْتَارَ ما يُرِيدُ، مِنْ غَيْرِ إِكْرَاهٍ، وَإِزْامٍ^(٣).

(١) الوجيز (ص ٩٦).

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة لابن عثيمين (ص ٢٨).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (٢/ ٢١٩).

فَمِنْ كَمَالِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِمَا فِي السَّمَوَاتِ، وَمَا فِي الْأَرْضِ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا أَكْبَرَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى عِلْمُ الْكَائِنَاتِ كُلِّهَا قَبْلَ وُجُودِهَا، وَكَتَبَ ذَلِكَ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ.

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وهذا مِنْ تَمَامِ عِلْمِهِ تَعَالَى: أَنَّهُ عِلْمُ الْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا، وَقَدَّرَهَا، وَكَتَبَهَا أَيْضًا، فَمَا الْعِبَادُ عَامِلُونَ قَدْ عِلِمَهُ تَعَالَى قَبْلَ ذَلِكَ، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَفْعَلُونَهُ، فَيَعْلَمُ قَبْلَ الْخَلْقِ أَنَّ هَذَا يُطِيعُ بِاخْتِيَارِهِ، وَهَذَا يَعْصِي بِاخْتِيَارِهِ، وَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ، وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَهُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ، يَسِيرٌ لَدَيْهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَعَرَّشَهُ عَلَى الْمَاءِ»:

أي: قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضِ^(١).

وفيه دليل على: أَنَّ خَلْقَ الْعَرْشِ سَابِقٌ عَلَى خَلْقِ الْقَلَمِ، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧].

فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ حِينَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضَ، بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

(١) الْمُفْهَمُ لِلْقُرْطُبِيِّ (٦/٦٦٨)، وَشَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَى مُسْلِمٍ (١٦/٢٠٣).

وَكُتَابَةُ الْقَلَمِ لِلْقَدَرِ كَانَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي خُلِقَ فِيهَا؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).



(١) رواه الإمام أحمد (٢٢٧٠٥)، وحسن إسناده محققو المسند. وانظر: الصفدية (٧٨/٢)، وبغية المرتاد لابن تيمية (ص ٢٩٤)، وشفاء العليل لابن القيم (ص ٦)، والعرش للذهبي (١/٣٠٠).



الحديث الثالث



عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِـ «الطُّورِ»، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلْفُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا يُوفُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمْ الْمُصْطَرُونَ ﴿٣٧﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، قَالَ: «كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ» (١).

وفي رواية: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِـ «الطُّورِ»، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي» (٢).

قَدِمَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ الْمَدِينَةَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، يَطْلُبُ فِدَاءَ أُسَارَى بَدْرٍ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مُشْرِكًا عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، فَسَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ سُورَةَ «الطُّورِ» فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، فَسَمِعَ مِنْهُ هَذِهِ الْآيَاتِ، فَأَثَّرَتْ فِيهِ تَأْثِيرًا بَلِيغًا مَعَ أَنَّهُ مُشْرِكٌ مُصِرٌّ عَلَى الْكُفْرِ، وَكَانَ سَمَاعُ هَذِهِ الْآيَاتِ هُوَ سَبَبُ هِدَايَتِهِ، وَدُخُولِهِ الْإِسْلَامَ بَعْدَ ذَلِكَ (٣).

(١) رواه البخاري (٤٨٥٤).

(٢) رواه البخاري (٤٠٢٣).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٦٤، ٧/ ٤٣٧)، فتح الباري (٢/ ٢٤٨).

وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ رَوَايَاتِ الْحَدِيثِ: «فَكَانَ صُدْعٌ عَنْ قَلْبِي حِينَ سَمِعْتُ الْقُرْآنَ»^(١).

وَهَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي سَمِعَهَا جُبَيْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ قَوَارِعِ الْقُرْآنِ، الَّتِي انزَعَجَ لَهَا جُبَيْرٌ لَمَّا سَمِعَهَا؛ لِأَنَّهُ فَهِمَ مَعْنَاهَا، وَعَرَفَ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ الَّتِي لَا تَقَاوَمُ.

وَهِيَ كَافِيَةٌ لِمَنْ عِنْدَهُ عَقْلٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَفِيهَا: اسْتَدْلَالٌ عَلَيْهِمْ بِأَمْرِ لَا يُمَكِّنُهُمْ فِيهِ إِلَّا التَّسْلِيمُ لِلْحَقِّ، أَوْ الْخُرُوجُ عَنْ مَوْجِبِ الْعَقْلِ، وَالذِّينِ.

وَبَيَانُ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ مُنْكَرُونَ لِتَوْحِيدِ اللَّهِ، مُكَذِّبُونَ لِرَسُولِهِ، وَذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ لِانْكَارِ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ.

وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْعَقْلِ مَعَ الشَّرْعِ: أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدٍ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ:

إِمَّا أَنَّهُمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أَيُّ: لَا خَالِقَ خَلَقَهُمْ، بَلْ وُجِدُوا مِنْ غَيْرِ إِيجَادٍ، وَلَا مَوْجِدٍ.

وَهَذَا عَيْنُ الْمُحَالِ، وَمِمَّا لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ؛ لِأَنَّ تَعَلُّقَ الْخَلْقِ بِالْخَالِقِ مِنْ ضَرُورَةِ الْإِسْمِ، فَإِنْ أَنْكَرُوا الْخَالِقَ لَمْ يَجْزُ أَنْ يَوْجِدُوا بِلا خَالِقٍ.

أَوْ هُمْ الْخَالِقُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ وَهَذَا أَيْضًا مُحَالٌ، وَفِي الْبُطْلَانِ أَشَدُّ؛ فَإِنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ أَنْ يَوْجِدُوا أَنْفُسَهُمْ، وَمَا لَا وُجُودَ لَهُ كَيْفَ يَخْلُقُ؟!

وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ غَيْرِ مَكُونٍ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَمْ يَخْلُقُوا أَنْفُسَهُمْ، وَعِلْمُهُمْ بِحُكْمِ أَنْفُسِهِمْ مَعْلُومٌ بِالْفِطْرَةِ بِنَفْسِهِ، لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ: بِأَنَّ كُلَّ كَائِنٍ مُخَدَّثٌ لَا يَوْجَدُ بِنَفْسِهِ، وَلَا يَوْجَدُ مِنْ غَيْرٍ مَوْجِدٍ.

(١) رواه الإمام أحمد (١٦٧٦٢)، وضعفه محققو المسند.

فَإِذَا بَطَلَ هَذَانِ الْأَمْرَانِ، وَبَانَ اسْتِحَالَتُهُمَا؛ قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، وَتَعَيَّنَ الْقِسْمُ
الثَّالثُ: أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ.

فالمعنى: أَوْجِدُوا مِنْ غَيْرِ مَوْجِدٍ؟ أَمْ هُمْ أَوْجَدُوا أَنْفُسَهُمْ؟ أَيْ: لَا هَذَا، وَلَا
هَذَا، بَلِ اللَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ، وَأَنْشَأَهُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا.

وَإِذَا تَعَيَّنَ ذَلِكَ؛ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ، الَّذِي لَا تَتَّبَعِي الْعِبَادَةَ، وَلَا
تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ تَعَالَى، فَلْيُؤْمِنُوا بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٦]: هذا استنفهاً يَدُلُّ على تقرير
النفي، أَيْ: مَا خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضَ، فَيَكُونُوا هُمْ الْخَالِقِينَ، وَيَكُونُوا شُرَكَاءَ اللَّهِ.

أَيْ: إِنْ جَازَ لَهُمْ أَنْ يَدَّعُوا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ فِي تِلْكَ الْحَالِ، فَلْيَدَّعُوا خَلْقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ، وَذَلِكَ لَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَدَّعُوهُ بَوَاحٍ مِنَ الْوُجُوهِ، فَقَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ.

وَهَذَا إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ فِي شَرِكِهِم بِاللَّهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،
وَهَذَا أَمْرٌ وَاضِحٌ جَدًّا، وَلَكِنَّ عَدَمَ إِيقَانِهِمْ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَالْمُكَذِّبُونَ
﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦] **أَيْ:** لَيْسَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ تَامٌّ، وَيَقِينُ يَوْجِبُ لَهُمُ الْإِنْتِفَاعَ
بِالْأَدْلَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالْعَقْلِيَّةِ.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ﴾ [الطور: ٣٧] **أَيْ:** أَعِنْدَهُ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ خَزَائِنُ رَحْمَةِ
رَبِّكَ، فَيُعْطُونَ مَنْ يَشَاءُونَ، وَيَمْنَعُونَ مَنْ يُرِيدُونَ، وَيَتَصَرَّفُونَ فِي الْمُلْكِ، وَيَبْدَهُمْ
مَفَاتِيحُ الْخَزَائِنِ؟!

﴿أَمْ هُمْ الْمُضَيِّطُونَ﴾ [الطور: ٣٧]: الْمُحَاسِبُونَ لِلْخَلَائِقِ.

أَيْ: فَلِذَلِكَ حَجَرُوا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْطِيَ النُّبُوَّةَ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ،
وَكَأَنَّهُمُ الْوُكَلَاءُ الْمُفَوَّضُونَ عَلَى خَزَائِنِ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَهُمْ أَحَقُّ وَأَذَلُّ مِنْ ذَلِكَ، فَلَيْسَ
فِي أَيْدِيهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعٌ، وَلَا ضَرٌّ، وَلَا مَوْتُ، وَلَا حَيَاةٌ، وَلَا نُشُورٌ.

فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ بَلِ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ،
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (١).

وَلِذَا قَالَ جُبَيْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ»؛ لِقُوَّةِ هَذَا الدَّلِيلِ الْمُفْجَحِ الْمُقْنِعِ،
حَتَّى دَخَلَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ، ثُمَّ اطمَنَّ فِي قَلْبِهِ بَعْدَ ذَلِكَ.

لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ الْخَلْقَ حَادِثٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّ الَّذِي
أَحْدَثَهُ هُوَ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَّهُ حَادِثٌ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ!

إِذَا إِنَّ الدَّلِيلَ الْعَقْلِيَّ يَقْتَضِي أَنَّ كُلَّ حَادِثٍ لَهُ مُحْدِثٌ؛ لِأَنَّهُ كَانَ عَدَمًا ثُمَّ حَدَثَ،
فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ.

وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: إِنَّ الشَّيْءَ أَحْدَثَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ قَبْلَ الْحُدُوثِ
كَانَ عَدَمًا، وَالْعَدَمُ لَا يُحْدِثُ شَيْئًا، فَتَعَيَّنَ الْآنَ أَنَّ هُنَاكَ مُحْدِثًا لَيْسَ بِحَادِثٍ،
وَهُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

وَهَذَا مِنَ الْأَدَلَّةِ الَّتِي تُسَمَّى بِالسَّبْرِ وَالتَّقْسِيمِ؛ يَعْنِي: أَنَّ نَحْضَرَ الْأَشْيَاءَ الْمُمَكِّنَةَ،
ثُمَّ نَقُولُ: أَهَذَا، أَوْ هَذَا، أَوْ هَذَا؟ حَتَّى نَصِلَ إِلَى الْبُرْهَانِ (٢).

قَالَ الشَّانِقِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «السَّبْرُ وَالتَّقْسِيمُ عِنْدَ الْأُصُولِيِّينَ: يُسْتَعْمَلُ لاسْتِنْبَاطِ عِلَّةِ
الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، بِمَسَلِّكَ السَّبْرِ وَالتَّقْسِيمِ، وَضَابِطُ هَذَا الْمَسَلِّكِ عِنْدَ الْأُصُولِيِّينَ
أَمْرَانِ، الْأَوَّلُ: هُوَ حَضْرُ أَوْصَافِ الْأَصْلِ الْمَقْسُومِ عَلَيْهِ، وَالثَّانِي: إِبْطَالُ مَا لَيْسَ
صَالِحًا لِلْعِلَّةِ، فَإِنْ كَانَ الْحَضْرُ وَالْإِبْطَالُ مَعًا قَطْعِيَّيْنِ؛ فَهُوَ دَلِيلٌ قَطْعِيٌّ، وَإِنْ كَانَا
ظَنِّيَّيْنِ، أَوْ أَحَدُهُمَا ظَنِّيًّا؛ فَهُوَ دَلِيلٌ ظَنِّيٌّ، وَمِثَالُ مَا كَانَ الْحَضْرُ وَالْإِبْطَالُ فِيهِ قَطْعِيَّيْنِ:

(١) أعلام الحديث للخطابي (٣/ ١٩١٣)، تفسير البغوي (٧/ ٣٩٢)، مجموع الفتاوى (٢/ ١١)، تفسير
ابن كثير (٧/ ٤٣٧)، الصواعق المرسلة لابن القيم (٢/ ٤٩٣)، فتح الباري (٨/ ٦٠٣)، تفسير
السعدي (ص ٨١٦).

(٢) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام لابن عثيمين (٢/ ٩٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]؛ لِأَنَّ حَصَرَ أَوْ صَافِ الْمَحَلِّ فِي الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ قَطْعِيٌّ لَا شَكَّ فِيهِ؛ لِأَنَّهُمْ إِمَّا أَنْ يُخْلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، أَوْ يُخْلَقُوا أَنْفُسَهُمْ، أَوْ يُخْلَقَهُمْ خَالِقٌ غَيْرُ أَنْفُسِهِمْ، وَلَا رَابِعَ أَلْبَتَّةَ، وَإِبْطَالُ الْقِسْمَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ قَطْعِيٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، فَيَتَعَيَّنُ أَنَّ الثَّالِثَ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، وَقَدْ حُذِفَ فِي الْآيَةِ لِظُهُورِهِ، فَدَلَالَةُ هَذَا السَّبْرِ وَالتَّقْسِيمِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ قَطْعِيَّةٌ لَا شَكَّ فِيهَا^(١).



(١) أضواء البيان (٣/ ٤٩٥).



الحديث الرابع



عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ، فَيَسْأَلُهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقَالَ:

يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ، فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «صَدَقَ».

قال: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قال: «اللَّهُ».

قال: فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ قال: «اللَّهُ».

قال: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قال: «اللَّهُ».

قال: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ، أَلِلَّهُ أَرْسَلَكَ؟ قال: «نَعَمْ»... الْحَدِيثُ^(١)، وتماثله:

قال: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خُمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا؟ قال: «صَدَقَ».

قال: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، أَلِلَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قال: «نَعَمْ».

قال: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَهْوَالِنَا؟ قال: «صَدَقَ».

قال: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، أَلِلَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قال: «نَعَمْ».

(١) رواه البخاري (٦٣)، ومسلم (١٢) واللفظ له.

قال: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا؟ قال: «صَدَقَ».

قال: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ، اللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قال: «نَعَمْ».

قال: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ قَبْلَ اسْتِطَاعِ إِلَيْهِ سَبِيلًا؟ قال:

«صَدَقَ».

قال: ثُمَّ وَلَّى، قال: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ.

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ».

هذا الرَّجُلُ هُوَ ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ مَعْرُوفًا بِحُسْنِ السُّؤَالِ، كَمَا قَالَ
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ مَسْأَلَةً، وَلَا أَوْجَزَ مِنْ ضِمَامِ بْنِ
ثَعْلَبَةَ»^(١).

وَقَدْ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ كَثْرَةِ سُؤَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا، وَعَمَّا
لَا ضَرُورَةَ إِلَيْهِ، وَلَا فَايِدَةَ لَهُمْ فِي السُّؤَالِ، وَالتَّنْقِيبِ عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَكْأَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

أَمَّا مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فَلَا مَانِعَ مِنْهُ، وَهُوَ مِنْ سُؤَالِ أَهْلِ الذِّكْرِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ:
﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وَلِذَا كَانَ يُعْجِبُ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، مِمَّنْ لَمْ يَلِغْهُ
النَّهْيُ عَنِ السُّؤَالِ، وَيَكُونُ عَاقِلًا، فَيَسْأَلُ وَهُمْ يَسْمَعُونَ؛ لِأَنَّ الْعَاقِلَ أَعْرَفُ بِكَيْفِيَّةِ
السُّؤَالِ، وَأَدَابِهِ، وَالْمُهِّمِّ مِنْهُ، وَحُسْنِ الْمُرَاجَعَةِ، فَيَنْتَفِعُوا بِالْجَوَابِ^(٢).

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٣/ ٣٩٥).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ١٦٩)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٨٠، ٣/ ٢٠٣).

وَقَدْ اِكْتَفَى هَذَا الرَّجُلُ الْعَاقِلُ بِأَسْئَلَةٍ سَهْلَةٍ، يَكُونُ فِي جَوَابِهَا إِثْبَاتٌ لِوُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَاسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أَيْقَنَ بَعْدَهَا بِصِدْقِهِ ﷺ بِمَا رَأَى وَشَاهَدَ مِنَ الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ كَانَتْ بَدِيهَتُهُ ^(١) تَأْتِيكَ بِالْخَبَرِ ^(٢)

فَسَأَلَهُ مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ وَمَنْ نَصَبَ الْجِبَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَالْمَعَادِنِ؟ فَأَجَابَهُ: «اللَّهُ».

قَالَ الْعُلَمَاءُ: «وَهَذَا مِنْ حُسْنِ سُؤَالِ هَذَا الرَّجُلِ، وَمَلَاحِظَةِ سِيَاقَتِهِ، وَتَرْتِيبِهِ؛ فَإِنَّهُ سَأَلَ أَوَّلًا عَنْ صَانِعِ الْمَخْلُوقَاتِ مَنْ هُوَ؟ ثُمَّ أَقْسَمَ عَلَيْهِ بِهِ أَنْ يَصْدُقَهُ فِي كَوْنِهِ رَسُولًا لِلْخَالِقِ، ثُمَّ لَمَّا وَقَفَ عَلَى رِسَالَتِهِ وَعِلْمِهَا؛ أَقْسَمَ عَلَيْهِ بِهِ، وَهَذَا تَرْتِيبٌ يَفْتَقِرُ إِلَى عَقْلِ رَصِينٍ» ^(٣).

وهذا استدلالٌ بِالْمَخْلُوقَاتِ عَلَى الْخَالِقِ، وَتَفَكُّرٌ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ، وَالْأَكْوَانِ، يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ.

وَهُوَ مِنَ الْأَدَلَّةِ الْيَقِينِيَّةِ عَلَى وُجُودِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَعَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿ قُلْ أُنظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١]، وَقَالَ: ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ ﴿ ٢٠ ﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].

وهذا كما ذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى صُنْعَهُ، وَعَجَائِبَ خَلْقِهِ، وَأَمْرَهُمُ بِالنَّظَرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ نَظَرَ اعْتِبَارٍ إِلَى خَلْقِهَا الْبَدِيعِ؛ لِيَسْتَدْلُوا بِمَا فِيهَا مِنَ الْعَبَرِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ، وَعَظَمَتِهِ،

(١) مظهره.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٥).

(٣) شرح النووي على مسلم (١/ ١٧١).

وَوَحْدَانِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلْيَعْلَمُوا بِقُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى بَعْثِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَسْتَدِلُّوْا بِهَا عَلَى صِحَّةِ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ صِحَّةِ الْمَعَادِ، وَالْجَزَاءِ، وَالْحِسَابِ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

فهذه الإبل خلقت عجيبة، وتركيبها غريب؛ فإنها في غاية القوة، والشدة، وهي مع ذلك تليق للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، حتى إن الصبي الصغير يأخذ بزمامها، فيذهب بها حيث شاء! وتؤكل، وتتنفع بوبرها، ويشرب لبنها، وبهوا بذلك؛ لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكانت أنفس أموالهم وأكثرها.

وهذه السماء، أفلا ينظرون كيف رفعها الله عز وجل عن الأرض هذا الرفع العظيم، بغير عمد، حتى لا ينالها شيء، والعرب ينظرون إلى السماء نهارهم، وليلهم، في إقامتهم، وظعنهم؛ فكيف لا يتدبرون في عظيم خلق السماء؟! ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

وهذه الجبال، أفلا ينظرون إليها كيف نُصِبَتْ على وجه الأرض نصباً ثابتاً، أي: رُفِعَتْ، وهي مع ارتفاعها مُرساة، راسخة، راسية، لا تميل بأهلها، ولا تزول، ولا تتغير، وجعل فيها ما جعل من المنافع، والمعادن؟

وهذه الأرض، أفلا ينظرون إليها كيف بسطت، وسويت، ومهدت، ومُدَّتْ، مَدًّا واسعاً، وسهلت غاية التسهيل؛ ليستقرّ الخلائق على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها، وغراسها، والبنيان فيها، وسلوك الطرق الموصلة إلى أنواع المقاصد فيها؟^(١).

فنبه القرآن الكريم الرجل البدوي على الاستدلال بما يشاهده من: بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته،

(١) تفسير البغوي (٨/ ٤١٠)، زاد المسير (٤/ ٤٣٦)، تفسير القرطبي (٢٠/ ٣٦)، تفسير ابن كثير

(٨/ ٣٨٧)، تفسير السعدي (ص ٩٢٢).

نَبَّهَ بِهَذَا عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِ ذَلِكَ، وَصَانِعِهِ، وَأَنَّ الرَّبَّ الْعَظِيمُ الْخَالِقُ الْمُتَصَرِّفُ الْمَالِكُ، وَأَنَّ الْإِلَهَ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ^(١).

وَلِذَا جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «يَقُولُ: هَلْ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَ الْإِبْلِ، أَوْ يَرْفَعَ مِثْلَ السَّمَاءِ، أَوْ يَنْصَبَ مِثْلَ الْجِبَالِ، أَوْ يَسْطَحَ مِثْلَ الْأَرْضِ غَيْرِي؟!»^(٢).

وَهَكَذَا أَقْسَمَ ضِمَامٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -هنا في سُؤَالِهِ- عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَقَالَ: «فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالِ، اللَّهُ أَرْسَلَكَ؟»، فَقَالَ ﷺ: «نَعَمْ».



(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٨٧).

(٢) التفسير الوسيط للواحدي (٤/ ٤٧٦)، والبعوي (٨/ ٤١٠).



الحديث الخامس



عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَخَذَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى المِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بْنِغَمَانٍ -يَعْنِي: عَرَفَةَ- فَأَخْرَجَ مِنْ ضُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَاهَا، فَتَنَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالدَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قَبْلًا، قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]»^(١).

«الميثاق» هو العهد.

(١) رواه النَّسَائِيُّ فِي الْكُبْرَى (١١١٢٧)، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٢٤٥٥)، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٤٠٠)، وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَكَذَا صَحَّحَهُ الْأَبَانِيُّ فِي الصَّحِيحَةِ (١٦٢٣)، وَضَعَفَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ وَغَيْرُهُ، وَصَحَّحَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ وَغَيْرُهُ وَقَفَهُ، وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ: «الْمُرَادُ بِهَذَا الْإِشْهَادِ إِنَّمَا هُوَ فُطِرْتُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ» وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوِيَّةٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قَالَ: «أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّهَا الْأَرْوَاحُ قَبْلَ الْأَجْسَادِ، فَاسْتَنْطَقَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾» [الاستدكار (١٠٧/٣)، وَقَالَ ابْنُ الْأَثَرِيِّ: «مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَكِبَرَاءِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ وَأَصْلَابِ أَوْلَادِهِ وَهُمْ فِي صُورِ الدَّرِّ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ أَنَّهُ خَالِقُهُمْ، وَأَنَّهُمْ مُصْنُوعُونَ، فَاعْتَرَفُوا بِذَلِكَ وَقَبِلُوا» الرُّوح (ص ١٦٣)، وَاسْتَشْهَدَ هَؤُلَاءِ فِي الْجُمْلَةِ بِمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتُ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي».

وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الْمَوَاقِيقَ الَّتِي أَخَذَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى بَنِي آدَمَ، ثَلَاثَةٌ مَوَاقِيقُ:

الأوّل: الميثاقُ المذكورُ في هذا الحديث: وهو الميثاقُ الذي أَخَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى بَنِي آدَمَ، حِينَ أَخْرَجَهُمْ مِنْ ظَهْرِ أَرْحَامِهِمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾.

وفي الحديث: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَقْتَدِي بِهِ؟» يَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا^(١)، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي^(٢).

والمعنى: أَمَرْتُكَ حِينَ أَخَذْتُ الميثاقَ، فَأَبَيْتَ -إِذْ أَخْرَجْتُكَ إِلَى الدُّنْيَا- إِلَّا الشُّرْكَ^(٣).

الثاني: ميثاقُ الفِطْرَةِ: وهو أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَطَرَهُمْ عَلَى تَوْحِيدِهِ، وَدِينِهِ، شَاهِدِينَ بِمَا أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ فِي الميثاقِ الأوّلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ﴾ [الروم: ٣٠].

فَاللَّهُ تَعَالَى اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ، شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ، وَمَلِكُهُمْ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى فَطَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَجَبَلَهُمْ عَلَيْهِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَاؤُهُ يُهَيِّدُونَهُ، أَوْ يُنَصِّرُونَهُ، أَوْ يُمَجِّسُونَهُ، كَمَا تُنْتَجِ^(٤) الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ^(٥)، هَلْ تَحْسُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ^(٦)؟»^(٧).

(١) يعني: أَمَرْتُكَ.

(٢) رواه البخاري (٦٥٥٧)، ومسلم (٢٨٠٥).

(٣) فتح الباري (١١/٤٠٣).

(٤) تَلَد.

(٥) مجتمعة الأعضاء سليمة من النقص.

(٦) مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء.

(٧) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

والمعنى: «أَنَّ الْبَهِيمَةَ تِلْدُ الْبَهِيمَةَ كَامِلَةَ الْأَعْضَاءِ لَا نَقْصَ فِيهَا، وَإِنَّا يَحْدُثُ فِيهَا الْجَدْعُ، وَالنَّقْصُ، بَعْدَ وَلَا ذِتَهَا»^(١).

وقال تعالى في الحديث القدسي: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُفَاءَ كُلِّهِمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَالَتْهُمْ»^(٢) عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»^(٣).

الميثاق الثالث: ما جاءت به الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، تَجْدِيدًا لِلْمِيثَاقِ الْأَوَّلِ، وَتَذْكِيرًا بِهِ، كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

فَمَنْ أَدْرَكَ هَذَا الْمِيثَاقَ وَهُوَ بَاقٍ عَلَى فِطْرَتِهِ، الَّتِي هِيَ شَاهِدَةٌ بِمَا ثَبَتَ فِي الْمِيثَاقِ الْأَوَّلِ؛ فَإِنَّهُ يَقْبَلُ ذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ مَرَّةٍ، وَلَا يَتَوَقَّفُ؛ لِأَنَّهُ جَاءَ مُوَافِقًا لِمَا فِي فِطْرَتِهِ، وَمَا جَبَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَزِدُّهُ بِذَلِكَ يَقِينُهُ، وَيَقْوَى إِيمَانُهُ، فَلَا يَتَلَعَثُ، وَلَا يَتَرَدَّدُ.

وَمَنْ أَدْرَكَهُ وَقَدْ تَغَيَّرَتْ فِطْرَتُهُ عَمَّا جَبَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِقْرَارِ بِمَا ثَبَتَ فِي الْمِيثَاقِ الْأَوَّلِ، بَأَنْ كَانَ قَدْ اجْتَالَتْهُ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِ، وَهُودَهُ أَبَوَاهُ، أَوْ نَصْرَاهُ، أَوْ مَجَسَّاهُ، فَهَذَا إِنْ تَدَارَكَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ، فَارْجَعَ إِلَى فِطْرَتِهِ، وَصَدَّقَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ؛ نَفَعَهُ الْمِيثَاقُ الْأَوَّلُ، وَالثَّانِي.

وَإِنْ كَذَّبَ بِهَذَا الْمِيثَاقِ؛ كَانَ مُكَذِّبًا بِالْأَوَّلِ، فَلَمْ يَنْفَعَهُ إِقْرَارُهُ بِهِ يَوْمَ أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] جَوَابًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وَقَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّةُ اللَّهِ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشَّقْوَةُ، وَحَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ، ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/٢٠٩).

(٢) اسْتَحَفَّتْهُمْ، فَجَالُوا مَعَهُمْ فِي الضَّلَالِ.

(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥).

وَمَنْ لَمْ يُدْرِكْ هَذَا الْمِيثَاقَ الثَّالِثَ، بَأَنْ مَاتَ صَغِيرًا قَبْلَ التَّكْلِيفِ؛ مَاتَ عَلَى الْمِيثَاقِ الْأَوَّلِ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَوْلَادُ الْمُسْلِمِينَ مَعَ آبَائِهِمْ.

وَإِنْ كَانَ مِنْ أَوْلَادِ الْمُشْرِكِينَ؛ فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانَ عَامِلًا لَوْ أَدْرَكَهُ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ^(١)، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَوْلَادِ الْمُشْرِكِينَ؛ فَقَالَ: «اللَّهُ إِذْ خَلَقَهُمْ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ»^(٢).

وَلِذَا بَطَلَتْ حُجَّةُ الْكَافِرِينَ بِأَخْذِ هَذِهِ الْمَوَاقِيعِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُذْرٌ فِي تَرْكِ الْإِيمَانِ، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

أَيُّ: لَيْلًا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ التَّوْحِيدِ، وَالْمِيثَاقِ، وَالْإِقْرَارِ ﴿غَافِلِينَ﴾.

فَالْيَوْمَ قَدْ انْقَطَعَتْ حُجَّتُكُمْ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ بِالْإِغَةِ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ، فَكُلُّ أَحَدٍ مَفْطُورٌ عَلَى ذَلِكَ، وَجَاءَتِ الرُّسُلُ تَجْدِيدًا، وَتَذْكِيرًا بِهَذَا الْمِيثَاقِ؛ وَلَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ^(٣).



(١) البخاري (١٣٨٣)، ومسلم (٢٦٦٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٠)، معارج القبول لحافظ الحكمي (١/ ٩٢).

(٣) تفسير البغوي (٣/ ٢٩٩)، تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٦)، تفسير السعدي (ص ٣٠٨).



الحديث السادس



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»^(١).

في هذا الحديث بيانٌ لعظيمِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحْدَهُ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ لَهُ، مَرْبُوبٌ، مُدَبَّرٌ.

وَفِيهِ: تَحَدُّ، وَتَعْجِيزٌ، وَتَبَكُّيْتُ، وَتَوْبِيخٌ، لَمَنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِ اللَّهِ، وَأَتَى لَهُ ذَلِكَ؟! فَلَا أَحَدَ أَظْلَمَ مِنْهُ.

وَالْوَعِيدُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ لِلْمُصَوِّرِينَ الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ، وَهُمْ الَّذِينَ يَصْنَعُونَ تَمَائِيلَ وَصُورَ ذَوَاتِ الْأَرْوَاحِ.

وَالْمَعْنَى: «فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً» يَعْنِي: نَمْلَةً صَغِيرَةً، فِيهَا رُوحٌ، تَتَصَرَّفُ بِنَفْسِهَا كَهَذِهِ الذَّرَّةِ الَّتِي هِيَ خَلْقُ اللَّهِ تَعَالَى.

«أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً» أَي: حَبَّةً فِيهَا طَعْمٌ، تُؤْكَلُ، وَتُزْرَعُ،

(١) رواه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

وَتَنْبُتُ، وَيَوْجَدُ فِيهَا مَا يَوْجَدُ فِي حَبَّةِ الْحِنْطَةِ، وَالشَّعِيرِ، وَنَحْوِهِمَا مِنَ الْحَبِّ الَّذِي يَخْلُقُهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَهُوَ أَمْرٌ تَعْجِيزٌ^(١).

«وَالْعَرَضُ: تَعْجِيزُهُمْ، تَارَةً بِتَكْلِيفِهِمْ خَلْقَ حَيَوَانٍ، وَهُوَ أَشَدُّ، وَأُخْرَى بِتَكْلِيفِهِمْ خَلْقَ جَمَادٍ، وَهُوَ أَهْوَنُ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»^(٢).

وَلِذَلِكَ مِنْ أَمْثَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ تَدَبُّرُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۗ﴾^(٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٣﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يَشْمَلُ كُلَّ مَا يُدْعَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾. وَذَلِكَ أَنَّ الْمَعْبُودَ أَقَلَّ دَرَجَاتِهِ أَنْ يَقْدَرَ عَلَى إِيجَادِ مَا يَنْفَعُ عَابِدَهُ، وَإِعْدَامِ مَا يَضُرُّهُ.

وَالْإِلَهَةُ الَّتِي يَعْبُدُهَا الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ تَقْدِرَ عَلَى خَلْقِ الذُّبَابِ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ لَخَلَقِهِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَسَاعَدَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَعَاوَنَهُ بِأَبْلَغِ الْمُعَاوَنَةِ؛ لَعَجَزُوا عَنْ خَلْقِ ذُبَابَةٍ وَاحِدَةٍ، فَكَيْفَ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ؟!

وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ رَوَايَاتِ هَذَا الْحَدِيثِ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ خَلَقَ خَلْقًا كَخَلْقِي؟! فَلْيَخْلُقُوا مِثْلَ خَلْقِي: ذَرَّةً، أَوْ ذُبَابَةً، أَوْ حَبَّةً»^(٣).

(١) شرح النووي على مسلم (١٤ / ٩١).

(٢) فتح الباري (١٠ / ٣٨٦).

(٣) رواه الإمام أحمد (٩٠٨٢).

ثُمَّ بَيَّنَّ ضَعْفَهُمْ، وَعَجَزَهُمْ عَنِ اسْتِنْقَازِ مَا يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ إِيَّاهُ، وَعَنْ مُقَاوَمَتِهِ، وَالِانْتِصَارِ مِنْهُ؛ فَقَالَ: ﴿وَلَنْ يَسْلُبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾؛ فَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْإِنْتِصَارِ مِنَ الذُّبَابِ إِذَا سَلَبَهُمْ شَيْئًا مِمَّا عَلَيْهِمْ، مِنْ طَيِّبٍ وَنَحْوِهِ^(١)، فَيَسْتَنْقِذُونَهُ مِنْهُ!

هذا والذُّبَابُ مِنْ أضعفِ مخلوقاتِ الله، وأحقَرِها، وهذا غايةُ ما يصيرُ مِنَ الْعَجْزِ! فَلَا هُمْ قَادِرُونَ عَلَى خَلْقِ الذُّبَابِ الَّذِي هُوَ مِنْ أضعفِ الْحَيَوَانَاتِ، وَأَخْسَها، وَلَا عَلَى الْإِنْتِصَارِ مِنْهُ، وَاسْتِرْجَاعِ مَا سَلَبَهُمْ إِيَّاهُ!

فَإِذَا كَانَ هَذَا الَّذِي هُوَ أضعفُ الْحَيَوَانِ، وَأَحقرُّهُ، لَا يَقْدِرُ مَنْ عَبْدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَلَى خَلْقِ مِثْلِهِ، وَدَفْعِ أَذْيَتِهِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا إِلَهَةً مَعْبُودِينَ، وَأَرْبَابًا مُطَاعِينَ؟! وَهَذَا مِنْ أَقْوَى حُجَّةٍ، وَأَوْضَحِ بُرْهَانٍ.

فَلَا أعْجَزَ مِنْ هَذِهِ الْإِلَهَةِ، وَلَا أضعفَ مِنْهَا، فَكَيْفَ يَسْتَحْسِنُ عَاقِلٌ عِبَادَتَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ؟!!

فَمَنْ جَعَلَ هَذَا إِلَهًا مَعَ الْقَوِيِّ الْعَزِيزِ؛ فَمَا قَدْرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ، وَلَا عَرَفَهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، وَلَا عَظَمَتَهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ، فَهَلْ قَدَّرَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ أَشْرَكَ مَعَهُ إِلَهَةً هَذَا شَأْنُهَا؟! وَلِذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الحج: ٧٤]^(٢).

وَحَتَمَ الْمَثَلَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤] **أي:** كَامِلُ الْقُوَّةِ، كَامِلُ الْعِزَّةِ، بِقُدْرَتِهِ، وَقُوَّتِهِ، خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَعَزَّ كُلَّ شَيْءٍ، فَتَقَهَّرَهُ، وَغَلَبَهُ، فَلَا يُبَالِغُ، وَلَا يُغَالِبُ، لِعَظَمَتِهِ، وَسُلْطَانِهِ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ.

(١) وَقَدْ يَسْلُبُ الْحَيَاةَ بِنَقْلِ الْمَيَكْرُوبَاتِ.

(٢) تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ (١٦/٦٣٥)، تَفْسِيرُ الْمَاورِدِيِّ (٤/٤٠)، تَفْسِيرُ الْبَغْوِيِّ (٥/٤٠٠)، تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ

(٩٧/١٢)، تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ (٥/٤٥٣)، تَفْسِيرُ السَّعْدِيِّ (ص ٥٤٦)، الصَّوَاغِقُ الْمَرْسَلَةُ (٢/٤٦٦)،

إِعْلَامُ الْمُوقِّعِينَ (٢/٣١٢).

وَمِنْ كَمَالِ قُوَّتِهِ وَعِزَّتِهِ: أَنَّ نَوَاصِي الْخَلْقِ بِيَدَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يَتَحَرَّكُ مُتَحَرِّكٌ، وَلَا يَسْكُنُ سَاكِنٌ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ، وَمَشِيتَتِهِ، فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وَمِنْ كَمَالِ قُوَّتِهِ: أَنَّهُ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهٗ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

وَمِنْ كَمَالِ قُوَّتِهِ: أَنَّهُ يَبْعَثُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ، أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ، بِصَيِّحَةٍ وَاحِدَةٍ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وَمِنْ كَمَالِ قُوَّتِهِ: أَنَّهُ أَهْلَكَ الْجَبَابِرَةَ، وَالْأَمَمَ الْعَاتِيَةَ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ، وَسَوَّطَ مِنْ عَذَابِهِ، كَرَجْفَةٍ، أَوْ صَيِّحَةٍ، أَوْ رِيحٍ، أَوْ خَسْفٍ^(١).

فَاللَّهُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ يَخْلُقُ الْخَلْقَ مِنَ الْعَدَمِ بَأَنْ يَقُولَ لِلشَّيْءِ: «كُنْ»، فَيَكُونُ، قَالَ تَعَالَى لِعَبْدِهِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]، فَهَلْ يَقْدِرُ الْبَشَرُ أَنْ يَخْلُقُوا كَائِنًا حَيًّا مِنَ الْعَدَمِ؟ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ الْكَائِنُ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الصَّغَرِ، كَالنَّمْلَةِ، أَوِ الذُّبَابِ؟

بَلْ هَلْ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَخْلُقُوا جَمَادًا مِنَ الْعَدَمِ، مَهْمَا كَانَ صَغِيرًا، كَحَبَّةِ شَعِيرٍ، أَوْ قَمَحٍ؟!

إِنَّ غَايَةَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَشَرُ أَنْ يَصْنَعُوا شَيْئًا مِنَ الْعَنَاصِرِ، وَالْمَوَادِّ، الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ فِي الْكَوْنِ، وَهُمْ يُحَوِّلُونَهَا مِنْ صُورَةٍ إِلَى أُخْرَى.

وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَهَا وَأَوْجَدَهَا مِنَ الْعَدَمِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٥٤)، تفسير السعدي (ص ٥٤٦).

ثُمَّ بَعَدَ أَنْ خَلَقَهَا لَهُمْ سَخَّرَهَا لَهُمْ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْإِنْتِفَاعِ بِهَا لَا فِي قَلِيلٍ، وَلَا كَثِيرٍ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

بَلْ إِنَّ الْإِنْسَانَ نَفْسُهُ، وَعَقْلُهُ الَّذِي يُفَكِّرُ بِهِ، وَقَوَّتُهُ الَّتِي يَعْمَلُ بِهَا، وَحِيلَتُهُ الَّتِي يَحْتَالُ بِهَا؛ كُلُّ ذَلِكَ هُوَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفافات: ٩٦].

فَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ: أَنَّ كُلَّ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْبَشَرِيَّةُ مِنْ عُلُومٍ، وَتَقَدَّمَ، وَازْدَهَارٍ، وَتَكْنُولُوجِيَا، وَوَسَائِلَ حَدِيثَةٍ، هِيَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، وَفَضْلِهِ، وَمِنْتَهَى عَلَى عِبَادِهِ: ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩]، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وَلَوْ حَجَبَ اللَّهُ الشَّمْسَ عَنْ عِبَادِهِ، أَوْ سَلَّطَ عَلَيْهِمُ الرِّيَّاحَ الْعَاتِيَةَ، أَوْ مَنَعَهُمُ الْمَاءَ، أَوْ الْهَوَاءَ؛ فَكَيْفَ سَيَكُونُ مَصِيرُهُمْ؟! ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْمَزِيدَ مِنْ فَضْلِهِ.





الحديث السابع



عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ، وَلْيَنْتَه»^(١).

وفي رواية: «لَا يَزَالُ النَّاسُ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْعِلْمِ، حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللَّهُ خَلَقَنَا، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟»^(٢).

وفي رواية: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ فَيَقُولُ: اللَّهُ عَزَّجَلَّ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ فَيَقُولُ: اللَّهُ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ فَإِذَا أَحَسَّ أَحَدَكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ»^(٣).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: قال الله عَزَّجَلَّ: «إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يَزَالُونَ يَقُولُونَ: مَا كَذَا؟ مَا كَذَا؟ حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟»^(٤).

(١) رواه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٢) رواه مسلم (١٣٥).

(٣) رواه أحمد (٨٣٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٤) رواه البخاري (٧٢٩٦)، ومسلم (١٣٦)، واللفظ له.

هذا الأمر الذي أخبر عنه النبي ﷺ قد وقع من قديم، ولا يزال يقع، ولا بد أن يُلقي الشيطان هذا الإيراد الباطل، إمّا وسوسةً مخضّةً، أو على لسان شياطين الإنس، وملائحتهم.

وقد قال أبو هريرة رضي الله عنه بعد روايته لهذا الحديث: «فَبَيْنَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ؛ إِذْ جَاءَنِي نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، فَقَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، هَذَا اللَّهُ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ قَالَ: فَأَخَذَ حَصَى بِكَفِّهِ فَرَمَاهُمْ، ثُمَّ قَالَ: قوموا قوموا، صدق خليلي»^(١).

وقد وقع كما أخبر ﷺ؛ فإنَّ الأمرين وقعا، لا يزال الشيطان يدفع إلى قلوب من ليست لهم بصيرة هذا السؤال الباطل، ولا يزال أهل الإلحاد يُلقون هذه الشبهة التي هي أبطل الشبه، ويتكلمون عن العِلل، وعن موادِّ العلم، بكلامٍ سخيفٍ معروفٍ^(٢).

يقول الملاحدة: «سلمنا أن الله خالق كل شيء؛ فمن خلق الله؟!

وهذا سؤال فاسد من أساسه، ومغالطة؛ «فالْمُلْحِدُ يُسَلِّمُ بَأَنَّهُ خَالِقٌ، ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ خَلَقَهُ؟ فيجعل منه خالقًا ومخلوقًا في نفس الجملة!

وهذا تناقض واضح في بدائة العقول؛ لأنَّ الخالق لا يمكن أن يكون مخلوقًا، والمخلوق لا يمكن أن يكون خالقًا»^(٣).

ثم إننا لو سلمنا بهذا؛ فهذا يلزم منه التسلسل، وهذا محال عقلاً.

فلو أجبنا عن سؤالك: مَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ بَأَنَّهُ: خَالِقٌ آخَرُ، سَيرِدُ نَفْسُ السُّؤَالِ عَلَى الْخَالِقِ الْآخَرِ؛ فيقال: مَنْ خَلَقَهُ؟ وهكذا إلى ما لا نهاية له. فيلزم من هذا نفْيُ الْخَالِقِ!

(١) رواه مسلم (١٣٥).

(٢) بهجة قلوب الأبرار للسعدي (ص ٢٧).

(٣) الإلحاد، للدكتور صالح بن عبد العزيز سندي (ص ٥٣).

يَقُولُ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخالقُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا، ثُمَّ لَوْ كَانَ السُّؤَالُ^(١) مُتَّجِهَا؛ لاسْتَلْزَمَ التَّسْلُسُ، وَهُوَ مُحَالٌ.

وَقَدْ أَثَبَتَ الْعَقْلُ أَنَّ الْمُحَدَّثَاتِ مُفْتَقِرَةٌ إِلَى مُحَدِّثٍ، فَلَوْ كَانَ هُوَ مُفْتَقِرًا إِلَى مُحَدِّثٍ؛ لَكَانَ مِنَ الْمُحَدَّثَاتِ»^(٢).

وَمِنْ تَلْبِيسَاتِهِمْ أَيْضًا: قَوْلُهُمْ: «هَلْ يَسْتَطِيعُ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ صَخْرَةً لَا يَسْتَطِيعُ حَمَلُهَا؟!». وهذا السُّؤَالُ وَأَمْثَالُهُ فِيهِ مَغَالِطَةٌ كَبِيرَةٌ، وَيُحَاوَلُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُلْحِدِينَ أَنْ يَسْتَعْمِلُوهُ فِي حَوَارَاتِهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ يُرِيدُونَ إِلْزَامَ الْمُجِيبِ بِالْبَاطِلِ:

فَإِنْ قَالَ: لَا يَسْتَطِيعُ، قَالُوا: كَيْفَ يَكُونُ إِلَهًا وَهُوَ عَاجِزٌ عَنِ الْخَلْقِ؟!

وَإِنْ قَالَ: يَسْتَطِيعُ، قَالُوا: كَيْفَ يَكُونُ إِلَهًا وَهُوَ عَاجِزٌ عَنِ الْحَمْلِ وَالرَّفْعِ لَهُذِهِ الصَّخْرَةَ؟!

وَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا السُّؤَالَ غَيْرُ صَحِيحٍ فِي الْأَصْلِ، فَقُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى لَا تَتَعَلَّقُ بِالْمُسْتَحِيلَاتِ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَهًا وَهُوَ عَاجِزٌ عَنِ رَفْعِ «صَخْرَتِهِمْ»، وَمِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الْقُدْرَةُ؟! وَهَلْ سَيُوجَدُ فِي صِفَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ صِفَاتِ خَالِقِهَا؟

فَقُدْرَةُ اللَّهِ مُطْلَقَةٌ، وَغَيْرُ مَحْدُودَةٍ، لَكِنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِالْمُمْكِنَاتِ الْعَقْلِيَّةِ، لَا بِالْمُسْتَحِيلَاتِ الْعَقْلِيَّةِ، فَالْقُدْرَةُ مَهْمَا كَانَتْ مُطْلَقَةً، وَلَا حُدُودَ لَهَا، تَبْقَى فِي دَائِرَةِ مُمْكِنَاتِ الْوُجُودِ، وَلَا تَتَعَلَّقُ بِالْمُسْتَحِيلَاتِ.

فَسُؤَالُ «مَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟» فَاسِدٌ مِنْ أَصْلِهِ، وَأَصْلُهُ وَمَصْدَرُهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ هَذَا الْحَدِيثُ.

(١) يعني سؤال: مَنْ خَلَقَ رَبُّكَ.

(٢) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٣٤١).

وَقَدْ أَرْشَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ إِلَى دَفْعِ هَذَا السُّؤَالِ بِأُمُورٍ ثَلَاثَةٍ: بِالْإِنْتِهَاءِ، وَالتَّعَوُّدِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَبِالْإِيَانِ: «فَلْيُسْتَعِذْ بِاللَّهِ، وَلْيَتَنَبَّهُ»، وَ«يُقْلَلْ»: آمَنْتُ بِاللَّهِ، وَرُسُلِهِ».

أَمَّا الْإِنْتِهَاءُ: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لِلْأَفْكَارِ، وَالْعُقُولِ، حَدًّا تَنْتَهِي إِلَيْهِ، وَلَا تَتَجَاوَزُهُ، وَيَسْتَحِيلُ لَوْ حَاوَلْتَ مَجَاوَزَتَهُ أَنْ تَسْتَطِيعَ؛ لِأَنَّهُ مُحَالٌ، وَمُحَاوَلَةُ الْمُحَالِ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالسَّفَفِ.

وَالْمَخْلُوقَاتُ لَهَا ابْتِدَاءٌ، وَلَهَا انْتِهَاءٌ، وَقَدْ تَسَلَّسَلَتْ فِي كَثِيرٍ مِنْ أُمُورِهَا حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى اللَّهِ الَّذِي أَوْجَدَهَا وَأَوْجَدَ مَا فِيهَا مِنَ الصِّفَاتِ، وَالْمَوَادِّ، وَالْعَنَاصِرِ ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢].

فَإِذَا وَصَلَتِ الْعُقُولُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَقَفَتْ وَانْتَهَتْ؛ فَإِنَّهُ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَالْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، فَأَوَّلِيَّتُهُ تَعَالَى لَا مُبْتَدَأَ لَهَا مَهْمَا فَرَضْتَ الْأَزْمَانَ، وَالْأَحْوَالَ، وَهُوَ الَّذِي أَوْجَدَ الْأَزْمَانَ، وَالْأَحْوَالَ، وَالْعُقُولَ الَّتِي هِيَ بَعْضُ قُوَى الْإِنْسَانِ، فَكَيْفَ يُحَاوِلُ الْعَقْلُ أَنْ يَتَشَبَّهَ بِإِيرَادِ هَذَا السُّؤَالِ الْبَاطِلِ؟!

فَالْفَرَضُ عَلَيْهِ الْمُحْتَمُّ فِي هَذِهِ الْحَالِ: الْوُقُوفُ، وَالْإِنْتِهَاءُ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: التَّعَوُّدُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ: فَإِنَّ هَذَا مِنْ وَسَاوِسِهِ، وَإِلْقَائِهِ فِي الْقُلُوبِ؛ لِيُشَكِّكَ النَّاسَ فِي الْإِيمَانِ بِرَبِّهِمْ.

فَعَلَى الْعَبْدِ إِذَا وَجَدَ ذَلِكَ: أَنْ يَسْتَعِيدَ بِاللَّهِ مِنْهُ، فَمَنْ تَعَوَّدَ بِاللَّهِ بِصَدْقٍ، وَقُوَّةٍ؛ أَعَادَهُ اللَّهُ، وَطَرَدَ عَنْهُ الشَّيْطَانُ، وَاضْمَحَلَّتْ وَسَاوِسُهُ الْبَاطِلَةُ.

«فَأَمَرَهُ بِالْإِسْتِعَادَةِ مِنْهُ؛ لِيَقْطَعَ اللَّهُ عَنْهُ الْوَسَاوِسَ الْفَاسِدَةَ الَّتِي يُلْقِيهَا الشَّيْطَانُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ، وَيُؤْذِيهِ بِهَا، حَتَّى قَدْ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ، أَوْ حَتَّى يَخْتَارَ أَنْ يَحْتَرِقَ وَلَا يَجِدَهَا!

وَهِيَ الْوَسْوَسَةُ الَّتِي سَأَلَ عَنْهَا الصَّحَابَةُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَحَدَنَا يَجِدُ فِي

نَفْسِهِ، يُعَرِّضُ بِالشَّيْءِ^(١)، لَأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً^(٢) أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ!
وفي رواية: إِنِّي أَحَدْتُ نَفْسِي بِالشَّيْءِ، لَأَنْ أُخَرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ!

فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسةِ»^(٣).
وفي حديثٍ آخَرَ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاطَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ! قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»^(٤).
وَأَرَادَ بِذَلِكَ: أَنَّ كِرَاهَتَهُ هَذِهِ الْوَسْوَسةَ، وَنَفْيَهَا، هُوَ مُحَضُّ الْإِيمَانِ وَصَرِيحُهُ^(٥).
الْأَمْرُ الثَّالِثُ: أَنْ يَدْفَعَهُ بِمَا يُضَادُّهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ: «فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، وَرُسُلِهِ».

فَإِنَّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ أَخْبَرُوا بِأَنَّهُ تَعَالَى الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَأَنَّهُ تَعَالَى الْمُتَفَرِّدُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَبِالْخَلْقِ، وَبِالْإِيجَادِ لِلْمَوْجُودَاتِ السَّابِقَةِ، وَاللَّاحِقَةِ.
فَهَذَا الْإِيمَانُ الصَّحِيحُ الصَّادِقُ الْيَقِينِيُّ، يَدْفَعُ جَمِيعَ مَا يُضَادُّهُ مِنَ الشُّبْهِ الْمُنَافِيَةِ لَهُ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ يَدْفَعُ الْبَاطِلَ، وَالشُّكُوكَ لَا تُعَارِضُ الْيَقِينَ.
فَهَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُبْطِلُ هَذِهِ الشُّبْهَةَ الَّتِي لَا تَرَأَى عَلَى أَلْسِنَةِ الْمَلَاحِدَةِ، يُلْقَوْنَهَا بِعِبَارَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ.

فَأَمْرٌ ب: الْإِنْتِهَاءِ الَّذِي يُبْطِلُ التَّسْلُسَ الْبَاطِلَ، وَبِالتَّعَوُّذِ مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي

(١) أي: القبيح.

(٢) فَحْمًا.

(٣) رواه أبو داود (٥١١٢)، والإمام أحمد (٢٩٧)، وصححه الألباني.

(٤) رواه مسلم (١٣٢).

(٥) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١١٧/٣)، بتصرفٍ وزيادات.

هو المُلقِي لهذه الشُّبْهَةِ، وبالإيمانِ الصَّحيحِ الذي يَدْفَعُ كُلَّ ما يُضَادُّهُ مِنَ الباطِلِ،
والْحَمْدُ لِلَّهِ.

فَبِالْإِنْتِهَاءِ: قَطَعَ الشَّرَّ مُبَاشَرَةً.

وَبِالْإِسْتِعَادَةِ: قَطَعَ السَّبَبَ الدَّاعِيَ إِلَى الشَّرِّ.

وَبِالْإِيمَانِ: اللُّجُوءُ وَالْإِعْتِصَامُ بِالْإِعْتِقَادِ الصَّحِيحِ الْيَقِينِيِّ، الَّذِي يَدْفَعُ كُلَّ مُعَارِضٍ.

وَهَذِهِ الْأُمُورُ الثَّلَاثَةُ هِيَ جَمَاعُ الْأَسْبَابِ الدَّافِعَةِ لِكُلِّ شُبْهَةٍ تُعَارِضُ الْإِيمَانَ؛
فَيَنْبَغِي الْعِنَايَةُ بِهَا فِي كُلِّ مَا يَعْرِضُ لِلْإِيمَانِ مِنْ شُبْهَةٍ، وَاشْتِبَاهٍ، يَدْفَعُهُ الْعَبْدُ مُبَاشَرَةً
بِالْبَرَاهِينِ الدَّالَّةِ عَلَى إِبْطَالِهِ، وَبِإِثْبَاتِ ضِدِّهِ، وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ إِلَّا الضَّلَالُ،
وَبِالتَّعَوُّذِ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي يَدْفَعُ إِلَى الْقُلُوبِ فِتْنَ الشُّبْهَاتِ، وَفِتَنِ الشَّهَوَاتِ؛
لِيُزِيلَ إِيْمَانَهُمْ، وَيُوقِعَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَعَاصِي.

فَبِالصَّبْرِ، وَالْيَقِينِ، يَنَالُ الْعَبْدُ السَّلَامَةَ مِنْ فِتَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمِنْ فِتَنِ الشُّبْهَاتِ،
وَاللَّهُ هُوَ الْمَوْفُوقُ الْحَافِظُ^(١).

وَقَدْ لَخَّصَ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ لِمَنْ وَسَّوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ
بِقَوْلِهِ: «مَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟»، فَقَالَ: «وُخْلَصَتْهَا أَنْ يَقُولَ: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، ﴿اللَّهُ
أَحَدٌ﴾ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
كُفُوًا أَحَدٌ ﴿﴾ [الإخلاص: ١-٤]، ثُمَّ يَتَّقِلُ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَيَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ مِنَ
الشَّيْطَانِ، ثُمَّ يَنْتَهِي عَنِ الْإِنْسِيَاقِ مَعَ الْوَسْوَسةِ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَعْتَقْدُ أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ طَاعَةً لِلَّهِ، وَرَسُولِهِ، مُحْلِصًا فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ لَا بَدَّ
أَنْ تَذْهَبَ الْوَسْوَسةُ عَنْهُ، وَيَنْدَجِرَ شَيْطَانُهُ؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّ ذَلِكَ يُذْهِبُ عَنْهُ»^(٢).

(١) بهجة قلوب الأبرار للسعدى (ص ٢٧).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٦٢٠٣)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١١٦).

وهذا التَّعليمُ النَّبَوِيُّ الْكَرِيمُ أَنْفَعُ وَأَفْطَعُ لِلْوَسْوَسَةِ مِنَ الْمُجَادَلَةِ الْعَقْلِيَّةِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ؛ فَإِنَّ الْمُجَادَلَةَ قَلَمًا تَنْفَعُ فِي مِثْلِهَا.

وَمِنَ الْمُؤَسَفِ: أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ فِي غَفْلَةٍ عَنْ هَذَا التَّعْلِيمِ النَّبَوِيِّ الْكَرِيمِ؛ فَتَنَّبَهُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، وَتَعَرَّفُوا إِلَى سُنَّةِ نَبِيِّكُمْ، وَاعْمَلُوا بِهَا؛ فَإِنَّ فِيهَا شِفَاءَكُمْ، وَعِزَّكُمْ^(١).



(١) السلسلة الصحيحة (١/ ٢٣٦).



الحديث الثامن



عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(١).

هذا حديثٌ عظيمٌ جليلٌ، فيه كثيرٌ من معاني عظمة الله تعالى، وقِيُومِيَّتِهِ على خَلْقِهِ.

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ».

«الكَلِمَةُ» في كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعْنِي الْجُمْلَةَ التَّامَّةَ، وَكَذَلِكَ هِيَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، إِلَّا أَنَّ النُّحَاةَ لَا يُرِيدُونَ بِالْكَلِمَةِ الْكَلَامَ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِالْكَلِمَةِ الْقَوْلَ الْمُفْرَدَ، فَيَجْعَلُونَ مِثْلَ: «قَامَ مُحَمَّدٌ» كَلِمَتَيْنِ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكَلِمَةُ فِي لُغَتِهِمْ -يعني لُغَةُ الْعَرَبِ- هِيَ الْجُمْلَةُ التَّامَّةُ، الْجُمْلَةُ الْإِسْمِيَّةُ، أَوِ الْفِعْلِيَّةُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ:

(١) رواه مسلم (١٧٩).

سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَصْدَقَ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ»، وَقَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يُكْتَبُ لَهُ بِهَا رِضْوَانُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يُكْتَبُ لَهُ بِهَا سَخَطُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، وَقَالَ لِأَمِّ الْمُؤْمِنِينَ «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ لَوْ وَزَنْتَ بِمَا قُلْتُ مِنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنْتَهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ»، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥] وَقَوْلُهُ: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النِّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَاتَلَ لِنُكُونِ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا؛ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ. وَلَا يَوْجَدُ قَطُّ فِي الْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، وَكَلَامِ الْعَرَبِ، لَفْظُ الْكَلِمَةِ إِلَّا وَالْمُرَادُ بِهِ الْجُمْلَةُ التَّامَّةُ.

فَكَثِيرٌ مِنَ النُّحَاةِ أَوْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْرِفُونَ ذَلِكَ؛ بَلْ يَظُنُّونَ أَنَّ اضْطِلَاحَهُمْ فِي مُسَمًّى الْكَلِمَةِ يَنْقَسِمُ إِلَى اسْمٍ، وَفِعْلٍ، وَحَرْفٍ، هُوَ لُغَةُ الْعَرَبِ^(١).

«وَلَا حَجَرَ فِي الْإِضْطِلَاحِ، مَا لَمْ يَتَضَمَّنْ حَمْلَ كَلَامِ اللَّهِ، وَرَسُولِهِ، عَلَيْهِ، فَيَقَعُ بِذَلِكَ الْغَلَطُ فِي فَهْمِ النُّصُوصِ، وَحَمْلُهَا عَلَى غَيْرِ مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ مِنْهَا، وَقَدْ حَصَلَ بِذَلِكَ لِلْمُتَأَخِّرِينَ أَغْلَاطٌ شَدِيدَةٌ فِي فَهْمِ النُّصُوصِ»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى (١٢ / ١٠٤).

(٢) إعلام الموقعين (١ / ٧١).

وهذا يُبين لك أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَجْمَعُ أَصُولَ الْعِلْمِ، وَأَصُولَ التَّوْحِيدِ، فِي كَلِمَاتٍ يَسِيرَاتٍ جَامِعَاتٍ. وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ ذَلِكَ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»:

فَاللَّهُ تَعَالَى حَيٌّ قَيُّومٌ، وَالْحَيُّ: ذُو الْحَيَاةِ الْكَامِلَةِ، لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ حَيًّا، لَمْ يَسْبِقْ حَيَاتُهُ مَوْتٌ، وَلَا يَلْحَقُهَا مَوْتٌ، فَهُوَ الْأَوَّلُ، وَالْآخِرُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَالْقَيُّومُ: الْقَائِمُ بِذَاتِهِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ، وَالْقَائِمُ عَلَى غَيْرِهِ، يَحْتَاجُ إِلَيْهِ كُلُّ أَحَدٍ، يَقُومُ بِأُمُورِ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضِ، وَمَنْ فِيهِنَّ، وَهُوَ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

فَقَامَتْ بِهِ الْأَرْضُ، وَالسَّمَوَاتُ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَهُوَ الَّذِي أَوْجَدَهَا، وَأَمَدَّهَا، وَأَعَدَّهَا، لِكُلِّ مَا فِيهِ بَقَاؤُهَا، وَصَلَاحُهَا، وَقِيَامُهَا، فَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْهَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ، وَهِيَ الَّتِي افْتَقَرَتْ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ^(١).

فَالْحَيُّ: مَنْ لَهُ الْحَيَاةُ الْكَامِلَةُ، الْمُسْتَلَزِمَةُ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الذَّاتِ، كَالسَّمْعِ، وَالْبَصَرِ، وَالْعِلْمِ، وَالْقُدْرَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَالْقَيُّومُ: هُوَ الَّذِي قَامَ بِنَفْسِهِ، وَقَامَ بِهِ غَيْرُهُ، وَذَلِكَ مُسْتَلَزِمٌ لِجَمِيعِ الْأَفْعَالِ الَّتِي اتَّصَفَ بِهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ، مِنْ فَعْلِهِ مَا يَشَاءُ، مِنْ الْإِسْتِوَاءِ، وَالنُّزُولِ، وَالْكَلَامِ، وَالْقَوْلِ، وَالخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، وَالْإِمَاتَةِ، وَالْإِحْيَاءِ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ التَّدْبِيرِ، كُلُّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي قَيُّومِيَّةِ الْبَارِي.

وَمِنْ تَمَامِ حَيَاتِهِ، وَقَيُّومِيَّتِهِ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَنَامُ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فَلَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، وَالنَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ، وَاللَّهُ تَعَالَى حَيٌّ كَامِلٌ الْحَيَاةِ.

(١) الحقُّ الواضح المبين للسَّعْدِيِّ (ص ٨٧)، تفسیر سورة البقرة لابن عثيمين (٣/ ٢٥١).

فَلَا تَعْتَرِيهِ ﴿سِنَّةٌ﴾ أَيُّ: نُعَاسٌ، وَهُوَ مُقَدِّمَةُ النَّوْمِ، ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا نَقْصٌ لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ تَعَالَى مُنْزَعٌ عَنْ ذَلِكَ، وَيَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ النَّوْمُ؛ لِأَنَّ النَّائِمَ يَغِيبُ عَمَّا حَوْلَهُ، وَلَا يَغِيبُ عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ.

وَالنَّوْمُ غَفْلَةٌ، وَاللَّهُ لَا يَغْفُلُ عَنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالنَّوْمُ رَاحَةٌ مِنَ التَّعَبِ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُنْزَعٌ عَنْ ذَلِكَ، فَلَا يَمَسُّهُ إِعْيَاءٌ، وَلَا تَعَبٌ.

فَاللَّهُ تَعَالَى كَامِلُ الْحَيَاةِ، كَامِلُ الْقِيُومِيَّةِ، قَيُّوْمٌ عَلَى خَلْقِهِ، يُدَبِّرُ أُمُورَهُمْ، فَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، «يُدَبِّرُ الْأُمُورَ فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ، وَالسُّفْلِيِّ، فَيَخْلُقُ، وَيَرْزُقُ، وَيُغْنِي، وَيُفْقِرُ، وَيَرْفَعُ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ آخَرِينَ، وَيُعِزُّ، وَيُذِلُّ، وَيَخْفِضُ، وَيَرْفَعُ، وَيُقِيلُ الْعَثَرَاتِ، وَيُفَرِّجُ الْكُرْبَاتِ، وَيُنْفِذُ الْأَقْدَارَ فِي أَوْقَاتِهَا الَّتِي سَبَقَ بِهَا عِلْمُهُ، وَجَرَى بِهَا قَلَمُهُ، وَيُرْسِلُ مَلَائِكَتَهُ الْكَرَامَ؛ لَتَدْبِيرِ مَا جَعَلَهُمْ عَلَى تَدْبِيرِهِ»^(١).

فَكَيْفَ يَنَامُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهُوَ الْقَائِمُ عَلَى أُمُورِ الْكَوْنِ، وَمَنْ فِيهِ، الْمُدَبِّرُ شُؤْنَهُمْ، وَأَحْوَاهُمْ؟

وَلَوْ غَفَلَ لَحِظَةً -وَحَاشَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-؛ لَفَسَدَ الْكَوْنُ كُلُّهُ بِمَنْ فِيهِ، وَمَا فِيهِ.

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَخْفِضُ الْقِسْطَ، وَيَرْفَعُهُ»:

«الْقِسْطُ»: هُوَ الْعَدْلُ، أَوِ الْمِيزَانُ، وَسُمِّيَ الْمِيزَانُ قِسْطًا؛ لِأَنَّهُ بِالْمِيزَانِ يَقَعُ الْعَدْلُ.

وَالْمُرَادُ بِالْمِيزَانِ الَّذِي يَخْفِضُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَيَرْفَعُهُ هُوَ: الشَّيْءُ الْمَوْزُونُ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَخْفِضُ الْمِيزَانَ، وَيَرْفَعُهُ بِمَا يوزنُ مِنْ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ النَّازِلَةِ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَعْمَالِهِمُ الْمُرتَفَعَةِ إِلَيْهِ.

فَيَخْفِضُ الْمِيزَانَ تَارَةً بِتَقْتِيرِ الرِّزْقِ، وَالْخِذْلَانِ بِالْمَعْصِيَةِ، وَيَرْفَعُهُ تَارَةً بِتَوْسِيعِ

(١) تفسير السعدي (ص ٤١٢).

الرِّزْقِ، وَالتَّوْفِيقِ لِلطَّاعَةِ، عَدْلًا، وَحِكْمَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] (١).

فَاللَّهُ تَعَالَى يَحْكُمُ فِي خَلْقِهِ بِمِيزَانِ الْعَدْلِ، فَمَنْ عَمِلَ مَا يَسْتَحِقُّ الرِّفْعَ رَفَعَهُ، وَمَنْ عَمِلَ مَا يَسْتَحِقُّ الْخَفْضَ خَفَضَهُ.

ويؤيد ذلك: ما ثبت في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «عَرَّشَهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ، يَخْفُضُ، وَيَرْفَعُ» (٢).

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، قَالَ: «يَغْفِرُ ذَنْبًا، وَيَكْشِفُ كَرْبًا، وَيَرْفَعُ قَوْمًا، وَيَضَعُ آخَرِينَ» (٣).

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُهُ: «يَخْفُضُ الْقِسْطَ، وَيَرْفَعُهُ» أَرَادَ بِهِ أَنَّهُ يُرَاعِي الْعَدْلَ فِي أَعْمَالِ الْعِبَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]» (٤).

وقيل: الْقِسْطُ هُوَ «الرِّزْقُ»، **والمعنى:** يَخْفُضُ الرِّزْقَ بِتَضْيِيقِهِ، وَيَرْفَعُهُ بِتَوْسِيعِهِ، فَيُضَيِّقُ وَيُوسِّعُ؛ لِأَنَّ الرِّزْقَ هُوَ «قِسْطُ» كُلِّ مَخْلُوقٍ، **أي:** نَصِيبُهُ: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَيَقْدِرُ لَهُ؛ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٦٢] (٥).

وقيل: «الْقِسْطُ» هُوَ الْعَدْلُ نَفْسُهُ، وَيُرَادُ بِهِ: الشَّرَائِعُ، وَالْأَحْكَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

(١) الْمُفْهِمُ لِلْقُرْطُبِيِّ (١/٤٠٩)، شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَى مُسْلِمٍ (٣/١٣)، مَرْقَاةُ الْمَفَاتِيحِ (١/١٦٥).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧٤١١)، وَمُسْلِمٌ (٩٩٣).

(٣) عُلِّقَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٦/١٤٤)، وَوَصَلَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ (١٠٦٧)، مَوْفُوفًا، وَرَوَاهُ أَيضًا مَرْفُوعًا

(١٠٦٦)، وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ مَرْفُوعًا (٢٠٢)، وَصَوَّبَ الدَّارِقُطْنِيُّ وَقْفَهُ، كَمَا فِي الْعِلَلِ (٦/٢٢٩).

(٤) بَيَانُ تَلْبِيسِ الْجَهْمِيَّةِ (٨/٧٨).

(٥) الْمُفْهِمُ (١/٤٠٩)، وَشَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَى مُسْلِمٍ (٣/١٣)، وَمَرْقَاةُ الْمَفَاتِيحِ (١/١٦٥).

يَالْقَسِطَ ﴿[الحديد: ٢٥]، أي: النَّصْفَةُ في الأحكام، والْعَدْلُ المأمورُ به في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ﴾ [النحل: ٩٠].

فتارة يَرْفَعُهُ بمعنى: يُغْلِبُهُ، وَيُظْهِرُهُ، بِوُجُودِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَصْحَابِهِمْ، وَاتِّبَاعِهِمُ الْعَامِلِينَ بِهِ، وَتَارَةً يُخَفِّضُهُ بمعنى: أَنَّهُ يُذْهِبُهُ وَيُخْفِيهِ بِذَهَابِ الشَّرَائِعِ، وَرُجُوعِ أَكْثَرِ النَّاسِ عَنِ الْمَشْيِ عَلَى مِنْهَاجِهَا^(١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى: «يَخْفِضُ الْقِسْطَ، وَيَرْفَعُهُ» مُنَاسِبٌ لقوله: «وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ»؛ إِذْ كَيْفَ يَجُوزُ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَهُوَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ أَبَدًا فِي مُلْكِهِ بِمِيزَانِ الْعَدْلِ؟!^(٢).

فَاللَّهُ تَعَالَى يَخْفِضُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُوسِّعُ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَيُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا الْمَشْهُدُ يُسَمِّيهِ الْعُلَمَاءُ: مَشْهُدَ الْقِيُومَةِ، الْجَامِعَ لِصِفَاتِ الْأَفْعَالِ، وَهُوَ مَنْ أَرَفَعَ مَشَاهِدَ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّائِيْنَ، وَهُوَ مَشْهُدٌ مِنْ مَشَاهِدِ الرُّبُوبِيَّةِ^(٣).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُزْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ»:

وفي روايةٍ مُسَلِّمٍ أَيْضًا: «وَيُزْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ». فَمَعْنَى الرَّوَايَةِ الْأُولَى: يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ الَّذِي بَعْدَهُ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ الَّذِي بَعْدَهُ.

ومعنى الرَّوَايَةِ الثَّانِيَةِ: يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ الَّذِي بَعْدَهُ، وَيُزْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ الَّذِي بَعْدَهُ.

(١) الْمَفْهُم (٤٠٩/١).

(٢) مِرْقَاة الْمَفَاتِيح (١/١٦٥).

(٣) انظر: طريق المَجْرَتَيْنِ (ص ٤٤).

فإنَّ المَلَائِكَةَ يَصْعَدُونَ بِأَعْمَالِ اللَّيْلِ بَعْدَ انْقِضَائِهِ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، وَيَصْعَدُونَ بِأَعْمَالِ النَّهَارِ بَعْدَ انْقِضَائِهِ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ^(١).

كما في الحديث: «يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»^(٢).

وفي رَفْعِ الْأَعْمَالِ إِشَارَةٌ إِلَى عُلُوِّ اللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وَقَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وَقَالَ: ﴿ءَاْمَنُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ إِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]، وَقَالَ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وَقَالَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿يَحَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

أنواعُ رَفْعِ الْأَعْمَالِ وَعَرْضِهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى:

دَلَّتِ النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ عَلَى أَنَّ رَفْعَ الْأَعْمَالِ، وَعَرْضَهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: الرَّفْعُ اليَوْمِيُّ: فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً بِاللَّيْلِ وَمَرَّةً بِالنَّهَارِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْحَدِيثُ، فَالْمَلَائِكَةُ تَصْعَدُ بِأَعْمَالِ اللَّيْلِ فِي آخِرِهِ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، وَتَصْعَدُ بِأَعْمَالِ النَّهَارِ بَعْدَ انْقِضَائِهِ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ، فَمَنْ كَانَ فِي طَاعَةٍ، بَوْرِكَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَعَمَلِهِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: الْعَرْضُ الْأُسْبُوعِيُّ: فَتُعْرَضُ الْأَعْمَالُ كُلُّ أُسْبُوعٍ مَرَّتَيْنِ، يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَالْخَمِيسِ: «تُعْرَضُ أَعْمَالُ النَّاسِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ^(٣) مَرَّتَيْنِ: يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَيَوْمَ

(١) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٣).

(٢) رواه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

(٣) أي: أسبوع.

الخميس، فَيَغْفِرُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ، إِلَّا عَبْدًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءٌ، فَيُقَالُ: ائْتَرَكُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَفِيئَا^(١)»^(٢).

وكان إبراهيم النخعي رحمه الله يبكي إلى امرأته يومَ الخميس، وتبكي إليه، ويقول: «اليومَ تُعرِّضُ أعمالنا على الله عزَّ وجلَّ»^(٣).

والنوع الثالث: العَرَضُ السَّنَوِيُّ: فترفع أعمال العام كله جملة واحدة في شهر شعبان؛ كما دلَّ عليه حديثُ أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: قلتُ: يا رسول الله، لم أراك تصومَ شهرًا من الشهور ما تصومُ من شعبان؟ قال: «ذلكَ شهرٌ يغفلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ، وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ»^(٤).

«وَإِذَا انْقَضَى الْأَجَلُ؛ رُفِعَ عَمَلُ الْعُمَرِ كُلِّهِ، وَطُوِيَتْ صَحِيفَةُ الْعَمَلِ»^(٥).

ولكلِّ عَرَضٍ حِكْمَةٌ يَعْلَمُهَا رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمِنْ اللَّهِ تَعَالَى الرِّسَالَةُ، وَعَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ.

وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُسْلِمِ الْإِزْدِيَادُ مِنَ الطَّاعَاتِ فِي أَوْقَاتِ الرَّفْعِ، وَالْعَرَضِ؛ فَيَصُومُ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَالْخَمِيسِ، كَمَا كَانَ هَدْيُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُكْثِرُ الصَّيَامَ فِي شَعْبَانَ، وَيَتَرَوَّدُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي اللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حِجَابُهُ النُّورُ**»، وفي رواية: «النَّارُ»:

قال الله تعالى عَنْ نَفْسِهِ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، والنُّورُ

(١) يرجعا ويتصالحا.

(٢) رواه مسلم (٣٦).

(٣) لطائف المعارف (ص ١٢٧).

(٤) رواه النسائي (٢٣٥٧)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٨٩٨).

(٥) تهذيب السنن لابن القيم (٢/ ٣٥٤).

مِنْ أَعْمَالِهِ؛ فَهُوَ الَّذِي يُنَوِّرُ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضَ، وَمَنْ فِيهِنَّ، وَبَنُوهُ يَهْتَدِي أَهْلُ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضِ، وَبِهِ اسْتَنَارَ الْعَرْشُ، وَالْكُرْسِيُّ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَبِهِ اسْتَنَارَتِ الْجَنَّةُ.

وَالنُّورُ أَيْضًا مِنْ أَوْصَافِهِ؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِذَاتِهِ نَوْرٌ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «نُونِيَّتِهِ»:

نورُ السَّمَوَاتِ الْعُلَى مِنْ نوره	والأرضُ، كيفَ النُّجُومِ والقَمَرانِ
مِنْ نورِ وَجْهِ الرَّبِّ جَلَّ جلاله	وكذا حكاؤه الحافظُ الطَّبراني
فِيهِ اسْتَنَارَ الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ مَعَ	سَبْعِ الطَّبَاقِ وسائرِ الأَكْوانِ
وكتابه نَوْرٌ، كَذَلِكَ شَرَعُهُ	نَوْرٌ، كَذَا الْمَبْعُوثُ بِالْفُرْقَانِ
وكذلكَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِ الْفَتَى	نَوْرٌ عَلَى نَوْرٍ مَعَ الْقُرْآنِ
وَحِجَابُهُ نَوْرٌ، فَلَوْ كَشَفَ الْحِجَابَ	بَ لَأَحْرَقَ السُّبُحَاتُ لِلْأَكْوانِ
وَإِذَا أَتَى لِلْفَصْلِ يُشْرِقُ نَوْرُهُ	فِي الْأَرْضِ يَوْمَ قِيَامَةِ الْآبِدَانِ
وكذلكَ دَارُ الرَّبِّ جَنَّاتُ الْعُلَى	نَوْرٌ تَلَالُأُ لَيْسَ ذَا بَطْلَانِ

وَقَدْ احْتَجَبَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ خَلْقِهِ بِالنُّورِ، أَوِ النَّارِ؛ لِأَنَّهَا يَمْنَعَانِ مِنَ الْإِدْرَاكِ فِي الْعَادَةِ لَشُعَاعِهَا، كَمَا قَالَ: «حِجَابُهُ النُّورُ».

فَهَذَا الْحِجَابُ الَّذِي هُوَ النُّورُ مَخْلُوقٌ، وَهُوَ الَّذِي رَأَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَقَالَ: «رَأَيْتُ نَوْرًا»^(١).

أَمَّا نَوْرٌ وَجْهَهُ وَذَاتُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: فَهُوَ مِنْ أَوْصَافِهِ، وَصِفَاتُهُ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ^(٢).

وَلِذَا قَالَ: «لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»:

(١) رواه مسلم (١٧٨).

(٢) بيان تلبس الجهمية لابن تيمية (٥/ ٤٩٠)، التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (ص ٢٥٧)، اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٤٩).

ومعنى: «سُبُحَاتُ وَجْهِهِ»: نورُه، وجلالُه، وبهاوُه.

وبَصْرُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خُيَاطُ بِجَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ، لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَسْتُرُهُ سَائِرٌ، وَلَا يَحُولُ دُونَهُ حَائِلٌ؛ فَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصْرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»: جَمِيعُ المَخْلُوقَاتِ. فَلَوْ كَشَفَ هَذَا الْحِجَابَ الْمَانِعَ مِنْ رُؤْيِيهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَتَجَلَّى لَخَلْقِهِ؛ لِأَحْرَقَ نُورُ وَجْهِهِ وَجَلَالُهُ جَمِيعَ مَخْلُوقَاتِهِ.

ولهذا لَمَّا تَجَلَّى تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَبَلِ، وَكَشَفَ مِنَ الْحِجَابِ شَيْئًا يَسِيرًا؛ سَاخَ الْجَبَلُ فِي الْأَرْضِ، وَتَذَكَّرَكَ، وَلَمْ يَقُمْ لِرَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فَأَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ تَعَالَى احْتَجَبَ عَنِ المَخْلُوقَاتِ بِحِجَابِهِ النُّورِ، وَأَنَّهُ لَوْ كَشَفَ هَذَا الْحِجَابَ؛ لِأَحْرَقَ نُورُ وَجْهِهِ جَمِيعَ مَخْلُوقَاتِهِ^(١).

يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا كَانَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ الْأَعْلَى لَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَوْ كَشَفَ حِجَابَ النُّورِ عَنْ تِلْكَ السُّبُحَاتِ؛ لِأَحْتَرَقَ الْعَالَمُ الْعُلُويُّ، وَالسُّفْلِيُّ؛ فَمَا الظَّنُّ بِجَلَالِ ذَلِكَ الْوَجْهِ الْكَرِيمِ، وَعَظَمَتِهِ، وَكِبَرِيَّائِهِ، وَجَلَالِهِ؟!»^(٢).



(١) شرح النووي على مسلم (٣/١٣)، الوابل الصيب لابن القيم (ص ٥١)، شرح كتاب التوحيد من

صحيح البخاري للغنيمان (١/١٧٣).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/١٠٨٢).



الحديث التاسع



عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا؛ فَلَا تَظَالَمُوا.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فَاسْتَهِدُونِي أَهْدِكُمْ.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمَكُمْ.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ؛ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ.

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ.

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرْيَ فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجَنَّتْكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجَنَّتْكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا.

يا عبادي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجَنَّتْكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ.

يا عبادي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُخْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»^(١).

هذا حديثٌ عظيمٌ جليلٌ، شريفٌ القدر، فيه من عظمة الله، وجلاله، وكماله، ما ينبغي على كلِّ مسلمٍ تأملُّه، وتدبُّره، وكان أبو إدريس الخولانيُّ راوي هذا الحديث عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، إذا حدَّث بهذا الحديث؛ جثا على رُكْبَتَيْهِ^(٢).

وقال الإمام أحمد: «هو أشرفُ حديثٍ لأهلِ الشَّامِ»^(٣)^(٤).

قوله: «يا عبادي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»:

يعني: أَنَّهُ مَنَعَ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الظُّلْمِ لِعِبَادِهِ؛ فَاللَّهُ تَعَالَى مُقَدَّسٌ، وَمَنْزَعٌ، عَنِ الظُّلْمِ، وَالظُّلْمُ مُحَالٌ فِي حَقِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

و«الظُّلْمُ»: وَضْعُ الْأَشْيَاءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا^(٥).

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) مسلم (٢٥٧٧).

(٣) يعني: رواه شاميون، وهو حديثٌ مُسَلَّسٌ بِالدَّمَشَقِيِّينَ.

(٤) الأذكار للنووي (ص ٤١٣)، جامع العلوم والحكم (٣٤ / ٢).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٣٢ / ١٦)، جامع العلوم والحكم (٣٥ / ٢).

ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿[غافر: ٣١]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿[فصلت: ٤٦]، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿[ق: ٢٩].

«فأخبر عن تحريره على نفسه، ونفى عن نفسه فعله، وإرادته»^(١).

«وقد اتفق أهل الأرض، والسموات، على أن الله تعالى عدل لا يظلم أحداً، حتى أعداءه المشركين الجاحدين لصفات كماله، فإنهم مقيمون له بالعدل، ومُنزهون له عن الظلم، حتى إنهم ليدخلون النار وهم معتزون بعدله، كما قال تعالى: ﴿فَاعترفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [المك: ١١]، وقال تعالى: ﴿يَمَعَسَرُ الْجَنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذَرِّوْنَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ نَحْيَهُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]»^(٢).

وعن جابر رضي الله عنه قال: لما رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرة البحر^(٣)؛ قال: «ألا أحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟».

قال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينا نحن جلوس مرت بنا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها فخرت على ركبتيها، فانكسرت قلتها، فلما ارتفعت^(٤) التفت إليه، فقالت: سوف تعلم يا غدر^(٥) إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين، والآخرين، وتكلمت الأيدي، والأرجل، بما كانوا يكسبون، سوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدا!

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٦).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (ص ٢٣١).

(٣) الذين هاجروا إلى الحبشة.

(٤) يعني: المرأة.

(٥) يا غادر.

فقال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَدَقْتُ، صَدَقْتُ! كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعْفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟»^(١).

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

واللهُ تعالى أَقَامَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ عَلَى أَسَاسِ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ، قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩]؛ **أي:** «خلقَ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضَ، بِالْحَقِّ، وَالْعَدْلِ؛ لتكونَ الأشياءُ كُلُّهَا بِالْحَقِّ، وَالْعَدْلِ»^(٢).

وَكَلِمَاتُهُ كُلُّهَا عَدْلٌ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، قال قتادة: «صِدْقًا فِيمَا قَالَ، وَعَدْلًا فِيمَا حَكَمَ»^(٣).

وَأَحْكَامُهُ عَدْلٌ، وَحَقٌّ، وَشَرِيعَتُهُ كُلُّهَا عَدْلٌ، وَسِمَاحَةٌ، وَحِكْمَةٌ، وَمَصْلَحَةٌ: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠].

وَأَمْرُهُ وَنَهْيُهُ عَدْلٌ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ اللَّهُ عِبَادَهُ، وَيَفْصِلُ بَيْنَهُم بِالْحُكْمِ الْعَادِلِ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١١)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

(٢) تفسير ابن كثير (٣٢٦/٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٣٢٢/٣).

وَمَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِهِ، حَرَّمَهُ عَلَى عِبَادِهِ:

«وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»:

أي: لَا تَظَالَمُوا، والمُرَادُ: لَا يَظْلِمُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَهُوَ تَوْكِيدٌ لِقَوْلِهِ: «وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا»، وَزِيَادَةٌ تَغْلِيظُ فِي تَحْرِيمِهِ^(١).

فَحَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الظُّلْمَ عَلَى عِبَادِهِ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَتَظَالَمُوا فِيهَا بَيْنَهُمْ، فَحَرَامٌ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَظْلِمَ غَيْرَهُ، مَعَ أَنَّ الظُّلْمَ فِي نَفْسِهِ مُحَرَّمٌ مُطْلَقًا، وَهُوَ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: ظَلَمَ النَّفْسِ بِالذُّنُوبِ، وَالْمَعَاصِي، عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَأَعْظَمُهُ الشِّرْكُ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [الفان: ١٣]؛ فَإِنَّ الْمُشْرِكَ جَعَلَ الْمَخْلُوقَ فِي مَنَزِلَةِ الْخَالِقِ، فَعَبَدَهُ، وَتَأَلَّاهُ، فَهُوَ وَضَعَ الْأَشْيَاءَ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا.

والثاني: ظَلَمَ الْعَبْدَ لِغَيْرِهِ، وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ^(٢).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ، مِنْ عِرْضِهِ، أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ، وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ، أَخَذَ مِنْهُ بِقَدَرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ، أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ»^(٤).

قَوْلُهُ: «يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فَاسْتَهِدُونِي أَهْدِكُمْ.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ.

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ؛ فَاسْتَكْسُونِي أُكْسِكُمْ.

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٣٢).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٦).

(٣) رواه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩).

(٤) رواه البخاري (٢٤٤٩).

**يا عبادي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛
فاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»:**

وفي رواية: «يا بني آدم، كُلُّكُمْ كَانَ ضَالًّا إِلَّا مَنْ هَدَيْتُ، وَكُلُّكُمْ كَانَ عَارِيًّا إِلَّا مَنْ كَسَوْتُ، وَكُلُّكُمْ كَانَ جَائِعًا إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُ، وَكُلُّكُمْ كَانَ ظَنَانًا إِلَّا مَنْ سَقَيْتُ؛ فاسْتَهِدُونِي أَهْدِيكُمْ، وَاسْتَكَسُونِي أَكْسِيكُمْ، وَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمَكُمْ، وَاسْتَسْقُونِي أَسْقِيكُمْ»^(١).

فَبَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ جَمِيعَ الْخَلْقِ مُفْتَخِرُونَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي جَلْبِ مَصَالِحِهِمْ، وَدَفْعِ مَضَارِّهِمْ، فِي أُمُورِ دِينِهِمْ، وَدُنْيَاهُمْ.

وَأَنَّ الْعِبَادَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَتَفَضَّلِ اللَّهُ عَلَيْهِ بِأَهْدَى، وَالرِّزْقِ؛ فَإِنَّهُ يُجْرِمُهُمَا فِي الدُّنْيَا، وَمَنْ لَمْ يَتَفَضَّلِ اللَّهُ عَلَيْهِ بِمَغْفِرَةِ ذُنُوبِهِ؛ أَوْبَقَتْهُ خَطَايَاهُ فِي الْآخِرَةِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَحْدِلْهُ. وَلَيَأْتِرْ شِدَا﴾ [الكهف: ١٧]، وَقَالَ: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ. وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، وَقَالَ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ؛ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وَقَالَ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ آدَمَ وَزَوْجِهِ أَنَّهُمَا قَالَا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وَقَدْ اسْتَدَلَّ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَفَرُّدِ اللَّهِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ كُلَّ مَا أَشْرَكَ مَعَهُ فَبَاطِلٌ؛ فَقَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَعِبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾

(١) رواه الإمام أحمد (٢١٤٢٠)، وصَحَّحَ إِسْنَادَهُ مُحَقِّقُو الْمُسْنَدِ.

وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي ﴿٨٨﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٩﴾
[الشعراء: ٧٥-٨٢].

فإنَّ مَنْ تَفَرَّدَ بِخَلْقِ الْعَبْدِ، وَهَدَايَتِهِ، وَبِرَزْقِهِ، وَإِحْيَائِهِ، وَإِمَاتَتِهِ، فِي الدُّنْيَا، وَبِمَغْفِرَةِ ذَنْبِهِ فِي الْآخِرَةِ؛ مُسْتَحِقٌّ أَنْ يُفَرَّدَ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَالْعِبَادَةِ، وَالسُّؤَالِ، وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ، وَالِاسْتِكَانَةِ لَهُ.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠] (١)

فخَزَائِنُ الْأَشْيَاءِ كُلُّهَا بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]، يُدَبِّرُ الْأُمُورَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فَاللَّهُ تَعَالَى يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُعْطِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَخْفِضُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُوسِّعُ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَيُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا يوجبُ مِنَ الْعِبَادَةِ أَنْ يُفَرَّدَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ، وَأَنْ يَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ فِي جَلْبِ النَّفْعِ، وَدَفْعِ الضَّرِّ، وَأَنْ يُعَلِّقُوا آمَالَهُمْ وَرَجَاءَهُمْ بِهِ وَحْدَهُ فِي حُصُولِ كُلِّ مَا يُحِبُّونَ، وَدَفْعِ كُلِّ مَا يَكْرَهُونَ، وَأَنْ لَا يَسْأَلُوا أَحَدًا غَيْرَهُ (٢).

وفي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: «فَاسْتَهِدُونِي أَهْدِكُمْ»، «فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمَكُمْ»، «فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ»، «فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ» دليلٌ على:

أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يَسْأَلَ الْعِبَادَ جَمِيعَ مَصَالِحِ دِينِهِمْ، وَدُنْيَاهُمْ، مِنَ الطَّعَامِ، وَالشَّرَابِ، وَالْكِسْوَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا يَسْأَلُونَهُ الْهَدَايَةَ، وَالْمَغْفِرَةَ.

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٧)، وشرح الأربعين المنسوب لابن دقيق العيد (ص ٨٨).

(٢) القواعد الحسان للسعدي (ص ٥٠).

وقَدْ رَوَى فِي الْحَدِيثِ: «لَيْسَ أَلَا أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتُهُ كُلُّهَا، حَتَّى يَسْأَلَ شَيْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ»^(١).

وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَسْأَلُ اللَّهَ فِي صَلَاتِهِ كُلَّ حَوَائِجِهِ، حَتَّى مِلْحَ عَجِينِهِ، وَعَلَفَ شَاتِهِ^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فَاسْتَهِدُونِي أَهْدِكُمْ»:

كَرَّرَ قَوْلَهُ: «يَا عِبَادِي»؛ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فِخَامَتِهِ، وَالْإِعْتِنَاءِ بِشَأْنِهِ، وَأَنْ مِنْ مُقْتَضَى عِبَادِيَّةِ الْعِبَادِ: الْإِفْتِقَارُ إِلَى مُرَاعَاةِ حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ^(٣).

وَدَلَّ هَذَا عَلَى: أَنَّ الشَّأْنَ فِي النَّاسِ الضَّلَالُ إِلَّا مَنْ هَدَى اللَّهُ تَعَالَى، فَيَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَى عِنْدَهُ آثَارَ هُدًى، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَلَّمَا أَزْدَادَ هُدًى، تَعَيَّنَ عَلَيْهِ أَنْ يَزْدَادَ شُكْرًا، وَحَمْدًا، لِلَّهِ تَعَالَى؛ فَلَا هَادِيَ إِلَّا اللَّهُ:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

وَلِذَا قَالَ: «فَاسْتَهِدُونِي أَهْدِكُمْ» أَي: اطْلُبُوا مِنِّي الْهُدَايَةَ؛ أَهْدِكُمْ.

وَالْمَعْنَى: أَهْدِيكُمْ إِذَا اسْتَهِدَيْتُمُونِي، فَإِذَا اسْتَهِدَيْتَنِي أَيُّهَا الْعَبْدُ فَهَدَيْتُكَ؛ عَرَفْتُكَ أَنَّنِي أَجَبْتُ الدُّعَاءَ، وَأَعْطَيْتُكَ مَا سَأَلْتُ، فَتَعَرَّفْتُ إِلَيْكَ بِذَلِكَ، وَلَمْ تَغْتَرَّ بِنَفْسِكَ، وَتَقُلْ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]^(٤).

فَكُلُّ أَحَدٍ مُضْطَرٌّ إِلَى هِدَايَةِ رَبِّهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، بَأَنْ يُسَدِّدَهُ فِي أَخْلَاقِهِ، وَأَقْوَالِهِ،

(١) رواه الترمذي (٣٦٠٤)، وضعفه الألباني.

(٢) جامع العلوم والحكم (٣٨/٢).

(٣) مرقاة المفاتيح (١٦١/٤).

(٤) الإفصاح لابن هُبَيْرَة (١٨٦/٢).

وأفعاليه، وكان من دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»^(١).
ودعا بأربع كلمات تجتمع للعبد خيرَي الدِّين، والدُّنْيَا: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى، وَالتَّقَى، وَالْعِفَافَ، وَالْغِنَى»^(٢).

فَالْهُدَى هُوَ: العِلْمُ النَّافِعُ، وَالتَّقَى: الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَتَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ كُلِّهَا. وهذا صلاح الدِّين، فالهداية التامة هي الهداية للعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وتمام ذلك بصلاح القلب، وطُمَأْنِينَتِهِ، بِالْعِفَافِ عَنِ الْخَلْقِ، وَالْغِنَى بِاللَّهِ، وَعَدَمِ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالنَّاسِ، وَبِالْعِفَافِ، وَالْغِنَى، يَتِمُّ لِلْعَبْدِ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ، وَالنَّعِيمُ الدُّنْيَوِيُّ، وَالْفَنَاءَةُ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ^(٣).

وقوله تعالى: «يا عبادي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمُكُمْ»:

يَعْنِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أَنَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ ذَوِي فَقْرٍ إِلَى الطَّعَامِ، وَأَنَّ كُلَّ طَاعِمٍ، فَإِنَّهُ كَانَ جَائِعًا حَتَّى أَطْعَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْوَاعٍ، مِنْهَا: سَوْقُ الرِّزْقِ، وَمِنْهَا: تَصْحِيحُ الْأَلَةِ الْمُتَنَاوِلَةِ لَذَلِكَ الرِّزْقِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَسَوْقُ إِلَيْكَ الْأَطْعِمَةَ، وَيُهَيِّئُ آلَاتِ اسْتَطْعَامِكَ لَتَنَاوُلِهَا، وَيَلْطِفُ بِكَ حَتَّى يُخَلِّصَكَ مِنْ أَثْقَالِهَا.

وقوله: «اسْتَطْعِمُونِي» أَي: اطْلُبُوا الرِّزْقَ مِنِّي، وَلَا يَسْتَنْكِفْ حَيٌّ، وَلَا ذُو كَثْرَةٍ أَنْ يَسْتَطْعِمَنِي؛ فَإِنَّ ذَلِكَ جَهْلٌ مِنْهُ، وَظَنٌّ بِاطِلُّ أَنَّ ذَلِكَ الَّذِي فِي يَدِهِ مِنَ الرِّزْقِ، وَالطَّعَامِ، يُطْعِمُهُ إِيَّاهُ غَيْرِي.

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢١).

(٣) الفواكه الشهية للسعدي (ص ٢٧٧)، وبهجة قلوب الأبرار له (ص ٨٩، ٢٠٥).

وفيه: تَوَجِيهٌ وَتَأْدِيبٌ لِلْفُقَرَاءِ، وَكَأَنَّهُ قَالَ: لَا تَطْلُبُوا الطَّعَامَ مِنْ غَيْرِي، فَكُلْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَطْلُبُونَ مِنْهُمْ أَنَا أَطْعِمُهُمْ؛ «فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمَكُمْ»^(١).

وقوله تعالى: «يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ؛ فَاسْتَكَسُونِي أَكْسُكُمْ»:

فالكل محتاجٌ إلى سِتْرٍ عَوْرَتِهِ، والتَّعْنَمُ بأنواع اللِّبَاسِ، والزَّيْنَةُ، والله تعالى هو الذي يَكْسُو مِنْ عُرْيِ الْجَسَدِ، وقد يَكْسُو بِالسَّتْرِ الْجَمِيلِ، وَيَكْسُو بِالتَّقْوَى، وهي خَيْرُ لِبَاسٍ: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ [الأعراف: ٢٦].

فاطْلُبُوا مِنَ اللَّهِ تعالى الْكِسَاءَ الْجَمِيلَ الطَّاهِرَ، لَا مِنْ غَيْرِهِ، وَمَنْ كَسَاهُ اللَّهُ تعالى لِبَاسَ التَّقْوَى لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَنْزِعَهُ عَنْهُ^(٢).

وقوله تعالى: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»:

ومعنى الاستِغْفَارِ: طَلَبُ الْمَغْفِرَةِ، وَالْعَبْدُ أَحْوَجُ شَيْءٍ إِلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يُخْطِئُ بِاللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ^(٣).

قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُوا﴾ [الشورى: ٢٥]،

(١) الإفصاح (٢/ ١٨٦).

(٢) الإفصاح (٢/ ١٨٧)، مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦١١).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤١).

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِيَ لِعَفَا لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله، إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(١).

وفي رواية: «وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»^(٢).

وفي الحديث: «والذي نفسي بيده، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتُم الله؛ لغفر لكم، والذي نفس محمد بيده، لو لم تُخطئوا؛ لجاء الله بقوم يُخطئون، ثم يستغفرون الله، فيغفر لهم»^(٣).

وفي الحديث القدسي: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني، ورجوتني، غفرتُ لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء^(٤)، ثم استغفرتني؛ غفرتُ لك ولا أبالي، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض^(٥) خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً؛ لأتيتك بقرابها مغفرة»^(٦).

وتأمل قوله: «وأنا أغفر الذنوب جميعاً؛ فاستغفروني»، كيف ذكر «الذنوب» بالألف واللام التي تُفيد الاستغراق، وأكدها بقوله: «جميعاً»، ذكر ذلك قبل أن يأمرنا باستغفاره؛ حتى لا ينفط أحدٌ من رحمة الله، لعظيم ذنب ارتكبه!^(٧).

(١) رواه البخاري (٦٣٠٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢)، من حديث الأغر المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه الإمام أحمد (١٣٥١٨)، وحسنه لغيره الألباني في الصحيحة (١٩٥١)، وشطره الثاني أصله في

صحيح مسلم (٢٧٤٩).

(٤) سحابها وما ظهر لك منها.

(٥) مثلها وما يُقاربها.

(٦) رواه الترمذي (٣٥٤٠)، وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب (١٦١٦).

(٧) الإفصاح (١٨٧/٢).

فَاللَّهُ تَعَالَى غَفُورٌ رَحِيمٌ، يَسْتُرُ عَلَى الْمُذْنِبِينَ، وَالْعَاصِينَ: «فَمِنْ رَحْمَتِهِ، وَكَرَمِهِ، وَكِبَالِهِ، وَجَلَمِهِ: أَنَّ الْعَبْدَ يُجَاهِرُ بِالْمَعَاصِي مَعَ فَقْرِهِ الشَّدِيدِ إِلَيْهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَعْصِيَ إِلَّا أَنْ يَتَقَوَّى عَلَيْهَا بِنِعَمِ رَبِّهِ.

وَالرَّبُّ مَعَ كِمَالِ غِنَاهُ - مِنْ كَرَمِهِ - يَسْتَحْيِي مَنْ فَضَحَ عَبْدَهُ، فَيَسْتُرُهُ بِسِتْرِهِ، فَهُوَ يَتَحَبَّبُ إِلَى عِبَادِهِ بِالنِّعَمِ، وَهُمْ يَتَبَغَّضُونَ إِلَيْهِ بِالْمَعَاصِي»^(١).

وقوله تعالى: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَن تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُونِي، وَلَن تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»:

يعني: أَنَّ الْعِبَادَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَوْصِلُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى نَفْعًا، وَلَا ضَرًّا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي نَفْسِهِ غَنِيٌّ حَمِيدٌ، لَا حَاجَةَ لَهُ بِطَاعَاتِ الْعِبَادِ، وَلَا يَعُودُ نَفْعُهَا إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا هُمْ يَتَنَفَّعُونَ بِهَا، وَلَا يَتَضَرَّرُ بِمَعَاصِيهِمْ، وَإِنَّمَا هُمْ يَتَضَرَّرُونَ بِهَا.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وقال: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النُّفُوسُ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وهذه الجُمْلَةُ مِنَ الْحَدِيثِ جَاءَتْ بَعْدَ قَوْلِهِ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»، وَمَا قَبْلَهَا؛ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْفِرُ ذُنُوبَ وَزَلَّاتِ عِبَادِهِ، وَيُجِيبُ دَعْوَتَهُمْ، وَيَفْرَجُ كُرْبَاتِهِمْ، وَيَهْدِيهِمْ، وَيُطْعِمُهُمْ، وَيَكْسُوهُمْ، لَا لِحُلْبِ مَنفَعَةٍ مِنْهُمْ، وَلَا لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ يَتَوَقَّعُهَا مِنْهُمْ، كَمَا

(١) تفسير أسماء الله الحسنی للسعدی (ص ١٩٣)، بتصرف.

هِيَ عَادَةُ الْمَخْلُوقِ الضَّعِيفِ، الَّذِي يَنْفَعُ غَيْرَهُ لِيُكَافِئَهُ بِنَفْعٍ مِثْلِهِ، أَوْ لِيُدْفَعَهُنَّ ضَرَرًا.

بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ، وَهُوَ مَنْزَعٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ، وَعَيْبٍ.

وَإِذَا كَانَ الْخَلْقُ عَاجِزِينَ عَمَّا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَفْعَالِ إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَتَسِيرِهِ، فَكَيْفَ بِمَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ؟! فَكَيْفَ يَبْلُغُونَ نَفْعَ الْغَنِيِّ الْحَمِيدِ الصَّمَدِ، أَوْ ضَرَّهُ؟! حَاشَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ مَنْ عِبَادِهِ أَنْ يَتَّقُوهُ، وَيُطِيعُوهُ، وَيَكْرَهُ مِنْهُمْ أَنْ يَعْصُوهُ، وَيُخَالِفُوا أَمْرَهُ، مَعَ غِنَاهُ عَنْ طَاعَتِهِمْ، وَتَوْبَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ دُونَهُ.

وَهَذَا مِنْ كِمَالِ جُودِهِ، وَإِحْسَانِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى عِبَادِهِ، وَمَحَبَّتِهِ لِنَفْعِهِمْ، وَدَفْعِ الضَّرَرِ عَنْهُمْ؛ فَهُوَ يُحِبُّ مَنْ عِبَادِهِ أَنْ يَعْرِفُوهُ، وَيُحِبُّوهُ، وَيَخَافُوهُ، وَيَتَّقُوهُ، وَيُطِيعُوهُ، وَيَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ، وَيُحِبُّ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرُهُ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَغْفِرَةِ ذُنُوبِ عِبَادِهِ^(١).

وقوله تعالى: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمُ، وَآخِرُكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجَنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمُ، وَآخِرُكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجَنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»:

المعنى: أَنَّ مُلْكَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَزِيدُ بِطَاعَةِ الْخَلْقِ، وَلَوْ كَانُوا كُلُّهُمْ بَرَّةً أَتْقِيَاءَ قُلُوبِهِمْ عَلَى قَلْبِ أَتَقَى رَجُلٍ مِنْهُمْ، وَلَا يَنْقُصُ مُلْكُهُ بِمَعْصِيَةِ الْعَاصِينَ، وَلَوْ كَانَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ كُلُّهُمْ، عَصَاءَ فَجْرَةٍ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ أَفْجَرِ رَجُلٍ مِنْهُمْ.

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٩٠)، جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٣).

فإنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ، وَلَهُ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ فِي ذَاتِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ، فَمُلْكُهُ مُلْكٌ كَامِلٌ، لَا نَقْصَ فِيهِ بَوَاجِهُ مِنَ الْوُجُوهِ، عَلَى أَيِّ وَجْهِ كَانَ.

فَلَوْ أَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ كَانُوا عَلَى صِفَةِ أَكْمَلِ خَلْقِهِ مِنَ الْبَرِّ، وَالتَّقْوَى؛ لَمْ يَزِدْ ذَلِكَ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا، وَلَا قَدَرَ جَنَاحٍ بَعُوضَةٍ.

وَلَوْ كَانُوا عَلَى صِفَةِ أَنْقَصِ خَلْقِهِ مِنَ الْفُجُورِ؛ لَمْ يَنْقُصْ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِهِ شَيْئًا.

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُلْكَهُ كَامِلٌ عَلَى أَيِّ وَجْهِ كَانَ، لَا يَزِدَادُ وَلَا يَكْمُلُ بِالطَّاعَاتِ، وَلَا يَنْقُصُ بِالْمَعَاصِي، وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ شَيْءٌ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

وَفِي قَوْلِهِ: «عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ»، وَقَوْلِهِ: «عَلَى أَفَجَرَ قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ» دَلِيلٌ عَلَى: أَنَّ الْأَصَلَ فِي التَّقْوَى، وَالْفُجُورِ، هُوَ الْقَلْبُ، فَإِذَا بَرَّ الْقَلْبُ وَاتَّقَى بَرَّتِ الْجَوَارِحُ، وَإِذَا فَجَرَ الْقَلْبُ، فَجَرَتِ الْجَوَارِحُ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «التَّقْوَى هَاهُنَا»، وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ (١)(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجَنَّتْكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقْصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ»:

وَالْمَقْصُودُ بِهَذَا: ذِكْرُ كَمَالِ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَكَمَالِ مُلْكِهِ، وَأَنَّ مُلْكَهُ، وَخَزَائِنَهُ، لَا تَنْفَدُ وَلَا تَنْقُصُ بِالْعَطَاءِ، وَلَوْ أُعْطِيَ الْأَوَّلِينَ، وَالْآخِرِينَ، مِنَ الْجِنِّ، وَالْإِنْسِ، جَمِيعَ مَا سَأَلُوهُ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ.

وَفِي ذَلِكَ: حَثٌّ لِلْخَلْقِ عَلَى سُؤَالِهِ، وَإِنْزَالِ حَوَائِجِهِمْ بِهِ (٣).

(١) مسلم (٢٥٦٤).

(٢) جامع العلوم والحكم (٤٦/٢).

(٣) جامع العلوم والحكم (٤٧/٢).

وفي الحديث: «يُدُّ اللَّهُ مَالِي، لَا يَغِيضُهَا^(١) نَفَقَةً، سَحَاءُ^(٢) اللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَدِهِ»^(٣).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ؛ وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ، وَلِيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاطَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»^(٤).

وقوله: «ما نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»:

هذا تقريبٌ إلى الأفهام، ومعناه: لا ينقص شيئاً أصلاً، فإنَّ البحرَ إذا غُمِسَ فيه إبرَةٌ، ثُمَّ أُخْرِجَتْ؛ لَمْ يَنْقُصْ مِنَ الْبَحْرِ بِذَلِكَ شَيْءٌ.

وكذلك لو فُرِضَ أَنَّهُ شَرِبَ مِنْهُ عُصْفُورٌ مَثَلًا؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْقُصُ الْبَحْرُ الْبَتَّةَ؛ لِأَنَّ الْبَحْرَ لَا يَزَالُ تَمَكَّدُهُ مِياهُ الدُّنْيَا، وَأَنْهَارُهَا الْجَارِيَةُ، فَمَهْمَا أُخِذَ مِنْهُ لَمْ يَنْقُصْهُ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ يَمُدُّهُ مَا هُوَ أَزِيدُ مِمَّا أُخِذَ مِنْهُ.

فما عِنْدَ اللَّهِ لَا يَدْخُلُهُ نَقْصُ الْبَتَّةِ؛ كما قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُدُّ اللَّهُ مَالِي، لَا يَغِيضُهَا^(٥) نَفَقَةً»^(٦).

وإنَّما يَدْخُلُ النِّقْصُ الْمَحْدُودَ الْفَانِي، وَعَطَاءُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ رَحْمَتِهِ، وَكَرَمِهِ، وَلَيْسَ فِيهِمَا نَقْصٌ بَوَاجِهٍ مِنَ الْوُجُوهِ.

فَصَرَبَ الْمَثَلُ بِالْمِخْيَطِ فِي الْبَحْرِ؛ لِأَنَّهُ غَايَةُ مَا يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْقِلَّةِ،

(١) يَنْقُصُهَا.

(٢) دائمة العطاء.

(٣) رواه البخاري (٧٤١١)، ومسلم (٩٩٣).

(٤) رواه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩) واللفظ له.

(٥) يَنْقُصُهَا.

(٦) البخاري (٧٤١١)، ومسلم (٩٩٣).

والمقصود التقريب إلى الأفهام بما شاهدوه؛ فإنَّ البحرَ من أعظمِ المرئياتِ عياناً، وأكبرها، والإبرة من أصغرِ الموجوداتِ، مع أنَّها صقيلةٌ لا يتعلَّقُ بها ماءٌ.

والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فهو سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً من عطاءٍ، أو عذابٍ، أو غير ذلك؛ قال له: كُنْ فكان، فكيف يتصور أن ينقص هذا؟ وكذلك إذا أراد أن يخلق شيئاً قال له: كُنْ فيكون^(١).

فإذا كان هذا عطاء الله، ومملكه سبحانه وتعالى؛ فكيف يُسأل المخلوق الفقير العاجز، ويترك الغني القادر سبحانه وتعالى؟

وقوله تعالى: «يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُخْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِإِيَّاهَا»:

كان من تمام حكمة الله تعالى، وحجته على خلقه: أَنَّهُ أَحْصَى عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْحَسِيبُ، الْحَفِيزُ، الرَّقِيبُ، الشَّهِيدُ، وَأَمَرَ مَلَائِكَتَهُ الْكَرَامَ الْكَاتِبِينَ بِكِتَابَةِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، خَيْرِهَا، وَشَرِّهَا، صَغِيرِهَا، وَكَبِيرِهَا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كُنِينًا ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

فالله تعالى يُحْصِي أَعْمَالَ الْعِبَادِ، أي: يَحْفَظُهَا، وَيَكْتُبُهَا، ثُمَّ يُوَفِّيهِمْ إِيَّاهَا، أي: يُعْطِيهِمْ جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ وَافِيًا تَامًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّ خَيْرًا فَخِيرًا، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال: ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/١٣٣)، جامع العلوم والحكم (٢/٤٩).

تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴿٣٠﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] ^(١).

وقوله: «فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»:

في هذا: «إشارة إلى أَنَّ الخَيْرَ كُلُّهُ مِنَ اللَّهِ فَضْلٌ مِنْهُ عَلَى عَبْدِهِ، مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ لَهُ، وَالشَّرُّ كُلُّهُ مِنْ عِنْدِ ابْنِ آدَمَ، مِنْ اتِّبَاعِ هَوَى نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وقال عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يَرْجُو عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَخَافَنَّ إِلَّا ذَنْبَهُ».

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا أَرَادَ تَوْفِيقَ عَبْدٍ، وَهِدَايَتَهُ؛ أَعَانَهُ، وَوَفَّقَهُ لَطَاعَتِهِ، فَكَانَ ذَلِكَ فَضْلًا مِنْهُ، وَإِذَا أَرَادَ خِذْلَانِ عَبْدٍ؛ وَكَلَّهُ إِلَى نَفْسِهِ، وَخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، فَأَغْوَاهُ الشَّيْطَانُ؛ لِيُغْفَلَتْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، وَكَانَ ذَلِكَ عَدْلًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَالْحُجَّةُ قَائِمَةٌ عَلَى الْعَبْدِ بِإِنْزَالِ الْكِتَابِ، وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ، فَمَا بَقِيَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ.

وَفِي الدُّنْيَا: الْمُسْلِمُ مَأْمُورٌ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى مَا وَجَدَهُ مِنْ جَزَاءِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّذِي عَجَّلَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، كَالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَتَيْسِيرِ الْأُمُورِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَمَأْمُورٌ بِلُومِ نَفْسِهِ عَلَى مَا فَعَلَتْ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي وَجَدَ عَاقِبَتَهَا فِي الدُّنْيَا، كَالْمَصَائِبِ، وَالْهُمُومِ، وَالْغُومِ، وَجِرْمَانِ الرِّزْقِ، وَالْعِلْمِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَالْمُؤْمِنُ إِذَا أَصَابَهُ فِي الدُّنْيَا بَلَاءٌ؛ رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ بِاللُّومِ، وَدَعَاهُ ذَلِكَ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ بِالتَّوْبَةِ، وَالِاسْتِغْفَارِ.

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٥١).

وفي الآخرة: مَنْ وَجَدَ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُ يَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ يَلُومُ نَفْسَهُ
حينَ لَا يَنْفَعُهُ اللَّوْمُ^(١).

فالمُسلِمُ يُجَاسِبُ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْقُدُومِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيُقَدِّمُ لِنَفْسِهِ مَا يَسِّرُهُ
أَنْ يَجِدَهُ فِي صَحِيفَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَتَذَكَّرُ التَّقْصِيرَ، وَالتَّفْرِيطَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَعَ النَّدَمُ.



(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٥١)، باختصار وتصرف.



الحديث العاشر



عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا، إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ، أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ، وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ، وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ، وَالْإِنْجِيلِ، وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ.

اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ».

وَكَانَ يَرْوِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

هذا الدعاء، والذكر، واحدٌ من الأدعية والأذكار الكثيرة التي تُقال عند النوم، وهو دعاء عظيم، يُحْسَنُ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهِ كُلَّ لَيْلَةٍ، عِنْدَمَا يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ.

وهو مُشْتَمِلٌ عَلَى تَوَسُّلَاتٍ عَظِيمَةٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: بِرَبِّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ، لِلْسَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ، وَالْعَرْشِ الْعَظِيمِ، وَبِإِزَالِهِ لِكَلَامِهِ الْعَظِيمِ، وَوَحْيِهِ الْمُبِينِ.

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

يَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ، وَيَتَعَوَّذُ بِهِ، بَأَنْ يُحِيطَ الْإِنْسَانُ بِرِعَايَتِهِ، وَيَكْلَأَهُ بِعِنَايَتِهِ، وَيَحْفَظُهُ مِنْ جَمِيعِ الشُّرُورِ.

وَمُسْتَمِلٌ عَلَى التَّوَسُّلِ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا بِبَعْضِ أَسْمَائِهِ الْعَظِيمَةِ، الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِهِ، وَجَلَالِهِ، وَعَظَمَتِهِ، وَإِحَاطَتِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، بَأَنْ يَقْضِيَ عَنِ الْإِنْسَانِ دَيْنَهُ، وَيُغْنِيَهُ مِنْ فَقْرِهِ^(١).

وَمِنَ اللَّطَائِفِ فِي تَرْتِيبِ هَذِهِ التَّوَسُّلَاتِ:

أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَدَأَ بِقَوْلِهِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ، وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»؛ أَيْ: خَالِقُهَا، وَمَالِكُهَا، وَمُدَبِّرُ أُمُورِهَا، وَمُبْدِعُهَا، وَمَوْجِدُهَا مِنَ الْعَدَمِ.

وَقَدْ خَصَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ بِالذِّكْرِ؛ لِعَظَمِهَا، وَكِبَرِهَا، وَلِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَالذَّلَالَاتِ الْبَاهِرَاتِ، عَلَى كَمَالِ خَالِقِهَا، وَعَظَمَةِ مُبْدِعِهَا، وَإِلَّا فَجَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ صَغِيرِهَا، وَكَبِيرِهَا، فِيهَا آيَةٌ بَيِّنَةٌ عَلَى كَمَالِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: «رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ»، فَهُوَ تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِصٍ؛ لِئَلَّا يُظَنَّ أَنَّ الْأَمْرَ مُخْتَصٌّ بِمَا ذَكَرَ.

فَالسَّمَاءُ: مَخْلُوقٌ عَظِيمٌ، وَلِذَا أَقْسَمَ اللَّهُ بِهَا: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥]، ففِيهَا مِنْ بَدِيعِ الْخَلْقِ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ الْوَصْفُ، مِنْ حُسْنٍ وَكَمَالٍ بَنَاهَا، «وَعُلُوِّهَا، وَسَعَتِهَا، وَاسْتِدَارَتِهَا، وَعِظَمُ خَلْقِهَا، وَحُسْنُ بَنَائِهَا، وَعَجَائِبُ شَمْسِهَا، وَقَمَرِهَا، وَكَوَاكِبِهَا، وَمَقَادِيرِهَا، وَأَشْكَالِهَا، وَتَفَاوُتِ مَسَارِقِهَا، وَمَغَارِبِهَا، فَلَا ذَرَّةَ فِيهَا تَنْفَكُ عَنْ حِكْمَةٍ.

بَلْ هِيَ أَحْكَمُ خَلْقًا، وَأَتْقَنُ صُنْعًا، وَأَجْمَعُ لِلْعَجَائِبِ مِنْ بَدَنِ الْإِنْسَانِ، بَلْ لَا نِسْبَةَ لْجَمِيعِ مَا فِي الْأَرْضِ إِلَى عَجَائِبِ السَّمَوَاتِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢٧) رَفَعَ سَعَتَهَا فَسَوَّيْنَهَا [النازعات: ٢٧-٢٨]، وَقَالَ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ

(١) فقه الأدعية والأذكار لعبد الرزاق البدر (٣/ ٧١).

وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ [غافر: ٥٧]،
وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي
الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

فبدأ بذكر خَلْقِ السَّمَاوَاتِ، وهذا كثير في القرآن، فالأَرْضُ، والبحارُ، والهواءُ،
وكلُّ ما تَحْتَ السَّمَاوَاتِ، بالإضافة إلى السماواتِ، كقطرة في بحرٍ.

ولهذا قل أن تحييء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها:

إِمَّا إِبْرَارًا عَنْ عِظَمِهَا، وَسَعَتِهَا.

وإِمَّا إِقْسَامًا بِهَا.

وإِمَّا دُعَاءً إِلَى النَّظَرِ فِيهَا.

وإِمَّا إِرْشَادًا لِلْعِبَادِ أَنْ يَسْتَدِلُّوا بِهَا عَلَى عِظَمِ بَانِيهَا وَرَافِعِهَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإِمَّا اسْتِدْلَالًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِخَلْقِهَا عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الْمَعَادِ، وَالْقِيَامَةِ.

وإِمَّا اسْتِدْلَالًا مِنْهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ لَهَا عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

وإِمَّا اسْتِدْلَالًا مِنْهُ بِحُسْنِهَا، وَاسْتِوَائِهَا، وَالتَّيَامُ أَجْزَائِهَا، وَعَدَمِ الْفُطُورِ فِيهَا، عَلَى
تَمَامِ حِكْمَتِهِ، وَقُدْرَتِهِ.

وكذلك ما فيها مِنَ الْكَوَاكِبِ، وَالشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ، وَالْعَجَائِبِ، الَّتِي تَنْقَاصُ
عُقُولُ الْبَشَرِ عَنْ قَلِيلِهَا^(١).

والأرضُ: مخلوقٌ عَجِيبٌ، مَهْدَاهَا اللَّهُ، وَسَخَّرَهَا لَنَا؛ لِنَعِيشَ عَلَيْهَا، وجعلها
لَنَا قَرَارًا، وَثَبَّتَهَا بِالْجِبَالِ حَتَّى لَا تَضْطَرِبَ: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَنِمَّ

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/١٩٦)، بتصرف وزيادة.

يُكْمُ ﴿ [النحل: ١٥]، ﴿أَمِنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رُوسًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِيَّاهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزخرف: ١٠].

ودعا الله تعالى عباده للتفكير فيها، وفي انتصاها: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِلَهِ كَيْفَ خَلَقَ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

والمُشْرِكُونَ مُعْتَرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ السَّاءِ، والأَرْضِ، فكيف يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ؟ ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

«أي: فكيف يُصْرَفُونَ عَنِ الإِقْرَارِ بتفريده تعالى في الإلهية، مع إقرارهم بتفريده تعالى فيما ذَكَرَ مِنَ الْخَلْقِ، والتَّسْخِيرِ»^(١).

«فَكَمَا أَنَّ الْوَاحِدَ فِي مُلْكِهِ، فَلْيَكُنِ الْوَاحِدَ فِي عِبَادَتِهِ، وَكَثِيرًا مَا يُقَرَّرُ تَعَالَى مَقَامَ الإِلَهِيَّةِ، بِالْإِعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ»^(٢).

والعرش العظيم: أعظم مخلوقات الله تعالى، وأولها خلقًا، كما تقدّم في حديث: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكُتِبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، وَخُلِقَ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضُ»^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧].

(١) تفسير أبي السعود (٤٦/٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٢٩٤/٦).

(٣) رواه البخاري (٣١٩١).

وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] **أي:** شَمِلَ وأحاط، والكُرْسِيُّ أَكْبَرُ مِنَ السَّمَاوَاتِ، والأَرْضِ، و«الكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ»، كما قال ابن عَبَّاسٍ ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والعَرْشُ أَكْبَرُ مِنَ الكُرْسِيِّ، وفي الحديث: «ما السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلَائَةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ، كَفَضْلِ الْفَلَائَةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلْقَةِ» ^(٢).

فَبَدَأَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ، وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»؛ لِعَظَمِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ، وما فيها مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ:
«رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ»، فهو تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيصٍ؛ لِئَلَّا يُظَنَّ أَنَّ الْأَمْرَ مُخْتَصٌّ بِهَا ذِكْرًا.

ثُمَّ عَقَّبَهُ بِمَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْخَلْقِ؛ فَقَالَ: **«فَالِقَ الْحَبِّ، وَالنَّوَى»**، وهو مِنَ «الْفَلَقِ» **أي:** الشَّقُّ، أي: الذي يَشُقُّ حَبَّةَ الطَّعَامِ، وَنَوَى التَّمَرِ، وَغَيْرِهِ؛ لِتُخْرِجَ الْأَشْجَارَ، وَالزُّرُوعَ.

فَالنَّبَاتَاتُ إِمَّا أَشْجَارٌ أَوْ زُرُوعٌ أَصْلُهَا الْحَبُّ، وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يَفْلِقُ الْحَبَّ وَالنَّوَى الْيَابِسَ بِقُدْرَتِهِ؛ لِتُخْرِجَ مِنْهُ الزُّرُوعُ الْعَظِيمَةُ، وَالْأَشْجَارُ الْكَبِيرَةُ، وَفِيهِ آيَةٌ بَاهِرَةٌ عَلَى كَمَالِ الْمُبْدِعِ، وَعَظَمَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

(١) رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد (٢٤٨/١)، والحاكم (٣١١٦)، وقال ابن كثير: «مَحْفُوظٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَحَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَالصَّحَّاحُ بْنُ مُزَاهِمٍ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّدِّيُّ الْكَبِيرِ، وَمُسْلِمُ الْبَطْنِ» البداية والنهاية (١٣/١).

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٦١)، ويأتي الكلام عليه.

فإذا نَظَرَ ناظِرٌ بَعَيْنَ فَهْمِهِ إلى هَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ، وَهِيَ فَلَقُ الْحَبَّةِ، وَالنَّوَاةِ، عَنِ سُنْبُلَةٍ، وَنَخْلَةٍ؛ رَأَى كُلًّا مِنْهُمَا فِيهِ أَسْرَارٌ، وَعَجَائِبٌ، وَوَدَائِعٌ، مِنْ جِنْسِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ؛ فَعَلِمَ أَنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ.

ثُمَّ عَقَّبَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِقَوْلِهِ: «وَمَنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَالْفُرْقَانِ»؛ إشارةً إلى أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِخْرَاجُ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى فُضَاءِ الْوُجُودِ إِلَّا بِتَعَلُّمٍ، وَتَعَبُّدٍ، وَلَا يَحْصُلُ ذَلِكَ إِلَّا بِكِتَابٍ يُنَزِّلُهُ، وَرَسُولٍ يَبْعُثُهُ.

كَأَنَّهُ قِيلَ: يَا مَالِكَ، يَا مُدَبِّرَ، يَا خَالِقَ، يَا هَادِيَ.

وَفِي هَذَا تَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِإِنزَالِهِ هَذِهِ الْكُتُبِ الْعَظِيمَةِ، الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى هَدَايَةِ النَّاسِ، وَفَلَاحِهِمْ، وَسَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ، وَخَصَّهَا بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ كُتُبِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ، وَبَدَأَهَا حَسَبَ تَرْتِيبِ نُزُولِهَا الزَّمَنِيِّ.

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ قَالَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ «رَبِّ»، فَذَكَرَ: السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضَ، وَالْعَرْشَ الْعَظِيمَ، وَقَالَ فِي الْحَبِّ، وَالتَّوَى «فَالِقَ»، أَمَّا فِي هَذِهِ الْكُتُبِ الَّتِي هِيَ كَلَامُ اللَّهِ؛ فَقَالَ: «وَمَنْزِلَ».

فَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَفِيهِ رَدُّ عَلَى أَهْلِ الْبِدْعِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ مَخْلُوقٌ^(١).

فَتَوَسَّلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِرَبوبِيَّتِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ، لِلسَّمَاوَاتِ السَّبعِ، وَالْأَرْضِينَ السَّبعِ، وَالْعَرْشِ الْعَظِيمِ، وَإِنزَالِهِ لِكَلَامِهِ الْعَظِيمِ، وَوَحْيِهِ الْمُبِينِ، أَنْ يُعِيدَهُ مِنْ جَمِيعِ الشُّرُورِ؛ فَقَالَ: **«أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ»:**

أَيُّ: مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ؛ لِأَنَّهَا كُلُّهَا فِي سُلْطَانِهِ، وَهُوَ آخِذٌ

(١) الإفصاح لابن هُبَيْرَةَ (٨/٦٨)، شرح المشكاة للطَّيْبِيِّ (٦/١٨٨٦)، فقه الأَدْعِيَةِ وَالْأَذْكَارِ (٣/٧١).

بنواصيها، و«النَّاصِيَةُ» مُقَدِّمُ الرَّأْسِ، فَقُدْرَةُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فَوْقَ قُدْرَةِ كُلِّ مَخْلُوقٍ، وَبَطْشُهُ فَوْقَ كُلِّ ذِي بَطْشٍ.

فَجَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ دَاخِلَةٌ تَحْتَ قَهْرِ اللَّهِ، وَسُلْطَانِهِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آخِذُ بَنَواصِيهَا، قَادِرٌ عَلَيْهَا، يَتَصَرَّفُ فِيهَا كَيْفَ يَشَاءُ وَيَحْكُمُ فِيهَا بِمَا يُرِيدُ، كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] (١).

فَالسَّرُّ فِي التَّعْبِيرِ هُنَا بِقَوْلِهِ: «كُلُّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهِ»: أَنْ مَنْ آخَذَ بِنَاصِيَةِ أَحَدٍ، فَقَدْ قَهَرَهُ، وَقَدَّرَ عَلَيْهِ غَايَةَ الْقُدْرَةِ (٢).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»:

ذَكَرْ هُنَا أَرْبَعَةَ أَسْمَاءٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ: الْأَوَّلُ، وَالْآخِرُ، وَالظَّاهِرُ، وَالْبَاطِنُ، فَفَسَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّ اسْمٍ بِمَعْنَاهُ، وَنَفَى عَنْهُ مَا يُضَادُّهُ، وَيُنَافِيهِ.

فَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ تَدُلُّ عَلَى تَفَرُّدِ الرَّبِّ الْعَظِيمِ بِالْكَمَالِ الْمُطْلَقِ، وَالْإِحَاطَةِ الزَّمَانِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: «الْأَوَّلُ، وَالْآخِرُ»، وَالْإِحَاطَةِ الْمَكَانِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: «الظَّاهِرُ، وَالْبَاطِنُ».

وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى: أَوْلِيَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَبْدِيَّتُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَبَقَائِهِ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَعُلُوُّهُ عَلَى خَلْقِهِ، وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وَفَوْقِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ الظَّاهِرُ الَّذِي لَا شَيْءَ فَوْقَهُ، وَقُرْبِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ خَلْقِهِ، وَإِحَاطَتِهِ بِهِمْ، وَأَنَّهُ جَلٌّ وَعَلَا الْبَاطِنُ الَّذِي لَا شَيْءَ دُونَهُ.

(١) شرح النووي على مسلم (١٧/٣٦)، الفتح الرباني للساعاتي (١٤/٢٤٧)، فقه الأدعية والأذكار (٧٣/٣).

(٢) المفاتيح في شرح المصابيح للمظهري (٣/٢١٦).

فالأوّل: يدُلُّ على أن كل ما سواه حادث كائنٌ بعد أن لم يكن، ويوجب للعبد أن يلحظ فضل ربه في كل نعمة دينية، أو دنيوية؛ إذ السبب، والمُسبب، منه تعالى.

والآخر: يدُلُّ على أنه هو الغاية، والصمد الذي تصمد إليه المخلوقات بتأهلها، وتعبدها، ورغبتها، ورهبتها، وجميع مطالبها.

والظاهر: يدُلُّ على عظمة صفاته، واضمحلال كل شيء عند عظمتِهِ مِنْ ذواتٍ، وصفاتٍ، ويدُلُّ على علوه سبحانه وتعالى.

والباطن: يدُلُّ على اطلاعه على السرائر، والضمائر، والخبايا، والخفايا، ودقائق الأشياء، كما يدُلُّ على كمال قربه، ودنوه.

ولا منافاة بين الظاهر، والباطن؛ لأن الله ليس كمثله شيء في كل النعوت؛ فهو العلي في دنوه، القريب في علوه سبحانه وتعالى^(١).

ثم سأل النبي صلى الله عليه وسلم ربه قضاء الدين، والغنى من الفقر؛ فقال: **«اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر»:**

وقوله: **«اقض عنا الدين» أي:** أعنا على أداء حقوق الله^(٢)، وحقوق العباد، من جميع الأنواع، وفي هذا تبرّي الإنسان من الحول، والقوة، وأنه لا حول ولا قوة له إلا بالله العظيم.

وقوله: **«وأغننا من الفقر» أي:** الاحتياج إلى المخلوق، أو من الفقر القلبي، والغنى هو: عدم الحاجة^(٣).

والغنى ثلاثة أقسام:

(١) الحق الواضح المبين للسعدي (ص ٢٥)، وفقه الأدعية (٣/ ٧٤).

(٢) فدين الله أحق أن يُقضى.

(٣) مرقاة المفاتيح (٤/ ١٦٧١)، وفقه الأدعية والأذكار (٣/ ٧٥).

- الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: غِنَى النَّفْسِ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ الْمَرْغُوبُ الْمَحْبُوبُ.
- الْقِسْمُ الثَّانِي: الْغِنَى بِاللَّهِ تَعَالَى.
- الْقِسْمُ الثَّالِثُ: الْغِنَى بِالْمَالِ، وَهُوَ مَوْضِعُ الْخِلَافِ.

وَقَدْ سُئِلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: أَيُّهُمَا أَتَمُّ: الْغِنَى بِاللَّهِ تَعَالَى، أَمْ الْاِفْتِقَارُ إِلَى اللَّهِ؟

فَقَالَ: «الافتقار إلى الله تعالى يوجب الغنى بالله، فإذا صحَّ الافتقار إلى الله، كُمِلَتْ الْعِنَايَةُ، فَلَا يُقَالُ أَيُّهُمَا أَتَمُّ؛ لِأَنَّهَا حَالَتَانِ لَا تَتِمُّ إِحْدَاهُمَا إِلَّا بِتَامِ الْأُخْرَى، وَمَنْ صَحَّ اِفْتِقَارُهُ إِلَى اللَّهِ صَحَّ غِنَاؤُهُ بِهِ»^(١).

وَالدِّينَ وَالْفَقْرُ كِلَاهُمَا هُمٌّ عَظِيمٌ، يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمَا مَفَاسِدُ كَثِيرَةٌ، كَارْتِكَابِ الْمَعَاصِي، وَإِخْلَافِ الْمَوَاعِيدِ، وَتَعَمُّدِ الْكَذِبِ، وَقَدْ يُورِّقَانِ الْإِنْسَانَ، وَيَمْنَعَانِهِ مِنَ النَّوْمِ.

فَإِذَا جَاءَ الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ وَطَلَبَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَدَّه، وَعَوْنَهُ، مُتَوَسِّلًا إِلَيْهِ بِتِلْكَ التُّوسُّلَاتِ الْعَظِيمَةِ؛ فَإِنَّ نَفْسَهُ عِنْدَئِذٍ تَسْكُنُ، وَتَطْمَئِنُّ، وَقَلْبُهُ يَرْتَاحُ، وَيَهْدَأُ؛ لِأَنَّهُ وَكَّلَ أَمْرَهُ إِلَى مَنْ بِيَدِهِ أَرْمَةُ الْأُمُورِ، وَمَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ، وَجَاءَ إِلَى مَنْ أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، وَكَيْفَ لَا يَطْمَئِنُّ الْقَلْبُ، وَقَدْ تَعَلَّقَ بِمَنْ هَذَا شَأْنُهُ؟^(٢).



(١) المسالك في شرح موطأ مالك لابن العربي (٣/ ٤٤٠).

(٢) فقه الأدعية والأذكار (٣/ ٧٥).

الحديث الحادي عشر

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ:

«يَطْوِي اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهَا بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيُّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيُّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّنَ فُلُوكَ الْأَرْضِ؟»^(٢).

هذا الحديث فيه بيانٌ شيءٍ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَكِبَرِيائِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَمَجْدِهِ، وَجَلَالِهِ، وَخُضُوعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَسْرِهَا لِعِزِّهِ، وَعَظَمَتِهِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ، وَقُدْرَتِهِ عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذا دليلٌ واضحٌ على ربوبيِّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَاسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَجِبُ أَنْ يَذَلَّ لَهُ الْعِبَادُ غَايَةَ الذُّلِّ، وَالتَّعْظِيمِ، مَعَ كَمَالِ الْحُبِّ، وَالتَّائُلُّهِ.

(١) رواه البخاري (٧٤١٢) مختصراً، ومسلم (٢٧٨٨).

(٢) رواه البخاري (٤٨١٢)، ومسلم (٢٧٨٧).

فَمِنْ عَظْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أَنَّ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضَ، وَمَا بَيْنَهُمَا، بِالنَّسْبَةِ إِلَى عَظْمَةِ اللَّهِ، وَقَبْضِهِ لَهَا، مَا هِيَ إِلَّا كَالشَّيْءِ الصَّغِيرِ فِي يَدِ أَحَدِنَا^(١).

وقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ، وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ، فِي يَدِ اللَّهِ، إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»^(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَلْ قَوْلُهُمْ^(٣) إِنَّ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى
حَقًّا كَخَرْدَلَةٍ تُرَى فِي كَفِّ
مُسْكِيهَا، تَعَالَى اللَّهُ ذُو السُّلْطَانِ^(٤)
فِي كَفِّ خَالِقِ هَذِهِ الْأَكْوَانِ

وقد جاء في بعض روايات الحديث: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَتَحَرَّكَ الْمِنْبَرُ مِنْ تَحْتِهِ؛ فَعَنَّ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مِقْسَمٍ، أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ كَيْفَ يَخْكِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَأْخُذُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَمَواتِهِ، وَأَرْضِيهِ، بِيَدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللَّهُ -وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ، وَيَسْطُطُهَا^(٥)،- أَنَا الْمَلِكُ»، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطُ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!^(٦).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ، وَيُحَرِّكُهَا، يُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ: «يَمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا

(١) الرسالة العرشية لابن تيمية (ص ١٨).

(٢) تفسير الطبري (٢٠/٢٤٦).

(٣) يعني: قول أهل السنة.

(٤) القصيدة النونية (ص ١٤٥).

(٥) يعني: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٦) رواه مسلم (٢٧٨٨).

الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ»، فَجَفَّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُنْبَرُ، حَتَّى قُلْنَا: لِيَخْرَنَّ بِهِ! ^(١).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَطْوِي اللَّهُ عَزَّجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهَا بِيَدِهِ الْيُمْنَى»:

«الطِّي»: ضِدُّ «النَّشْرِ»، وَهُوَ: ضَمُّ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، أَوْ مُلَاقَاةُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَجَمْعُهُ، وَلَفَّهُ ^(٢).

وهذا الطِّيُّ الْمَذْكُورُ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ طَيٌّ حَقِيقِيٌّ، نُؤْمِنُ بِهِ عَلَى حَقِيقَتِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وَقَالَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يَطْوِي اللَّهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ بِهَا فِيهَا مِنَ الْخَلِيقَةِ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ بِهَا فِيهَا مِنَ الْخَلِيقَةِ، يَطْوِي ذَلِكَ كُلَّهُ بِيَمِينِهِ، يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي يَدِهِ بِمَنْزِلَةِ خَرْدَلَةٍ» ^(٣).

فَيَطْوِي اللَّهُ تَعَالَى السَّمَاوَاتِ عَلَى عِظَمِهَا، وَاتِّسَاعِهَا، كَمَا تُطَوَّى الصَّحِيفَةُ عَلَى مَا كُتِبَ فِيهَا، فَتُنْثَرُ نَجْوَاهَا، وَيَكْوَرُ شَمْسُهَا، وَقَمَرُهَا، وَتَزُولُ عَنْ أَمَاكِنِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] **أَي:** إِعَادَتُنَا لِلْخَلْقِ مِثْلَ ابْتِدَائِنَا لِخَلْقِهِمْ، فَكَمَا ابْتَدَأْنَا خَلْقَهُمْ، وَلَمْ يَكُونُوا شَيْئًا؛ كَذَلِكَ نُعِيدُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ.

(١) رواه الإمام أحمد (٥٤١٤)، وصَحَّحَ إِسْنَادَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيحَةِ (٥٩٧/٧).

(٢) لسان العرب (١٨/١٥)، والمعجم الوسيط (٥٧٢/٢)، وشرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١٤٠/١).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١٣٧٥٢)، وابن كثير (٣٨٢/٥).

﴿وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]: نُنفِذُ مَا وَعَدْنَا؛ وَذَلِكَ لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ لَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ الْأَشْيَاءُ^(١).

وَالْيَدَانِ ثَابِتَتَانِ لِلَّهِ تَعَالَى، فَتُبْتُ لِلَّهِ تَعَالَى مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ، وَمَا أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنُجْرِي نُصُوصَ الصِّفَاتِ عَلَى ظَاهِرِهَا، مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ، وَلَا تَمَثِيلٍ، وَلَا تَكْيِيفٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فَجَمَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْآيَةِ بَيْنَ نَفْيِ التَّمَثِيلِ، وَإِثْبَاتِ أَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ؛ «وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ وَاضِحَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْخَلْقِ أَنْ يَنْفُوا عَنِ اللَّهِ سَمْعَهُ، وَبَصَرَهُ، بِدَعْوَى أَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ الْحَادِثَةَ تَمْلِكُ سَمْعًا، وَأَبْصَارًا!

فَسَمِعُ اللَّهِ وَبَصَرُهُ يَلِيقَانِ بِجَلَالِ اللَّهِ، وَكَمَالِهِ، وَأَسْمَاعُ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَبْصَارُهَا تَنَاسِبُ حَالَهُمْ؛ فَلَا تَشَابُهُ بَيْنَ صِفَاتِ اللَّهِ وَصِفَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ»^(٢).

قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدْنِي﴾ [ص ٧٥].

وَتَنَوَّعَتِ النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ فِي «إِثْبَاتِ الْيَدَيْنِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِثْبَاتِ الْأَصَابِعِ لَهُمَا، وَإِثْبَاتِ الْقَبْضِ بِهِمَا، وَتَشْيِئَهُمَا»^(٣)، وَأَنَّ إِحْدَاهُمَا يَمِينٌ، وَالْأُخْرَى شِمَالٌ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يَسْطُرُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَبِالنَّهَارِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ مِنَ الْكَسْبِ الطَّيِّبِ بِيَمِينِهِ، فَيُرِيهَا لِصَاحِبِهَا، وَأَنَّ الْمُقْسِطِينَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ»^(٤).

(١) تفسير السعدي (ص ٥٣١)، أضواء البيان (٤/ ٢٤٩).

(٢) العقيدة في الله للأشقر (ص ٢٢٠)، باختصار.

(٣) أنها يدان.

(٤) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ٣١١).

فَنُومُنْ بِذَلِكَ كُلِّهِ، مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ، وَلَا تَمَثِيلٍ، وَلَا تَكْيِيفٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ، وَلَا نَقُولُ:
 إِنَّ الْمُرَادَ بِ«الْيَدِ» الْقُدْرَةُ، وَالْمُرَادَ بِ«الطَّيِّ» وَ«الْقَبْضِ»: التَّسْخِيرُ، وَالْقَهْرُ! فِهَذَا
 مِنَ التَّأْوِيلِ الْمَذْمُومِ.

«فَالسَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي يَدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَفِي قَبْضَتِهِ، لَا يَفُوتُهُ مِنْهَا شَيْءٌ، وَلَا
 يَخْفَى عَنْ عِلْمِهِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَلَا يَعْرُبُ عَنْ قُدْرَتِهِ مِنْهَا قَلِيلٌ، وَلَا كَثِيرٌ»^(١).

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ»:

يَقُولُ ذَلِكَ ثَنَاءً عَلَى نَفْسِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَتَنْبِيْهَا عَلَى عَظَمَتِهِ الْكَامِلَةِ، وَعَلَى مُلْكِهِ
 الْكَامِلِ، وَهُوَ السُّلْطَانُ، فَهُوَ مَالِكُ ذُو سُلْطَانٍ.

و«أَنَا» مَعْرِفَةٌ، وَ«الْمَلِكُ» مَعْرِفَةٌ، وَإِذَا كَانَ الْمُبْتَدَأُ وَالْخَبَرُ كِلَاهُمَا مَعْرِفَةً،
 فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ طُرُقِ الْحَصْرِ، **أي:** أَنَا الَّذِي لِي الْمِلْكِيَّةُ الْمُطْلَقَةُ، وَالسُّلْطَانُ التَّامُّ، لَا
 يُنَازِعُنِي فِيهَا أَحَدٌ^(٢).

فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ اللَّهُ هُوَ الْمَلِكُ فِي الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ؟

فَالْجَوَابُ: بَلَى، اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَلِكُ فِي الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ لَا يُنَازِعُهُ
 أَحَدٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ «الْفَاتِحَةِ»: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]؛ **أي:** لَهُ
 الْمُلْكُ التَّامُّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ فِيهِ حُكْمًا مَعَ اللَّهِ.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَتَخْصِيصُ الْمُلْكِ يَوْمَ الدِّينِ لَا يَنْفِيهِ عَمَّا عَدَاهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ
 الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ «رَبُّ الْعَالَمِينَ»، وَذَلِكَ عَامٌّ فِي الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ.

وَأَمَّا أَضْيِيفَ إِلَى «يَوْمِ الدِّينِ»؛ لِأَنَّهُ لَا يَدَّعِي أَحَدٌ هُنَاكَ شَيْئًا، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ
 إِلَّا بِإِذْنِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ

(١) الإفصاح لابن هُبَيْرَةَ (٤/ ٧١).

(٢) القول المفيد (٢/ ٥٣٣).

وَقَالَ صَوَابًا ﴿[النبا: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾
[طه: ١٠٨]، وَقَالَ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقْتُ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ
الْيَوْمِ مَعَهُ حُكْمًا، كَمَلِكِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

قال: «يَوْمُ الدِّينِ: يَوْمُ الْحِسَابِ لِلْخَلَائِقِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يُدِينُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، إِنَّ
خَيْرًا فَخِيرًا، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا، إِلَّا مَنْ عَفَا عَنْهُ».

وَكَذَلِكَ قَالَ غَيْرُهُ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَالتَّابِعِينَ، وَالسَّلَفِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ^(١).

فَظُهُورُ مَلَكُوتِهِ، وَمُلْكِهِ، وَسُلْطَانِهِ، إِنَّهَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنَادِي
﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، فَلَا يُجِيبُ أَحَدٌ؛ فَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾
[غافر: ١٦]، ففِي الدُّنْيَا يَظْهَرُ مُلُوكٌ، بَلْ يَظْهَرُ مُلُوكٌ يَعْتَقِدُ شُعُوبُهُمْ أَنَّهُ لَا مَالِكَ إِلَّا
هُمْ؛ فَالْشُّيُوعِيُّونَ -مَثَلًا- لَا يَرَوْنَ أَنَّ هُنَاكَ رَبًّا لِلسَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ، يَرَوْنَ أَنَّ
الْحَيَاةَ أَرْحَامًا تَدْفَعُ، وَأَرْضٌ تَبْلَعُ، وَأَنَّ رَبَّهُمْ هُوَ رَئِيسُهُمْ^(٢).

وقوله تعالى: «أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»:

«الْجَبَّارُونَ»: الظَّالِمَةُ، الْمُتَعَالُونَ عَلَى النَّاسِ بِالْقَهْرِ، وَالْغَلْبَةِ، وَالظُّلْمِ، وَالْبَطْشِ
بِغَيْرِ حَقٍّ.

«وَالْمُتَكَبِّرُونَ» أَيْ: بِمَا لَهُمْ، وَجَاهِهِمْ، يَتَعَالَوْنَ عَلَى النَّاسِ بِالظُّلْمِ، وَالْبَطْشِ،
وَيَتَعَالَوْنَ عَلَى الْحَقِّ، فَلَا يَقْبَلُونَهُ^(٣).

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٣٤).

(٢) تفسير سورة الفاتحة لابن عثيمين (١/ ١٢).

(٣) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٥٠٦)، وإعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد للفوزان (٢/ ٣٢٣).

كما في الحديث: «الكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»^(١).

ومعنى «بَطَرُ الْحَقِّ»: دَفَعُهُ، وَإِنْكَارُهُ؛ تَرْفَعًا، وَتَجَبُّرًا، وَ«غَمَطُ النَّاسِ»: احتقارهم^(٢).
والاستيفهام للتحدّي، فيقول: أين الملوك الذين كانوا في الدنيا هم السُّلْطَةُ،
والتَّجَبُّرُ، والتَّكَبُّرُ، على عبادِ الله؟ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾
[الأنعام: ٩٤].

وفي ذلك الوقت يُحْشَرُونَ أمثال الذرّ^(٣)، يَطْوُهُمُ النَّاسُ بأقدامهم^(٤)؛ كما في
الحديث: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ، فِي صَوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمْ»^(٥)
الذَّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ»^(٦).

فَيَحْشَرُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَمْثَالَ صِغَارِ النَّمْلِ، **والمعنى**: أَتَمُّهُمْ يَكُونُونَ فِي غَايَةِ مَنْ
الْمَذَلَّةِ، وَالنَّقِيصَةِ، يَطْوُهُمْ أَهْلُ الْمَحْشَرِ بِأَرْجُلِهِمْ، مِنْ هَوَانِهِمْ عَلَى اللَّهِ»^(٧).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ
الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»:

اختلف الرواة في إثبات لفظة «بشماله»، فمنهم من أثبتها، وهي رواية مسلم
في صحيحه، ومنهم من قال «بيده الأخرى»؛ ولذا حكّم بعض العلماء على رواية
الإثبات بالشُّدُوذِ.

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٩٠).

(٣) أمثال النمل الصغير، في الصَّغَرِ وَالْحَقَارَةِ.

(٤) القول المفيد لابن عثيمين (٢/ ٥٣٣).

(٥) يأتيهم.

(٦) رواه الترمذي (٢٤٩٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٧)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد

(٤٣٤).

(٧) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣١٩٢).

فَأَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَدَيْنِ، وَأَنَّ إِحْدَى يَدَيْهِ يَمِينٌ،
وَاخْتَلَفُوا:

هَلِ الْآخَرَى تَوْصَفُ بِالشِّمَالِ؟ أَمْ أَنَّ كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ؟

فَأَثْبَتَهَا الْإِمَامُ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ، وَأَبُو يَعْلَى الْفَرَّاءُ، وَالشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ
الْوَهَّابِ، وَغَيْرُهُمْ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، لَا شِمَالَ فِيهِمَا؛ مِنْهُمْ: الْإِمَامُ ابْنُ خُزَيْمَةَ^(١).

يَقُولُ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا كَانَتْ لَفْظَةُ «شِمَالٍ» مَحْفُوظَةً؛ فَهِيَ عِنْدِي لَا
تُنَافِي «كِلتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»^(٢)؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ الْيَدَ الْآخَرَى لَيْسَتْ كَالْيَدِ الشِّمَالِ بِالنِّسْبَةِ
لِلْمَخْلُوقِ، نَاقِصَةً عَنِ الْيَدِ الْيُمْنَى؛ فَقَالَ: «كِلتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»، أَي: لَيْسَ فِيهَا نَقْصٌ.

فَإِذَا وَصَفْنَا الْيَدَ الْآخَرَى بِالشِّمَالِ؛ فَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهَا أَقْلُ قُوَّةٍ مِنَ الْيَدِ الْيُمْنَى، بَلْ
كِلتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، وَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ: إِنْ ثَبَّتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَحْنُ
نُؤْمِنُ بِهَا، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: «كِلتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»، وَإِنْ لَمْ تَثْبُتْ فَلَنْ نَقُولَ
بِهَا»^(٣).

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ
بِيَمِينِهِ»:

الْفَرْقُ بَيْنَ «الْقَبْضِ»، وَ«الطِّيِّ»: أَنَّ «الْقَبْضَ» هُوَ: أَخْذُ الشَّيْءِ بِالْيَدِ، وَجَمْعُهُ،
وَ«الطِّيُّ» هُوَ مُلَاقَاةُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَجَمْعُهُ، وَلَقُّهُ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ «الْقَبْضِ».

(١) صفات الله الواردة في الكتاب والسنة لعلوي السقاف (ص ٣٧٩، ٣٨٣).

(٢) مسلم (١٨٢٧).

(٣) القول المفيد (٢/ ٥٣٤).

وهذا من صفات الله تعالى الفعلية التي تتعلق بمشيئته، وإرادته^(١)، وهي^(٢) ثابتةٌ بآيات كثيرة، وأحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ، وهي مما يجب الإيمان به؛ لأن ذلك داخل في الإيمان بالله تعالى، ويخرم تأويلها المخرج لمعانيها عن ظاهرها.

وقد دل على ثبوتها لله تعالى العقل أيضًا، فإنه لا يمكن لمن نفاها إثبات أن الله هو الخالق لهذا الكون المشاهد؛ لأن الفعل لا بد له من فاعل، والفاعل لا بد له من فعل، وليس هناك فعل معقول إلا ما قام بالفاعل، سواء كان لازماً، كالنزول، والمجيء، أو متعدياً، كالقبض، والطّي، فحدث ما يحدثه تعالى من المخلوقات، تابع لما يفعله من أفعاله الاختيارية القائمة به تعالى.

وهو سبحانه وتعالى حي قيوم، فعّال لما يريد، فمن أنكر قيام الأفعال الاختيارية به؛ فإن معنى ذلك أنه ينكر خلقه لهذا العالم المشاهد، وغير المشاهد، وينكر قوله:

﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، فالعقل دل على ما جاء به الشرع.

وما صرح به في هذا الحديث من «القبض»، و«الطّي»، قد جاء صريحاً أيضًا في كتاب الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

«يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره، وقدرته»^(٣).

والأحاديث والآثار عن السلف في صريح الآية، والحديث المذكور، كثيرة،

(١) كالنزول، والمجيء، والضحك، والرضا، والغضب، وغيرها.

(٢) يعني: الصفات الفعلية.

(٣) تفسير ابن كثير (١١٣/٧).

وظاهرة جليّة، لا تحتَمِل تأويلاً، ولا تحتاج إلى تفسير؛ ولهذا صار تأويلها تحريفاً، وإلحاداً فيها^(١).

وقوله: «ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟»:

أي: أنه تعالى ينفرد بالملك، فهو الملك حقاً الذي لا منازع له، ولا معاون، ولا ظهير، ولا شريك، وفي ذلك اليوم، عندما يقبض الأرض بيده، ويطوي السماوات يمينه، ويصبح كل شيء في قبضته، ينادي الذين كانوا يُنازعونه في الدنيا ملكه، ويتعدّون على سلطانِه، من المتكبرين والمتجبرين من ملوك الدنيا، وقد انفرد مالك الملك الواحد القهار ذو السلطان بالملك.

وهو مُنفرد به في كل آن، غير أنه في ذلك اليوم ينكشف جلياً، فيناديهم بما يتضمّن توبيخهم، وتهديدهم: أين ملوك الدنيا؟ فهل يستطيعون منعاً، أو ردّاً؟ وهل لديهم قوّة، أو حيلة، أو فدى؟ لقد ذهب منهم كل شيء، وبقيت التبعات، والذل، والحسرات^(٢).



(١) شرح كتاب التوحيد للغنيان (١/ ١٤٠).

(٢) شرح كتاب التوحيد للغنيان (١/ ١٤١).

الحديث الثاني عشر

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَسْعَوْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ خَبْرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالشَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ؟ فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تَضَدِّيقًا لِقَوْلِ الْخَبَرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٧٦] ^(١):

«الْخَبَرُ»: هُوَ الْعَالَمُ، وَهُوَ مِنَ الْيَهُودِ، وَقَوْلُهُ: «إِنَّا نَجِدُ» يَعْنِي: فِي التَّوْرَةِ ^(٢).

وهذا الحديثُ يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وَعِظَمِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَقَدْ تَعَرَّفَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى عِبَادِهِ بِصِفَاتِهِ، وَعَجَائِبِ مَخْلُوقَاتِهِ، بِمَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَإِلَهِيَّتِهِ.

وَدَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى إِبْطَالِ الصِّفَاتِ لَهُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِ اللَّهِ، وَعَظَمَتِهِ، إِثْبَاتًا

(١) رواه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٢) القول المفيد (٢/ ٥٢٤).

بِلا تَمْتِيلُ، وَتَنْزِيهَا بِلا تَعْطِيلٍ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي ذَكَرْتُ عَلَيْهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، وَعَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ، وَأَيْمَتُهَا، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَالْإِيمَانِ.

وَتَأَمَّلْ مَا فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مِنْ تَعْظِيمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَبَّهُ، بِذِكْرِ صِفَاتِ كَمَالِهِ عَلَى مَا يَلِيْقُ بِعَظَمَتِهِ، وَجَلَالِهِ، وَتَصَدِيقِهِ الْيَهُودَ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى عَظَمَتِهِ.

وَلَمْ يَقُلِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا: إِنَّ ظَاهَرَهَا غَيْرُ مُرَادٍ، أَوْ إِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى تَشْبِيهِ صِفَاتِ اللَّهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ، فَلَوْ كَانَ هَذَا حَقًّا لَبَلَّغَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَكْمَلَ بِهِ الدِّينَ، وَأَتَمَّ بِهِ النِّعْمَةَ، فَبَلَّغَ الْبَلَاغَ الْمُبِينَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَصَحْبِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَتَلَقَّى الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَنْ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا وَصَفَ بِهِ رَبَّهُ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَنُعُوتِ جَلَالِهِ، فَأَمَنُوا بِهِ، وَأَمَنُوا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَمَا تَضَمَّنَهُ مِنْ صِفَاتِ رَبِّهِمْ جَلًّا وَعَلَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

وَكَذَلِكَ التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَتَابِعُوهُمْ، وَالْأَئِمَّةُ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ، وَالْفُقَهَاءِ، كُلُّهُمْ وَصَفَ اللَّهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَجْهَدُوا شَيْئًا مِنَ الصِّفَاتِ، وَلَا قَالَ أَحَدٌ مِنْهُمْ: إِنَّ ظَاهَرَهَا غَيْرُ مُرَادٍ، وَلَا إِنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِهَا التَّشْبِيهِ، بَلْ أَنْكَرُوا عَلَى مَنْ قَالَ ذَلِكَ غَايَةَ الْإِنْكَارِ، فَصَنَّفُوا فِي رَدِّ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ الْمُصَنَّفَاتِ الْكِبَارِ، الْمَعْرُوفَةِ الْمَوْجُودَةِ بِأَيْدِي أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ^(١).

فُنُشِبَتْ لِلَّهِ تَعَالَى «الْأَصَابِعُ»، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيْقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ، وَلَا تَمْتِيلٍ، وَلَا تَكْيِيفٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ.

(١) تيسير العزيز الحميد (ص ٦٤٠).

و«الإِصْبَعُ» إِصْبَعٌ حَقِيقِيٌّ، يَلِيقُ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، كَالْيَدِ.

وليس المراد بقوله: «على إِصْبَعٍ»: سهولة التصرّف في السماوات، والأرض، كما يقوله أهل التحريف! بل هذا خطأٌ مخالفٌ لظاهر اللفظ، والتقسيم؛ ولأنه ﷺ أثبت ذلك بإقراره^(١).



(١) القول المفيد (٢/ ٥٢٧).



الحديث الثالث عشر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ؛ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا فُسْتَرِقُ السَّمْعُ، وَفُسْتَرِقُ السَّمْعُ هَكَذَا، بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ...» الحديث^(١).

هذا الحديث فيه بيان عظمة الله، وعظمة كلامه سبحانه وتعالى، وأنه تعالى إذا تكلم بالوحي، فسمع أهل السموات كلامه، أُرعدوا من الهيبة، حتى يلحقهم مثل الغشي.

فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا.

كما جاء ذلك صريحاً عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ.

(١) رواه البخاري (٤٨٠٠).

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟».
 قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، كُنَّا نَقُولُ وَلَدَ اللَّيْلَةِ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ!
 فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لَمُوتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ؛ وَلَكِنْ رُبُّنَا
 تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ، إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلَ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ،
 حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ.
 قَالَ: فَيَسْتَخِيرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا، حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبْرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا،
 فَتَخْطِفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْدِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ، وَيُرْمُونَ بِهِ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ
 حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ^(١) فِيهِ وَيَزِيدُونَ^(٢).

كما جاء في تمام حديثنا هذا: «فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرَقُّ السَّمْعِ، وَمُسْتَرَقُّ السَّمْعِ هَكَذَا،
 بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، -وَوَصَفَ سُفْيَانُ^(٣) بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ-، فَيَسْمَعُ
 الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ
 السَّاحِرِ، أَوِ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ،
 فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةً كَذِبَةً.

فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي
 سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ».

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ (١٦)
 وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴿[الحجر: ١٦-١٨]، وقال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفافات: ١٠].

(١) يخلطون فيه الكذب، وفي رواية: (يَقْدِفُونَ).

(٢) رواه مسلم (٢٢٢٩).

(٣) هو ابن عيينة، أحد رواة الحديث.

وقوله: «ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ»:

«خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ»: أي: خُضوعًا لقَوْلِهِ.

«كَأَنَّهُ» أي: صَوْتُ الْقَوْلِ فِي وَقْعِهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ.

و«الصَّفْوَانُ» هو: الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ الصَّلْبُ، و«السِّلْسِلَةُ» عليه يكون لها صَوْتُ عَظِيمٌ.

وليس المراد تشبيهه صَوْتِ اللَّهِ تَعَالَى بهذا؛ لَأَنَّ اللَّهَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ بَلِ الْمُرَادُ تَشْبِيهَ مَا يَحْصُلُ هُمْ مِنَ الْفَزَعِ عِنْدَمَا يَسْمَعُونَ كَلَامَهُ، بِفَزَعٍ مَن يَسْمَعُ سِلْسِلَةً عَلَى صَفْوَانٍ.

وقوله: «فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»:

قوله: «فَإِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ» أي: أُزِيلَ عَنْهَا الْفَزَعُ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ» أي: قَالُوا: قَالَ الْحَقُّ؛ أي: قَالَ الْقَوْلَ الْحَقَّ.

ف«الحق» صفةٌ لمُصَدِّرٍ مَحْذُوفٍ مَعَ عَامِلِهِ، تَقْدِيرُهُ: قَالَ الْقَوْلَ الْحَقَّ.

وهذا الجواب الذي يقولونه هل هم يقولونه لَأَنَّهُمْ سَمِعُوا مَا قَالَ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ حَقٌّ؟ أَوْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ؟

يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونُوا قَدْ عَلِمُوا مَا قَالَ، وَقَالُوا: إِنَّهُ الْحَقُّ؛ فَيَكُونُ هَذَا عَائِدًا إِلَى الْوَحْيِ الَّذِي تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ؛ فَلِذَلِكَ قَالُوا هَذَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ صِفَتُهُ ^(١) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) القول المفيد (١/ ٣١٠).

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فأخبروا بما قال من غير زيادة، ولا نقصان^(١).

فالله تعالى هو ﴿الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]: «العليُّ في ذاته، فهو عالٍ على جميع المخلوقات.

وفي قدره؛ فهو كامل الصفات.

وفي قهره لجميع المخلوقات.

«الكبير» في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، الذي من عظمته، وكبريائه: أَنَّ الْأَرْضَ قَبَضَتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ.

وَمِنْ كِبَرِيَائِهِ: أَنَّ كُرْسِيِّهِ وَسِعَ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضَ.

وَمِنْ عَظَمَتِهِ، وَكِبَرِيَائِهِ: أَنَّ نَوَاصِي الْعِبَادِ بِيَدِهِ، فَلَا يَتَصَرَّفُونَ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ، وَلَا يَتَحَرَّكُونَ وَيَسْكُنُونَ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ.

وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل: أَنَّهَا كُلُّ صِفَةٍ كَمَالٍ، وَجَلَالٍ، وَكِبَرِيَاءٍ، وَعَظَمَةٍ، فَهِيَ ثَابِتَةٌ لَهُ، وَلَهُ مِنْ تِلْكَ الصِّفَةِ أَجْلُهَا، وَأَكْمَلُهَا.

وَمِنْ كِبَرِيَائِهِ: أَنَّ الْعِبَادَاتِ كُلَّهَا الصَّادِرَةَ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضِ، الْمَقْصُودُ مِنْهَا: تَكْبِيرُهُ، وَتَعْظِيمُهُ، وَإِجْلَالُهُ، وَإِكْرَامُهُ؛ وَلِهَذَا كَانَ التَّكْبِيرُ شِعَارًا لِلْعِبَادَاتِ الْكِبَارِ، كَالصَّلَاةِ، وَغَيْرِهَا^(٢).



(١) تفسير ابن كثير (٦/٥١٤).

(٢) تفسير السعدي (ص ٥٤٣).



الحديث الرابع عشر

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يَنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ»^(١).

وفي رواية: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»^(٢).

فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَظِيمٌ، لَهُ صِفَاتُ الْعِظَمَةِ، وَالْعِزَّةِ، وَالْكِبْرِيَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧]، وَقَالَ: ﴿عَلِمُوا الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

وَقَالَ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

وَفِي الْحَدِيثِ: «وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَيَّ رَبِّهِمْ، إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ، فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ»^(٣).

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٠٩٠)، والإمام أحمد (٨٨٩٤)، وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

وَوَصَفُ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّ الْعِزَّ، أَوْ الْعَظَمَةَ، إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءَ رِدَاؤُهُ، هُوَ كَسَائِرِ صِفَاتِهِ؛ نُشِبَتْهُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَجِبُ أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ عَلَى مَا أَفَادَهُ النَّصُّ، مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ، وَلَا تَمَثِيلٍ، وَلَا تَكْيِيفٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ^(١).

وليس معنى الحديث: أَنَّ لِلَّهِ إِزَارًا، وَرِدَاءً، مِنْ جِنْسٍ مَا يَلْبَسُهُ النَّاسُ، مِمَّا يُصْنَعُ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ، وَالْقُطُنِ، وَالْكَتَّانِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ بَلِ الْحَدِيثُ نَصٌّ فِي نَفْيِ هَذَا الْمَعْنَى الْفَاسِدِ^(٢).

ولذا قال: «فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ».

و«الْكِبْرِيَاءُ»: الْعَظَمَةُ، وَالْجَلَالُ، وَالْمَجْدُ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «الْمُتَكَبِّرُ»، وَ«الْكَبِيرُ»؛ **أي:** الْعَظِيمُ ذُو الْكِبْرِيَاءِ، وَقِيلَ: الْمُتَعَالَى عَنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ، وَقِيلَ: الْمُتَكَبِّرُ وَالْمُتَنَزِّهِ عَنِ السُّوءِ، وَالنَّقْصِ، وَالْعُيُوبِ^(٣).

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْعَظَمَةُ وَالْكِبْرِيَاءُ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْكِبْرِيَاءُ أَعْلَى مِنَ الْعَظَمَةِ؛ وَلِهَذَا جَعَلَهَا بِمَنْزِلَةِ الرِّدَاءِ، كَمَا جَعَلَ الْعَظَمَةَ بِمَنْزِلَةِ الْإِزَارِ».

وَلِهَذَا كَانَ شِعَارُ الصَّلَاةِ، وَالْأَذَانِ، وَالْأَعْيَادِ، هُوَ التَّكْبِيرُ، وَكَانَ مُسْتَحَبًّا فِي الْأُمْكِنَةِ الْعَالِيَةِ، كَالصَّفَا، وَالْمَرْوَةِ وَإِذَا عَلَا الْإِنْسَانُ شَرَفًا، أَوْ رَكِبَ دَابَّةً، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَعِنْدَ الْأَذَانِ يَهْرُبُ الشَّيْطَانُ^(٤).

(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٢/ ١٦٢).

(٢) بيان تلبس الجهمية لابن تيمية (٦/ ٢٧١).

(٣) لسان العرب (٥/ ١٢٥)، وتفسير السعدي (ص ٧٧٨، ٨٥٤).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٩٦).

ويقولُ أيضًا: «التَّكْبِيرُ مشروعٌ في المواضعِ الكِبَارِ؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ، وَيَسْتَوِي كِبْرِيَاؤُهُ فِي الْقُلُوبِ عَلَى كِبْرِيَاءِ تِلْكَ الْأُمُورِ الْكِبَارِ؛ فَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَيَكُونُ الْعِبَادُ لَهُ مُكَبِّرِينَ؛ فَيَحْصُلُ لَهُمْ مَقْصُودَانِ: مَقْصُودُ الْعِبَادَةِ بِتَكْبِيرِ قُلُوبِهِمْ لِلَّهِ، وَمَقْصُودُ الْإِسْتِعَانَةِ بِانْقِيَادِ سَائِرِ الْمَطَالِبِ لِكِبْرِيَائِهِ»^(١).

فالكبرياءُ لله تعالى وحده؛ ولذا كَانَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُتَكَبِّرِينَ أَنَّهُ يُحْشِرُهُمْ عِنْدَ الْبَعْثِ فِي صُورَةٍ مَهِينَةٍ ذَلِيلَةٍ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ»^(٢) فِي صُورِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمْ^(٣) الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ^(٤).



(١) مجموع الفتاوى (٢٤/٢٢٩)، باختصار.

(٢) أمثال النمل الصغير، في الصَّغَرِ وَالْحَقَارَةِ.

(٣) يَأْتِيهِمْ.

(٤) رواه الترمذي (٢٤٩٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٧)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٤٣٤).

الحديث الخامس عشر

عَنْ عُبَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ الزُّرْقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«اسْتَوُوا؛ حَتَّى أَتْنِي عَلَى رَبِّي»، فَصَارُوا خَلْفَهُ ضُفُوفًا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَلْتَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ، الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ، وَالْأَمْنِ يَوْمَ الْخَوْفِ، اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا، وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ، وَالْفُسُوقَ، وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَخِينَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ رُسُلَكَ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ، إِلَهَ الْحَقِّ»^(١).

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١٥٤٩٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٦٩٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٧٠)، والطبراني في المعجم الكبير (٤٥٤٩)، والحاكم في المستدرک (١٨٦٨)، وأبو نعيم في الحلية (١٢٧/١٠)، واختلف فيه على عبد الواحد بن أيمن راويه عن عبيد بن رفاع، وأشار غير=

فهذا ثناء على الله تعالى، وتوسُّل ببعض صفاته العظيمة، أن يبسط على النبي ﷺ وأصحابه من بركاته، ورحمته، وفضله، وما ذُكر في هذا الدعاء.

فَالْخَلْقُ خَلَقَ اللهُ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدِهِ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطَى لِمَا مَنَعَ، وَلَا قَابِضَ لِمَا بَسَطَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضَ؛ كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وَلَا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الإسراء: ٩٧]، ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

وَلَا مُقَرَّبَ لِمَا بَاعَدَ، وَلَا مُبَاعَدَ لِمَا قَرَّبَ؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقْبِضُ، وَيَبْسُطُ، وَيَخْفِضُ، وَيَرْفَعُ، وَيُعْطِي، وَيَمْنَعُ، وَيُضِلُّ، وَيَهْدِي، وَيُعِزُّ، وَيُذِلُّ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ: ﴿فَلْيَحْكُمْ اللهُ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]، ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ [الأنعام: ١٧-١٨].

فهو «الذي خَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ، وَذَلَّتْ لَهُ الْجَبَابِرَةُ، وَعَنَتْ لَهُ الْوُجُوهُ، وَقَهَرَ كُلُّ شَيْءٍ، وَدَانَتْ لَهُ الْخَلَائِقُ، وَتَوَاضَعَتْ لِعَظَمَةِ جَلَالِهِ، وَكَبَرِيَّائِهِ، وَعَظَمَتِهِ، وَعُلُوِّهِ،

= واحد من العلماء إلى إرساله، وقال الذهبي في السبر (١/٤١٥): «هذا حديث غريب منكر»، ولعل وجه استنكاره قوله في الحديث: «اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ» فهذا الدعاء -على فرض صحته- كان يوم أحد، ولم يكن النبي ﷺ يقاتل في هذه الفترة إلا مشركي قريش، فلا معنى لذكر أهل الكتاب هنا، وقد صحح هذا الحديث الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار (٢/١٦٣)، وكذا صححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

وَقُدْرَتِهِ، الْأَشْيَاءُ، وَاسْتِكَانَتِ، وَتَضَاعَلَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَحْتَ حُكْمِهِ، وَقَهْرِهِ^(١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ، وَرَحْمَتِكَ، وَفَضْلِكَ، وَرِزْقِكَ»:

بَعْدَ أَنْ قَدَّمَ الثَّنَاءَ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَالتَّوَسَّلَ بِأَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ؛ شَرَعَ فِي ذِكْرِ مَطْلُوبِهِ مِنْ خَيْرِي الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ.

فَسَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَوْسِّعَ عَلَيْهِمْ، وَيَكْثِرَ مِنْ خَيْرَاتِهِ، وَرَحْمَاتِهِ، وَفَضْلِهِ، وَرِزْقِهِ، وَأَنْ يُدِيمَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ وَحْدَهُ.

وقوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ، وَلَا يَزُولُ»:
وَهُوَ نَعِيمُ الْآخِرَةِ؛ فَهُوَ نَعِيمٌ دَائِمٌ لَا يَتَحَوَّلُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ، وَلَا يَنْفَدُ.

وقوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ»: أَيُّ: يَوْمِ الْحَاجَةِ، وَالشَّدَةِ، وَالْفَقْرِ، فَسَأَلَهُ النِّعْمَةَ وَقْتَ الْحَاجَةِ، وَأَنْ يُغْنِيَهُ عَنْ سُؤَالِ النَّاسِ، وَالْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ، وَأَنْ يُغْنِيَهُ بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ.

وقوله: «وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ»: وَأَسْأَلُكَ الْأَمَانَ، وَالْإِطْمِئْنَانَ، إِذَا حَلَّ الْفَزَعُ، وَالْخَوْفُ، فِي حَرْبٍ، أَوْ غَيْرِهَا.

وقوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِدٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنِي، وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ»:

فَاسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ مَا يُعْطَاهُ، مِنَ الرِّزْقِ، وَالْخَيْرِ؛ فَيُؤَدِّي بِهِ إِلَى تَرْكِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الزَّكَاةِ، وَصَلَةِ الْأَرْحَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَوْ يَكُونُ سَبَبًا فِي الطُّغْيَانِ، وَالْإِسْتِكْبَارِ، أَوْ الْعِصْيَانِ بِاسْتِعْمَالِهِ فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْفَى ﴿[العلق: ٦-٧]﴾.

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٤).

وَاسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ مَا مَنَعَهُ، لِكَمَالِ حِكْمَةٍ، وَعِلْمٍ؛ فَيَكُونُ سَبَبًا فِي الْحَسَدِ، أَوِ الْبَغْيِ، أَوِ الظُّلْمِ، أَوِ الْحُزْنِ، وَاهْتَمَّ، الَّذِي يُشْغِلُ عَنْ مَصَالِحِ الدِّينِ، وَالدُّنْيَا، أَوْ عَدَمِ الْقَنَاعَةِ، وَالرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ.

وقوله: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ، وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ، وَالْفُسُوقَ، وَالْعِصْيَانَ»:

أي: اجْعَلِ الْإِيمَانَ مَحْبُوبًا لَنَا فِي نَفُوسِنَا، مُزَيَّنًا فِي قُلُوبِنَا، فَيَتَرَيَّنُ ظَاهِرُنَا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بِمَا زَيَّنَتْ بِهِ بَاطِنُنَا، وَاجْعَلْ قُلُوبَنَا، وَنَفُوسَنَا، تَكْرَهُ الْمَعَاصِيَ، وَالْكُفْرَ، وَالخُرُوجَ عَنِ الطَّاعَةِ، وَالْعَمَلَ بِالْمَعْصِيَةِ.

وقوله: «وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ» أي: اجْعَلْنَا مُسْتَقِيمِينَ فِي أَعْمَالِنَا عَلَى طَاعَتِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ، فِي الظَّاهِرِ، وَالبَاطِنِ، وَفِي كُلِّ أَحْوَالِنَا.

وقوله: «اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَخِينَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ»:

فِيهِ: سُؤَالُ حُسْنِ الْخَاتِمَةِ، وَالثَّبَاتِ عَلَى الدِّينِ، حَتَّى الْمَمَاتِ، بِالاسْتِسْلَامِ لِلَّهِ ظَاهِرًا، وَبَاطِنًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ. وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، مَعَ صُحْبَةِ الصَّالِحِينَ، وَالسَّيْرِ فِي طَرِيقِهِمْ.

وقوله: «غَيْرَ خَزَايَا، وَلَا مَفْتُونِينَ» أي: فَلَا تُذَلِّلْنِي بِمَعْصِيَتِكَ، وَتَرِكَ أَمْرِكَ، فَأَصُلُّ «الْحَزِي»: الذُّلُّ الَّذِي يُسْتَحْيَا مِنْ مِثْلِهِ، لِمَا يُخَافُ مِنَ الْفَضِيحَةِ مِنْهُ.

وقوله: «وَلَا مَفْتُونِينَ» أي: غَيْرَ وَاقِعِينَ فِي الْفِتْنَةِ الدِّينِيَّةِ، وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ الْحِفْظَ، وَالسَّلَامَةَ فِي الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ.

ثُمَّ دَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ رَسُولَهُ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، بِأَنْ يَجْعَلَ عَلَيْهِمْ عَذَابَهُ، وَيُؤْسَهُ: **«اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفْرَةَ الَّذِينَ**

**يَكْذِبُونَ رُسُلَكَ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ (١) وَعَذَابَكَ،
اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ».**

ثم ختم الدعاء بذكر اسمين من أسمائه جلّ وعلا، وهذا من حسن الختام؛ فقال:
«إِلَهَ الْحَقِّ»، والتقدير: «الإله الحق»، فأضاف الموصوف إلى الصفة، كقولهم:
«مسجد الجامع» يعني: المسجد الجامع^(٢).

و«الإله» هو: المألوه، المعبود، المُستَحَقُّ أن يُؤْلَهَ، أي: يُعْبَدَ، ويُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

و«الحقُّ»: ضدُّ «الباطل»؛ فالله تعالى هو الإله الحق، في ذاته، وصفاته، وكلُّ
معبودٍ دونه باطل^(٣).

فَقَوْلُهُ حَقٌّ، وَفِعْلُهُ حَقٌّ، وَلِقَاؤُهُ حَقٌّ، وَرُسُلُهُ حَقٌّ، وَكُتُبُهُ حَقٌّ، وَدِينُهُ حَقٌّ،
وَعِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الْحَقُّ، وَكُلُّ شَيْءٍ يُنْسَبُ إِلَيْهِ فَهُوَ حَقٌّ؛ ﴿ذَلِكَ
يَأْتِي اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]^(٤).



(١) شدة العذاب.

(٢) الشافعي في شرح مسند الشافعي لابن الأثير (٣/ ٤٣٠).

(٣) شرح الدعاء من الكتاب والسنة لماهر بن عبد الحميد (ص ٥٠٠).

(٤) تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص ١٨٤).

الحديث السادس عشر

عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

«لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ، وَأَهْلَ أَرْضِهِ؛ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ؛ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتُ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتُّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتُ النَّارَ»^(١).

فَاللَّهُ عَزَّجَلْ مَنْزَرَةً عَنِ الظُّلْمِ، وَالظُّلْمُ مُحَالٌ فِي حَقِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي»^(٢).

وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحِمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، فَهُوَ «الْحَاكِمُ

(١) رواه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وأحمد (٢١٥٨٩)، وابن حبان في صحيحه (٧٢٧)، وصححه ابن القيم في شفاء العليل (ص ١١٣) والألباني في صحيح أبي داود، وقال محققو المسند: «إسناده قوي»، وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٥ / ٢): «في هذا الحديث نظر».

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

الْمُتَصَرِّفُ، الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ، فَلَهُ الْخَلْقُ، وَالْأَمْرُ، مَهْمَا فَعَلَ فَعَدْلٌ؛ لِأَنَّهُ الْمَالِكُ الَّذِي لَا يَظْلَمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ»^(١).

وَمِنْ عَدْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: مَا جَاءَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ، وَأَهْلَ أَرْضِهِ، عَذَّبَهُمْ وَهَوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ»:

لَيْسَ لِأَنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِمَحْضِ الْمَشِيئَةِ الْمُجَرَّدَةِ عَنِ السَّبَبِ، وَالْحِكْمَةِ، فَالْمُلْكُ مُلْكُهُ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ غَيْرُ ظَالِمٍ، فَهُوَ يَتَصَرَّفُ فِي مُلْكِهِ كَيْفَ يَشَاءُ بِلَا حِكْمَةٍ! -كَمَا يَقُولُهُ الْجَبَرِيَّةُ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ-؛ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا عَذَّبَهُمْ؛ كَانَ تَعَذُّبُهُمْ عَدْلًا مِنْهُ، وَحِكْمَةً، لَا بِمَحْضِ الْمَشِيئَةِ الْمُجَرَّدَةِ.

وبیان ذلك: أَنْ نَعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ عَظِيمَةً جَلِيلَةً، وَحَقَّقَهُ عَلَيْهِمْ كَثِيرَةً، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَغْفِرُ، وَيَغْفِرُ، وَيَتَجَاوَزُ.

وَالْعِبَادُ لَا يَقُومُونَ -مَهْمَا فَعَلُوا- بِحَقِّ عُبُودِيَّتِهِ، وَشُكْرِهِ، الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا عَلَيْهِمْ، وَلَا تَفِي أَعْمَالُهُمْ بِنَجَاتِهِمْ، إِمَّا جَهْلًا، أَوْ تَفْرِيطًا، أَوْ إِضَاعَةً، أَوْ تَقْصِيرًا، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ»^(٢).

فَلَوْ عَذَّبَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ؛ لَعَذَّبَهُمْ لِحَقِّهِ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَكَانُوا -إِذَا ذَاكَ- مُسْتَحِقِّينَ لِلْعَذَابِ، وَلَمْ يَكُنْ تَعَذُّبُهُ ظُلْمًا لَهُمْ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ؛ فَإِنَّ حَقَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ أَضْعَافُ أَضْعَافٍ مَا أَتَوْا مِنَ الطَّاعَاتِ.

فَكَيْفَ، وَأَعْمَالُهُمْ لَا تَوَازِي الْقَلِيلَ مِنْ نَعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ؟ بَلْ تَوْفِيقُهُمْ لِلطَّاعَةِ هُوَ مِنْ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، وَفَضْلِهِ، وَإِحْسَانِهِ، وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ حَقٌّ مِنَ الشُّكْرِ يَسْتَدْعِيهِ، وَيَقْتَضِيهِ.

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٧٠).

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

فَبَقِيَ نِعْمُهُ الْكَثِيرَةُ لَا مُقَابِلَ لَهَا مِنْ شُكْرِهِمْ، بَلْ لَوْ وُزَّعَتْ طَاعَاتُ الْعَبْدِ كُلِّهَا عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ؛ لَمْ يَخْرُجْ قِسْطُ كُلِّ نِعْمَةٍ مِنْهَا إِلَّا جِزءٌ يَسِيرٌ جَدًّا، لَا نِسْبَةَ لَهُ إِلَى قَدْرِ تِلْكَ النِّعْمَةِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ!

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

فإذا عذبهم على ترك شكرهم، وترك أداء حقه الذي ينبغي له سبحانه وتعالى؛ عذبهم بحقه، ولم يكن ظالمًا لهم؛ ولهذا قال بعده:

«وَلَوْ رَحِمَهُمْ؛ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ»:

يعني: أن رحمة الله لهم ليست في مقابلة أعمالهم، ولا هي ثمنًا لها، ولا تبلغ أعمالهم رحمة؛ فرحمته لهم ليست على قدر أعمالهم؛ إذ أعمالهم لا تستقل باقتضاء الرحمة، وحقوق عبوديته وشكره التي يستحقها عليهم لم يقوموا بها.

فرحمته سبحانه وتعالى خير من أعمالهم؛ لأن رحمة الله تُنجي العبد، وعمله لا يُنجيه، ولا يدخله الجنة؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إِلَّا أَنْ يَتَّعِمَدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ، وَرَحْمَةٍ»^(١)، وفي رواية: «لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ»^(٢).

فالأعمال الصالحة سبب في دخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، لكن ليست الأعمال ثمنًا لدخول الجنة، أو معاوضة، ومقابلة للجنة، بل دخول الجنة يكون برحمة الله تعالى، وفضله.

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) تقدّم ذكره آنفًا.

فمعنى الحديث: أَنَّهُ لَوْ عَذَّبَهُمْ؛ لَعَذَّبَهُمْ بِاسْتِحْقَاقِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ ظَالِمًا لَهُمْ، وَأَنَّهُ لَوْ رَحِمَهُمْ؛ لَكَانَ ذَلِكَ مُجَرَّدَ فَضْلِهِ، وَكَرَمِهِ، لَا بِأَعْمَالِهِمْ؛ فَرَحْمَتُهُ خَيْرٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ.

فَجَمِيعُ الْعِبَادِ تَحْتَ عَفْوِ اللَّهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَفَضْلِهِ، فَمَا نَجَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِعَفْوِهِ، وَمَغْفِرَتِهِ، وَلَا فَازَ بِالْجَنَّةِ أَحَدٌ إِلَّا بِفَضْلِهِ، وَرَحْمَتِهِ.

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى إِحْسَانِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَجُودِهِ، وَعَطَائِهِ^(١).

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا حَكَاهُ رَبُّهُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]؟

فَقَدْ يَفْهَمُ الْبَعْضُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ **أَنَّ مَعْنَاهُ:** هُمْ عِبَادُكَ، وَالْمُلْكُ مُلْكُكَ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ غَيْرُ ظَالِمٍ، فَلَوْ عَذَّبْتَهُمْ لَمْ تَكُنْ ظَالِمًا لَهُمْ؛ لِأَنَّكَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ، فَأَنْتَ تُعَذِّبُهُمْ بِمَخْضِ الْمَشِيئَةِ الْمُجَرَّدَةِ! وَهَذَا قَوْلُ الْجَبَرِيَّةِ.

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا مِنْ كَمَالِ آدَبِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمِنْ أَبْلَغِ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ شَأْنَ السَّيِّدِ رَحْمَةً عِبِيدِهِ، وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ، وَهَؤُلَاءِ عِبِيدُكَ لَيْسُوا عِبِيدًا لغيرِكَ، فَإِذَا عَذَّبْتَهُمْ مَعَ كَوْنِهِمْ عِبِيدَكَ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَلَوْلَا أَنَّهُمْ عِبِيدُ سَوْءٍ عُصَاةٌ، لَمْ تُعَذِّبْهُمْ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِسِرِّهِمْ، وَعَلَانِيَتِهِمْ، كَمَا قَالَ قَبْلُهَا: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْغُيُوبَ﴾ [المائدة: ١١٦].

فَإِذَا عَذَّبْتَهُمْ عَذَّبْتَهُمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْكَ بِمَا تُعَذِّبُهُمْ عَلَيْهِ، فَهُوَ إِقْرَارٌ، وَاعْتِرَافٌ، وَثَنَاءٌ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِحِكْمَتِهِ، وَعَدْلِهِ، وَكَمَالِ عِلْمِهِ بِحَالِهِمْ، وَاسْتِحْقَاقِهِمْ لِلْعَذَابِ، فَهُوَ يُوَافِقُ الْحَدِيثَ، وَلَا يُخَالِفُهُ.

(١) مجموع الفتاوى (١٨/١٤٣)، طريق الهجرتين (ص ١١٢، ٢٨٦)، مفتاح دار السعادة (١/٨، ١٠٩/٢)، شفاء العليل (ص ١١٣)، مختصر الصواعق المرسلة (ص ٢٤٦).

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنْ تَعَفَّرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وَلَمْ يَقُلْ: «الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»، وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّهُ قَالَ فِي وَقْتِ غَضَبِ الرَّبِّ عَلَيْهِمْ، وَالْأَمْرِ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، فَلَيْسَ هُوَ مَقَامَ اسْتِعْطَافٍ، وَلَا شَفَاعَةٍ، بَلْ مَقَامُ بَرَاءَةٍ مِنْهُمْ، فَالْمَقَامُ مَوَافَقَةُ الرَّبِّ فِي غَضَبِهِ عَلَى مَنْ غَضِبَ الرَّبُّ عَلَيْهِمْ.

وَالْمَعْنَى: إِنْ غَفَرْتَ لَهُمْ، فَمَغْفِرَتُكَ تَكُونُ عَنْ كَمَالِ الْقُدْرَةِ، وَالْعِزَّةِ، وَالْعِلْمِ، لَيْسَتْ عَنْ عَجْزٍ عَنِ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ، وَلَا عَنْ خَفَاءٍ عَلَيْكَ بِمَقْدَارِ جَرَائِمِهِمْ.

فَالْعَبْدُ قَدْ يَغْفِرُ لغيره لِعَجْزِهِ عَنِ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ، وَلِجَهْلِهِ بِمَقْدَارِ إِسَاءَتِهِ إِلَيْهِ، وَالْكَمَالُ: هُوَ مَغْفِرَةُ الْقَادِرِ الْعَالِمِ، وَهُوَ ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وَكَانَ ذِكْرُ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ فِي هَذَا الْمَقَامِ هُوَ عَيْنُ الْأَدَبِ فِي الْخِطَابِ^(١).

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَوْ أَنْفَقْتُ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»:

الْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَأَصُولِهِ الَّتِي لَا يَتِمُّ إِيْمَانُ الْعَبْدِ إِلَّا بِهَا، وَهُوَ: «تَقْدِيرُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْكَائِنَاتِ حَسْبَمَا سَبَقَ بِهِ عِلْمُهُ، وَاقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ»^(٢).

وَلِذَا لَمَّا قِيلَ لِابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قَبْلَنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَفَقَّرُونَ الْعِلْمَ^(٣)، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَتَمَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أَنْفُ^(٤)! قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «فَإِذَا لَقِيتَ أَوْلِيكَ؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَتَمُّهُمْ بُرَاءً مِنِّي! وَالَّذِي يَخْلَفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ؛ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ؛ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ».

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٥٨)، مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٩)، تفسير السعدي (ص ٢٥٠).

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة لابن عثيمين (ص ٢٧).

(٣) يطلبون ويجمعون العلم.

(٤) أي: مُسْتَأْنَف، لَمْ يَسْبِقْ بِهِ قَدْرٌ وَلَا عِلْمٌ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُهُ بَعْدَ وَقُوعِهِ سُجُودَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ الظَّالِمُونَ.

ثُمَّ رَوَى عَنْ أَبِيهِ عُمَرَ حَدِيثَ جَبْرِيلَ الْمَشْهُورَ فِي الْإِسْلَامِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْإِحْسَانِ، وَفِيهِ: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ، وَشَرِّهِ»^(١).

فَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَأَخْبَرَ أَنََّّهُ لَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ أَعْمَالُهُمْ بِدُونِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ».

ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ، وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

ثُمَّ قَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢).

وَفِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ: «يَا بُنَيَّ، اتَّقِ اللَّهَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ، وَشَرِّهِ، فَإِنْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ»^(٣).

وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَا: أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِمَرَاتِبِهِ، وَأَرْكَانِهِ الْأَرْبَعَةِ، وَهِيَ: الْعِلْمُ، وَالْكِتَابَةُ، وَالْمَشِيشَةُ، وَالْخَلْقُ.

فَتُؤْمِنُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِمَ الْأَشْيَاءَ بِعِلْمِهِ الْأَزَلِيِّ قَبْلَ كَوْنِهَا، فَعَلِمَ مَا كَانَ، وَمَا يَكُونُ، وَمَا سَيَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ، جُمْلَةً، وَتَفْصِيلًا، وَأَنَّهُ عَلِمَ مَا خَلَقَ عَامِلُونَ قَبْلَ خَلْقِهِمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥]

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٧٠٠)، وصححه ابن حجر والألباني.

(٣) الترمذي (٢١٥٥)، وصححه الألباني.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ كُلَّ شَيْءٍ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ قَبْلَ كَوْنِهِ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

فَاللَّهُ تَعَالَى أَجْرَى الْقَلَمَ عَلَى اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ؛ لِيَكْتُبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ، مَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ، عَلَى وَفْقِ مَا سَبَقَ بِهِ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِرَادَتُهُ، وَمَشِيئَتُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَزْلًا.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ كُلَّ مَا يَجْرِي فِي هَذَا الْكَوْنِ فَهُوَ بِإِرَادَةِ اللَّهِ، وَمَشِيئَتِهِ، الدَّائِرَةِ بَيْنَ الرَّحْمَةِ، وَالْحِكْمَةِ، وَمَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ مُطَابِقٌ لِعِلْمِهِ السَّابِقِ الْمَكْتُوبِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ؛ فَمَشِيئَةُ اللَّهِ نَافِذَةٌ، وَقُدْرَتُهُ شَامِلَةٌ، مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ؛ فَلَا يَخْرُجُ عَنْ إِرَادَتِهِ شَيْءٌ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ؛ فَهُوَ خَالِقُ كُلِّ عَامِلٍ، وَعَمَلِهِ، وَكُلِّ مَتَحَرِّكٍ، وَحَرَكَتِهِ.

وَأَنَّ كُلَّ مَا يَجْرِي مِنْ خَيْرٍ، وَشَرٍّ، وَكُفْرٍ، وَإِيمَانٍ، وَطَاعَةٍ، وَمَعْصِيَةٍ، شَاءَهُ اللَّهُ، وَقَدَرَهُ، وَخَلَقَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وَقَالَ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وَقَالَ: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَتَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»:

وَهَذَا مِثْلُ مَا وَرَدَ فِي الْكَلِمَاتِ الَّتِي عَلَّمَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ: «... وَاعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوا بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوا إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(١).

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وحسنه ابن رجب وابن حجر، وصححه ابن منده والألباني ومحققو المسند.

والمقصود: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنْ خَيْرٍ، وَشَرٍّ، وَنَفْعٍ، وَضَرٍّ، وَأَنَّ اجْتِهَادَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ عَلَى خِلَافِ الْمَقْدُورِ غَيْرُ مُفِيدٍ أَلْبَتَّةَ؛ عَلِمَ حِينَئِذٍ أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ الضَّرُّ وَالنَّفْعُ وَالْعَطَاءُ وَالْمَنْعُ.

فَأَوْجَبَ ذَلِكَ لِلْعَبْدِ تَوْحِيدَ رَبِّهِ عَزَّجَلَّ، وَإِفْرَادَهُ بِالطَّاعَةِ، وَحِفْظَ حُدُودِهِ؛ فَإِنَّ الْمَعْبُودَ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِعِبَادَتِهِ جَلْبُ الْمَنَافِعِ، وَدَفْعُ الْمَضَارِّ؛ وَلِهَذَا ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ يَعْبُدُ مَنْ لَا يَنْفَعُ، وَلَا يَضُرُّ، وَلَا يُغْنِي عَنْ عَابِدِهِ شَيْئًا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥]، ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦].

فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ، وَلَا يَضُرُّ، وَلَا يُعْطِي، وَلَا يَمْنَعُ، غَيْرُ اللَّهِ؛ أَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ إِفْرَادَهُ بِالْخَوْفِ، وَالرَّجَاءِ، وَالْمَحَبَّةِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَالسُّؤَالِ لَهُ، وَالتَّضَرُّعِ، وَإِخْلَاصِ الدُّعَاءِ لَهُ فِي حَالِ الشَّدَّةِ، وَحَالِ الرَّخَاءِ، وَتَقْدِيمِ طَاعَتِهِ عَلَى طَاعَةِ الْخَلْقِ جَمِيعًا، وَأَنْ يَتَّقِيَ سَخَطَهُ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ سَخَطُ الْخَلْقِ جَمِيعًا^(١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَوْ فُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلَتِ النَّارُ»:

فِي هَذَا جَزْمٌ أَنَّ مَنْ مَاتَ مُنْكَرًا لِلْقَدَرِ، كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ لِأَنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْقَدَرَ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ مَكْذِبٌ لِلْقُرْآنِ، وَمَكْذِبٌ لِأَمْرِ مَعْلُومٍ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ، وَالْكَافِرُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ الْمُخَلَّدِينَ فِيهَا^(٢).



(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨٤).

(٢) المفهم للقرطبي (١/ ١٣٢)، جامع العلوم والحكم (١/ ١٠٣)، القول المفيد (٢/ ٤٢٧).

الحديث السابع عشر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:
 «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَخَاءُ اللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ»،
 وَقَالَ:

«أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي
 يَدِهِ»،
 وَقَالَ:

«عَرَّشَهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبَيَّدَهُ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ، يَخْفِضُ، وَيَرْفَعُ»^(١).
 وفي روايةٍ لهما:

«يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَخَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ
 مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرَّشَهُ عَلَى
 الْمَاءِ، وَبَيَّدَهُ الْأُخْرَى الْفَيْضُ - أَوْ الْقَبْضُ -، يَرْفَعُ، وَيَخْفِضُ»^(٢).

(١) رواه البخاري (٧٤١١)، ومسلم (٩٩٣).

(٢) رواه البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣).

في هذا الحديث بيان لِكَمالِ مُلكِ اللهِ عَزَّجَلَّ، وجوده، وإحسانه، وكمالِ قُدْرَتِهِ، وعَظَمَتِهِ، وأنَّ مُلكَهُ وخزائنه لا تَنفَدُ، ولا تَنقُصُ بالنَّفقة، والعطاء، كما قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧]، وقال: ﴿وَلِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١].

وفي الحديث الآخر: «يا عبادي، لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم، قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ ما نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْخَيْطُ إِذَا دُخِلَ الْبَحْرُ»^(١).

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءُ اللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ»:

قوله: «مَلَأَى» يعني: شديدة الامتلاء بالخير الكثير، وما لا نهاية له مِنَ الْأَرْزَاقِ، والعَطَايا.

«لَا يَغِيضُهَا» أي: لا يَنْقُصُهَا.

«سَحَاءُ اللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ» أي: دائمة العطاء، والصَّبِّ، في اللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ.

يُقَالُ: «سَحَّ الْمَاءُ»: إِذَا انصَبَّ مِنْ فَوْقَ، وَارْتَفَعَ إِلَى حَدِّ السَّيْلَانِ؛ فَيَدُّ اللهُ تَعُطِي عَنْ ظَهْرِ غِنَى، جَزِيلَةَ الْعَطَاءِ، وَلَا مَانِعَ لِإِعْطَاءِ اللهِ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ إِذَا انصَبَّ مِنْ فَوْقَ انصَبَّ بِسَهولَةٍ، وَإِذَا أَخَذَ فِي الانصِبابِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَرُدَّهُ^(٢).

فاليدُ قد تكونُ خاليةً، فلا يُمكنُ العطاءُ مِنْهَا، وقد تكونُ مَلَأَى، ويكونُ صاحبُها بَخِيلًا، فإذا كانتْ مَلَأَى وصاحبُها لا يُنْفِقُ صارتَ غيرَ سَحَاءٍ، وإذا لم يكنْ فيها شيءٌ فَلَا إنفاقَ؛ لِأَنَّهَا خاليةٌ.

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) مرقاة المفاتيح (١/١٦٦).

أَمَّا يَدُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: فَمَلَأَى سَحَاءً دَائِمًا، تُعْطَى اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَمِينِهِ، **أَي: لَمْ يَنْقُصْ** ^(١).

فَاللَّهُ تَعَالَى لَهُ الْجُودُ الْكَامِلُ، وَالْإِحْسَانُ الصَّادِرُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ، الَّتِي لَا يَنْقُصُهَا الْإِنْفَاقُ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وهذا كما قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُوقِفُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ «فَلَا حَاجَرَ عَلَيْهِ، وَلَا مَانَعَ يَمْنَعُهُ مِمَّا أَرَادَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ بَسَطَ فَضْلَهُ، وَإِحْسَانَهُ الدِّينِيَّ، وَالدُّنْيَوِيَّ، وَأَمَرَ الْعِبَادَ أَنْ يَتَعَرَّضُوا لِلنَّفَحَاتِ جُودِهِ، وَأَنْ لَا يَسُدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَبْوَابَ إِحْسَانِهِ بِمَعَاصِيهِمْ، فَيَدُهُ سَحَاءٌ اللَّيْلَ، وَالنَّهَارَ، وَخَيْرُهُ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ مِدْرَارٌ» ^(٢).

أَمَّا الْإِنْسَانُ: فَمِنْ طَبْعِهِ الْبُخْلُ، وَالشُّحُّ، فَيُمْسِكُ خَشْيَةَ النَّفَادِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] ^(٣).

وَفِي الْحَدِيثِ: إثباتُ اليَدَيْنِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهَا مَبْسُوطَتَانِ بِالْعَطَاءِ، وَالنَّعَمِ، وَهُمَا مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ الذَّاتِيَّةِ الثَّابِتَةِ لَهُ حَقِيقَةً، عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِجَلَالِهِ.

فَقَالَ: «يَدُ اللَّهِ»، وَفِي الرُّوَايَةِ الْأُخْرَى: «يَمِينُ اللَّهِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَبِيْدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ».

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وَقَالَ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

وَأَجْمَعَ السَّلَفُ عَلَى أَنَّ لِلَّهِ يَدَيْنِ، فَيَجِبُ إِثْبَاتُهُمَا لِلَّهِ تَعَالَى حَقِيقَةً، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي

(١) شرح العقيدة السفارينية لابن عثيمين (ص ٢٥٦).

(٢) تفسير السعدي (ص ٢٣٨).

(٣) خَشْيَةُ الْإِنْفَاقِ: النَّفَادُ وَالْفَاقَةُ، وَقَتُورًا: بَخِيلًا.

يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ، وَكَمَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِجْرَاءُ نُصُوصِ الصِّفَاتِ عَلَى ظَاهِرِهَا، مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ، وَلَا تَمْثِيلٍ، وَلَا تَكْيِيفٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فلا نقول: إِنَّ الْمُرَادَ بـ«اليد»: الْقُدْرَةُ، أَوِ النِّعْمَةُ، كَمَا يَقُولُ أَهْلُ التَّعْطِيلِ^(١).

وقوله ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ فُنُذُ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَدِهِ»:

هذا تأكيدٌ لِلْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ، وَكَالدَّلِيلِ وَالشَّاهِدِ عَلَيْهَا، وَإِضَاحٌ لِكثْرَةِ نَفَقَتِهِ تَعَالَى، وَتَنْبِيهُ مَنْ لَهُ بَصِيرَةٌ إِلَى أَنَّ يَدَ اللَّهِ مَلَأَتْ، لَا تَنْقُصُ بِالنَّفَقَةِ، وَالْعَطَاءِ، وَتُعْطِي اللَّيْلَ، وَالنَّهَارَ، وَمَعَ عِظَمِ هَذِهِ النَّفَقَةِ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضَ، لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَدِهِ؛ لِأَنَّ بِيَدِهِ الْخَيْرَ كُلَّهُ، لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ^(٢).

وقوله ﷺ: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»، وَفِي الرِّوَايَةِ الْآخَرَى:
«وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»:

لَمَّا ذَكَرَ خَلْقَ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ، كَأَنَّ الْخَاطَرَ اسْتَشْعَرَ أَوْ تَطَلَّعَ إِلَى مَا قَبْلَ ذَلِكَ؛ فَذَكَرَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ.

وفي هذا دليلٌ على: أَنَّ خَلْقَ الْعَرْشِ كَانَ قَبْلَ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ^(٣).

فَالْعَرْشُ كَانَ عَلَى الْمَاءِ عِنْدَ ابْتِدَاءِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

(١) فتح رب البرية بتلخيص الحموية لابن عثيمين (ص ٦٩)، شرح الواسطية (١/ ٢٩١)، شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ٣٠٤، ٣١١).

(٢) طرح الشريب للعراقي (٤/ ٦٩)، شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ٣٠٥).

(٣) طرح الشريب (٤/ ٦٩)، فتح الباري (١٣/ ٣٩٥).

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾
[هود: ٧].

وفي الحديث: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذُّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضَ»^(١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَبَيْدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ، يَخْفِضُ، وَيَرْفَعُ»:

«المِيزَانُ» هو: العَدْلُ؛ لَأَنَّهُ بِالْمِيزَانِ يَقَعُ الْعَدْلُ، كما في الحديثِ الْآخِرِ: «يَخْفِضُ الْقِسْطَ، وَيَرْفَعُهُ»^(٢).

فَاللَّهُ تَعَالَى يَخْكُمُ فِي خَلْقِهِ بِمِيزَانِ الْعَدْلِ، فَمَنْ عَمِلَ مَا يَسْتَحِقُّ الرَّفْعَ رَفَعَهُ، وَمَنْ عَمِلَ مَا يَسْتَحِقُّ الْخَفْضَ خَفَضَهُ.

فَاللَّهُ تَعَالَى يَخْفِضُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُوَسِّعُ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَيُضَيِّقُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ؛ كما قال أَبُو الدَّرْدَاءِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، قال: «يَغْفِرُ ذَنْبًا، وَيَكْشِفُ كَرْبًا، وَيُجِيبُ دَاعِيًا، وَيَرْفَعُ قَوْمًا، وَيَضَعُ آخَرِينَ»^(٣).

وقوله: «يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ» أي: يَخْفِضُ الْمِيزَانَ وَيَرْفَعُهُ؛ فَإِنَّ الَّذِي يوزَنُ بِالْمِيزَانِ يَخْفُ، وَيَرْجَحُ، كما في الحديثِ الْآخِرِ: «يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ»^(٤).

وقيل: «المِيزَانُ» هو: الْقِسْمَةُ بَيْنَ الْخَلْقِ.

فَالْمِيزَانُ الَّذِي يَخْفِضُهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَيَرْفَعُهُ، هو: الشَّيْءُ الْمَوْزُونُ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَخْفِضُ

(١) رواه البخاري (٣١٩١).

(٢) رواه مسلم (١٧٩).

(٣) رواه البيهقي في الشعب (١٠٦٧)، ويأتي.

(٤) رواه مسلم (١٧٩).

الميزان، وَيَرْفَعُهُ بِمَا يوزَن مِنْ أرْزاقِ العِبَادِ النازِلَةِ مِنْ عِنْدِهِ، وأَعْمَاهُمْ المُرْتَفَعَةُ إِلَيْهِ، فَيَخْفِضُ المِيزَانَ تَارَةً بِتَقْتِيرِ الرِّزْقِ، وَالْخِذْلَانِ بِالمَعْصِيَةِ، وَيَرْفَعُهُ تَارَةً بِتَوْسِيعِ الرِّزْقِ، وَالتَّوْفِيقِ لِلطَّاعَةِ، عَدْلًا، وَحِكْمَةً^(١).

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الرِّوَايَةِ الأُخْرَى: «وَبِيْدِهِ الأُخْرَى الفَيْضُ -أَوْ القَبْضُ-، يَزِفُّعُ، وَيَخْفِضُ»:

قَوْلُهُ: «الفَيْضُ أَوْ القَبْضُ»: «أَوْ» هُنَا لِلشَّكِّ مِنَ الرَّاوي، وَقِيلَ: لِلتَّنَوُّعِ.

و«الفَيْضُ» هُوَ: فَيْضُ الإِحْسَانِ بِالعَطَاءِ، وَالرِّزْقِ الوَاسِعِ.

و«القَبْضُ»: قَبْضُ الأَرْوَاحِ بِالمَوْتِ.

وَقِيلَ: «القَبْضُ»: المَنْعُ؛ لِأَنَّ الإِعْطَاءَ قَدْ ذُكِرَ فِي قَوْلِهِ قَبْلَ ذَلِكَ: «سَحَاءَ اللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ»، فَيَكُونُ المَعْنَى: بِيَدِ اللهِ العَطَاءُ وَالمَنْعُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْصُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

و«يَزِفُّعُ، وَيَخْفِضُ» أَي: يَرْفَعُ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ آخَرِينَ، وَيَوْسِعُ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَيُضَيِّقُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ^(٢).

فَالْحَاصِلُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ يَدَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اليُمْنَى فِيهَا الإِحْسَانُ إِلَى الخَلْقِ، وَيَدَهُ الأُخْرَى فِيهَا العَدْلُ، وَالمِيزَانُ، الَّذِي بِهِ يَخْفِضُ، وَيَرْفَعُ.

فَالْفَضْلُ بِيَدِهِ اليُمْنَى، وَالعَدْلُ بِيَدِهِ الأُخْرَى، فَخَفَضُهُ وَرَفَعُهُ مِنْ عَدْلِهِ، وَإِحْسَانِهِ إِلَى خَلْقِهِ مِنْ فَضْلِهِ^(٣).

(١) أعلام الحديث للخطابي (٣/ ١٨٦٢)، المُفَهِّمُ للقرطبي (١/ ٤٠٩)، شرح النووي على مسلم (٣/ ١٣)،

٧/ ٨٠)، فتح الباري (١٣/ ٣٩٥)، إرشاد الساري للقسطلاني (٧/ ١٦٩، ١٠/ ٣٨٧)، مرقاة المفاتيح

(١/ ١٦٥)، شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ٣٠٦).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٩٥)، إرشاد الساري (١٠/ ٣٩٣).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٨/ ٩٥، ١٧/ ٩٣).

فهو «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحْسِنُ، وَيَعْدِلُ، وَلَا يُخْرِجُ فِعْلُهُ عَنِ الْعَدْلِ، وَالْإِحْسَانِ؛ ولهذا قيل: كُلُّ نِعْمَةٍ مِنْهُ فَضْلٌ، وَكُلُّ نِقْمَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ»^(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُقَسَّمُ الْأَرْزَاقُ، وَيُجْزَلُ الْعَطَايَا، وَيَمُنُّ بِفَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِمِيزَانِهِ، وَبَالِدِ الْأُخْرَى الْمِيزَانِ، يُخَفِّضُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْفَعُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ، عَدْلًا مِنْهُ، وَحِكْمَةً، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

هو القيومُ بأمر السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ، وَمَنْ فِيهِنَّ، لَيْسَ لَهُ بَوَّابٌ فَيُسْتَأْذَنُ، وَلَا حَاجِبٌ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِ، وَلَا وَزِيرٌ فَيُؤْتَى، وَلَا ظَهِيرٌ فَيُسْتَعَانُ بِهِ، وَلَا وَلِيٌّ مِنْ دُونِهِ فَيُسْتَفَعُ بِهِ إِلَيْهِ، وَلَا نَائِبٌ عَنْهُ فَيُعَرِّفُهُ حَوَائِجَ عِبَادِهِ، وَلَا مُعِينٌ لَهُ فَيُعَاوَنُهُ عَلَى قَضَائِهَا، بَلْ قَدْ أَحَاطَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِهَا عِلْمًا، وَوَسَّعَهَا قُدْرَةً، وَرَحْمَةً.

فَلَا تَزِيدُهُ كَثْرَةُ الْحَاجَاتِ إِلَّا جُودًا، وَكَرَمًا، وَلَا يَشْغَلُهُ مِنْهَا شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، وَلَا تُغْلِطُهُ كَثْرَةُ الْمَسَائِلِ، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِالْحَاحِ الْمُلْحِحِّينَ، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]^(٢).



(١) منهاج السنة النبوية (١/ ١٣٩).

(٢) طريق المهجرتين (ص ٢٠٧)، باختصار وتصرف يسير.

الحديث الثامن عشر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«قَالَ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ.

وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْتًا أَحَدٌ»^(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: قَالَ اللَّهُ:

«كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ، فَزَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا»^(٢).

اشتمَلَ هذا الحديثُ القُدسيُّ العَظيمُ على أصليْنِ عَظيميْنِ مِنْ أَصُولِ التَّوْحِيدِ:

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤).

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٢).

• **الأوّل:** إثبات البعث بعد الموت، وأن الله تعالى يجمع أجساد الموتى،
ويعيدّها، بقدرته كما كانت، ويعيد الأرواح إليها.

• **والأصل الثاني:** أن الله تعالى واحد، مُنَزَّه عن الصّاحبة، والولد.

وإنكار البعث يتضمّن تكذيب الله تعالى فيما أخبر به على السنّة رُسله، وفي كتابه؛
ولذا قال سبحانه وتعالى: «كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ... فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ:
لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي».

والله تعالى يقول: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ
﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩] وقال
تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْبَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيْنَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾
[التغابن: ٧].

ونسبة الولد إلى الله تعالى شتم له، وتنقص، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً؛ لأنّه
السيد الصمد الغني، وجميع المخلوقات خاضعة له، مُفْتَقِرَةٌ إليه، وهو سبحانه وتعالى
الغني عن عباده، والولد لا بدّ أن يكون من جنس والده، والله خالق كل شيء، ولا
شبيه له، ولا ند: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

ولذا قال سبحانه وتعالى: «وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ... وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ
فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا».

ولما دخل أبو بكر الباقليّ على ملك الروم، وعنده راهب، فقال له الباقليّ:
كَيْفَ الْأَهْلُ، وَالْأَوْلَادُ؟

فقال الملك: مه! أما علمت أن الراهب يتنزّه عن هذا؟

فَقَالَ: «تُنْزَهُونَهُ عَنْ هَذَا، وَلَا تُنْزَهُونَ رَبَّ الْعَالَمِينَ عَنِ الصَّاحِبَةِ، وَالْوَلَدِ؟!»^(١).
وَمَعَ هَذَا الشَّتْمِ، وَالتَّنْقِصِ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَلِيمٌ عَلَى عِبَادِهِ، يَصْبِرُ عَلَيْهِمْ،
وَيُعَافِيهِمْ، وَيَرْزُقُهُمْ، وَلَا يُعَاجِلُهُم بِالْعُقُوبَةِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «لَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى
أَذَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، إِنَّهُ يُشْرِكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ، وَيَرْزُقُهُمْ»^(٢).
وَفِي هَذَا يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «نَوَائِطِهِ»:

وَهُوَ الصَّبُورُ عَلَى أَذَى أَعْدَائِهِ شَتَمُوهُ بَلْ نَسَبُوهُ لِلْبُهْتَانِ
قَالُوا لَهُ وَلَدٌ وَلَيْسَ يُعِيدُنَا شَتْمًا وَتَكْذِيبًا مِنَ الْإِنْسَانِ
هَذَا وَذَلِكَ بِسَمْعِهِ وَبِعِلْمِهِ لَوْ شَاءَ عَاجَلَهُمْ بِكُلِّ هَوَانٍ
لَكِنْ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ وَهُمْ يُؤْذِنُونَهُ بِالشُّرْكِ وَالْكَفْرِانِ^٢

ثُمَّ رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذَا التَّكْذِيبِ، وَالشَّتْمِ:

فَقَالَ فِي الْأَوَّلِ: «فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَّأَنِي،
وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ».

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾
[الروم: ٢٧].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

أي: «أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شكٍّ من الإعادة؟» ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ
خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، **والمعنى:** أن ابتداء الخلق لم يُعْجِزْنَا، والإعادة أسهلُّ مِنْهُ»^(٤).

(١) تبين كذب المفتري لابن عساكر (ص ٢١٨)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٩٢).

(٢) رواه البخاري (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٨٠٤)، واللفظ له.

(٣) نونية ابن القيم (ص ٢٠٧).

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٩٧).

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ الْهَوَاقِ بِكَلِّ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يُخَبِّرُكَ اللَّهُ الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

فَرَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بَرْدًا بَسِيطًا مُقْنِعًا مُفْهِمًا، وَهُوَ: أَنَّ الَّذِي خَلَقَ هَذِهِ الْعِظَامَ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعِيدَهَا.

وهذا الردُّ لَا يُمَكِّنُ الاعتراضَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

«وهذا بِمُجَرَّدِ تَصَوُّرِهِ يُعْلَمُ بِهِ عِلْمًا يَقِينًا، لَا شُبْهَةَ فِيهِ، أَنَّ الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ ثَانِي مَرَّةٍ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَى الْقُدْرَةِ إِذَا تَصَوَّرَهُ الْمُتَصَوِّرُ.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]: هَذَا أَيْضًا دَلِيلٌ ثَانٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ أَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِجَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا، فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ. وَيَعْلَمُ مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْ أَجْسَادِ الْأَمْوَاتِ، وَمَا يَبْقَى، وَيَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَالشَّهَادَةَ، فَإِذَا أَقْرَأَ الْعَبْدُ بِهَذَا الْعِلْمِ الْعَظِيمِ؛ عَلِمَ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ مِنْ إِحْيَاءِ اللَّهِ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ»^(١).

«فَإِنَّ تَعَذُّرَ الْإِعَادَةِ عَلَيْهِ إِنَّمَا يَكُونُ لِقُصُورِ عِلْمِهِ، أَوْ قُصُورِ فِي قُدْرَتِهِ، وَلَا قُصُورَ فِي عِلْمٍ مَنْ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ، وَلَا قُدْرَةَ فَوْقَ قُدْرَةِ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضَ، وَإِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ: كُنْ؛ فَيَكُونُ، وَبِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ.

فَكَيْفَ تَعْجَزُ قُدْرَتُهُ، وَعِلْمُهُ، عَنْ إِحْيَائِكُمْ بَعْدَ مَمَاتِكُمْ، وَلَمْ تَعْجَزْ عَنِ الشَّأَةِ الْأُولَى، وَلَا عَنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ؟»^(٢).

(١) تفسير السعدي (ص ٦٩٩).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١١٠).

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿[العنكبوت: ١٩-٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ [الواقعة: ٦٢] **أي:** الخَلْقَةَ الْأُولَى، وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا؛ ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]، أَنِّي قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ كَمَا قَدَرْتُ عَلَى إِبْدَائِكُمْ، وَأَنَّ الَّذِي قَدَرَ عَلَى النَّشْأَةِ الْأُولَى قَادِرٌ عَلَى النَّشْأَةِ الْآخِرَى، بِطَرِيقِ الْأُولَى، وَالْآخِرَى^(١).

وقال تعالى: ﴿وَقَوْلُ الْإِنْسَانِ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾^(٢١) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿[مريم: ٦٦-٦٧].

وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(٢٢) أَلَمْ يَكُ نَطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يَمْنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقَتُهُ فَخْلَقَ فُسُوءً ﴿٣٨﴾ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُخْجِيَ الْمَوْتَى ﴿[القيامة: ٣٦-٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا^(٢) أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾^(٤١) ﴿٤١﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿[الإسراء: ٤٩-٥١].

فَهُمْ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَاسْتَحَالَةَ الْأَجْسَادِ إِلَى التُّرَابِ؛ لِأَنَّهُمْ قَاسُوا قُدْرَةَ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضِ، بِقُدْرَتِهِمُ الضَّعِيفَةِ الْعَاجِزَةِ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ؛ جَعَلُوا قُدْرَةَ اللَّهِ كَذَلِكَ!

(١) تفسير البغوي (٢٠/٨)، تفسير ابن كثير (٥٣٩/٧).

(٢) رُفَاتًا: أَجْسَادًا بِالْيَةِ.

فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ لِهَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ اسْتِيعَادًا: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٥٠] فِي الشَّدَّةِ، وَالْقُوَّةِ، تَعْجِيزًا لَهُمْ، **أَي**: اسْتَشْعِرُوا فِي قُلُوبِكُمْ أَنَّكُمْ حِجَارَةٌ، أَوْ حَدِيدٌ، فِي الْقُوَّةِ، ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] كَالسَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضِ، وَالْجِبَالِ.

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ [الإسراء: ٥١] حِينَ تُقِيمُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ فِي الْبَعْثِ: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] فَكَمَا فَطَرَكُمْ، وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا؛ فَإِنَّهُ سَيُعِيدُكُمْ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ^(١).

وَقَالَ فِي الثَّانِي - وَهُوَ الشَّتْمُ -: «وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الْأَخَذُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ، وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْتًا أَحَدٌ»:

فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِي تَصَمَّدُ إِلَيْهِ ^(٢) جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ، فِي جَمِيعِ حَاجَاتِهَا، وَأَحْوَالِهَا، وَضُرُورَاتِهَا، بِالذُّلِّ، وَالْحَاجَةِ، وَالْاِفْتِقَارِ، وَهُوَ الَّذِي كَمَّلَ فِي عِلْمِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَجَلَمِهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَعَظَمَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَسَائِرِ أَوْصَافِهِ ^(٣).

وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْغَنِيُّ عَنْ عِبَادِهِ، وَالْوَلَدُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسٍ وَالِدِهِ، وَاللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا شَبِيهَ لَهُ، وَلَا نِدَّ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]؛ فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!

وَهَذَا كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ^(٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ^(٩) ^(٤) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ^(١٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ^(١١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ^(١٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ

(١) تفسير البغوي (٩٨/٥)، تفسير السعدي (ص ٤٦٠).

(٢) أي: تقصده.

(٣) الحق الواضح المبين للسعدي (ص ٧٥).

(٤) منكراً أو عظيماً.

وَالْأَرْضِ إِلَّا عَاقِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿١٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٤﴾ وَكُلُّهُمْ عِندَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿١٥﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

وقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨]؛ فهو الغنيُّ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، والكلُّ عبيده، وماليكُه، فِلَائِي شَيْءٌ يَتَّخِذُ الْوَلَدَ؟ وَلَا يَتَّخِذُ أَحَدٌ وَلَدًا إِلَّا لِنَقْصٍ فِي غِنَاهُ^(١).

وقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قٰنِیْنٌ﴾ ﴿١٣﴾ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦-١١٧].

فهو سُبحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٦]: «ليس الأمرُ كما افترَوا، وإنَّما له مُلْكُ السَّمٰوٰتِ، والأرضِ، وهو المُتَصَرِّفُ فِيهِمْ، وهو خَالِقُهُمْ، ورازِقُهُمْ، ومُقدِّرُهُمْ، ومُسَخِّرُهُمْ، ومُسَيِّرُهُمْ، ومُصَرِّفُهُمْ كما يشاءُ، والجميعُ عبيدٌ له، ومُلْكٌ له، فكيفَ يكونُ له وَلَدٌ مِنْهُمْ؟!

والوَلَدُ إِنَّمَا يكونُ مُتَوَلِّدًا مِنْ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ، وهو تَبَارَكَ وَتَعَالَى ليسَ لَهُ نظيرٌ، ولا مُشَارِكٌ فِي عَظَمَتِهِ، وكِبَرِيَّائِهِ، ولا صَاحِبَةٌ لَهُ، فكيفَ يكونُ له وَلَدٌ؟!

كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]؛ فهو السيِّدُ العَظِيمُ، الذي

(١) تفسير السعدي (ص ٣٦٩).

لَا نَظِيرَ لَهُ، وَلَا شَبِيهَ لَهُ، وَجَمِيعُ الْأَشْيَاءِ مَخْلُوقَةٌ لَهُ مَرْبُوبَةٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْهَا
وَلَدٌ؟!»^(١).

فُسُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلوًّا كَبِيرًا، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،
الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.



(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٦)، باختصار.

الحديث التاسع عشر

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال:

«لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةُ آيَةً، وَبِئْسَ قَرَأَهَا، وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١١) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا وُقِعُوا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]»^(١):

هذا الحديث له مناسبة: فَقَدْ سُئِلَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ أَعْجَبَ مَا رَأَتْهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، ذَرِينِي أَتَعَبِدَ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي».

قالت: والله إِنِّي لِأَحِبُّ قُرْبَكَ، وَأَحِبُّ مَا سَرَّكَ.

قالت: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي.

قالت: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرُهُ.

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٢٠)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٦١٨)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي (٥٦٨)، وابن المنذر في تفسيره (٥٣٢/٢)، وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان، على شرط مسلم، وجوّد إسناده الألباني في الصحيحة (٦٨).

قالت: ثُمَّ بَكَى، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِيتَهُ.

قالت: ثُمَّ بَكَى، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ الْأَرْضِ.

فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَأَاهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ، وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةُ آيَةٌ وَبَلَ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] الآية كلها».

قال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سُلَيْمَانَ: سَأَلْتُ الْأَوْزَاعِيَّ عَنْ أَدْنَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُتَعَلِّقُ مِنَ الْفِكْرِ فِيهِمْ، وَمَا يُنْجِيهِ مِنْ هَذَا الْوَيْلِ؟ فَأَطْرَقَ هُنَيْئَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَقْرَؤُهُنَّ وَهُوَ يَعْقِلُهُنَّ»^(١).

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْعَشْرَ مِنْ آخِرِ آلِ عِمْرَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ لِتَهَجُّدِهِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ^(٢).

قال العلماء: «يُسْتَحَبُّ لِلْمُسْتَقِظِ مِنْ نَوْمِهِ أَنْ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَاتِ؛ اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّهُ يَتَدَيَّ بِعَظَمَةِ رَبِّهِ، ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وَمَا نَدَّبَ إِلَيْهِ مِنَ الْعِبَادَةِ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]، ﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وَمَا وَعَدَ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الثَّوَابِ: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وَتَوَعَّدَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ مِنَ الْعِقَابِ: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٩٠).

(٢) رواه البخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣).

مَتَعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَتَسَّ الْمَهَادُ ﴿[آل عمران: ١٩٦-١٩٧]، وهذه الآيات جامعة لكثيرٍ مِنْ ذَلِكَ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أي: في إيجادهما، وإنشائهما، على هذه الصفات، مِنْ الإبداع، والإحكام.

فالسَّمَاوَاتُ: في ارتفاعها، واتساعها، وما فيها مِنَ الشَّمْسِ، والقَمَرِ، والنُّجُومِ، والكواكبِ السَّيَّارَةِ، والثَّابِتَةِ، والزَّيْنَةِ.

والأَرْضُ: في انخفاضها، وبسطها، وتذليلها، وما فيها مِنَ الْبِحَارِ، والجِبَالِ، والْقِفَارِ، والنَّبَاتِ، والأشجارِ، والثَّمَرِ، وأنواعِ الْمَعَادِنِ، والحيوانِ، وغيرِ ذَلِكَ.

﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أي: تعاقبهما، وتفاوتهما، في الظُّلْمَةِ، والنُّورِ، والطُّولِ، والقَصْرِ، واختلافهما حَرًّا، وَبَرْدًا، وَرِخَاءً، وَشِدَّةً، وَعِزًّا، وَذُلًّا، وَهَزِيمَةً، وَنَصْرًا، وَسَعَةً، وَضِيقًا، وَصِحَّةً، وَمَرَضًا.

﴿لَا يَأْتِي﴾ [آل عمران: ١٩٠] واضِحَّةً، وَبَرَاهِينَ قاطِعةً ساطِعةً، على قُدْرَتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أي: لأصحابِ الْعُقُولِ الصَّافِيَةِ النَّقِيَّةِ.

«وخصَّ اللهُ بِالآيَاتِ أُولَى الْأَلْبَابِ، وَهُمْ أَهْلُ الْعُقُولِ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُتَنَفِّعُونَ بِهَا، النَّاظِرُونَ إِلَيْهَا بِعُقُولِهِمْ لَا بِأَبْصَارِهِمْ»^(٢).

ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ أُولَى الْأَلْبَابِ يَعْبُدُونَهُ فِكْرًا، وَذِكْرًا، قِيَامًا، وَقُعُودًا، وَعَلَى سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ؛ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] قَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذِهِ حَالَتُكَ كُلُّهَا يَا ابْنَ آدَمَ، اذْكُرِ اللَّهَ وَأَنْتَ قَائِمٌ، فَإِنْ لَمْ

(١) التوضيح شرح الجامع الصحيح لابن الملقن (٢٢/١٨٧)، بتصرف.

(٢) تفسير السعدي (ص ١٦١).

تَسْتَطِيعُ، فَادْكُرْهُ وَأَنْتَ قَاعِدٌ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعْ، فَادْكُرْهُ وَأَنْتَ عَلَى جَنْبِكَ، يُسِّرُ مِنَ اللَّهِ، وَتُخَفِيفُ»^(١).

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] استِدْلَالًا، واعتبارًا، في صُنْعِهَا، وإِتْقَانِهَا، وما أَبْدَعَ اللَّهُ فِيهَا، فيَقْوِذُهُمْ هَذَا إِلَى تَعْظِيمِ خَالِقِهَا، وَلِيُدْهِمَ عَلَى كِمَالِ قُدْرَتِهِ، فَيُعْظِمُوهُ، وَيُخْشَوْهُ.

وَمِنَ اللَّطَائِفِ: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ دَلَائِلَ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالْحِكْمَةِ، وَهُوَ مَا يَتَّصِلُ بِتَقْرِيرِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ ذَكَرَ بَعْدَهَا مَا يَتَّصِلُ بِالْعُبُودِيَّةِ.

وَأَصْنَافُ الْعُبُودِيَّةِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٍ: التَّصَدِيقُ بِالْقَلْبِ، وَالْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالْعَمَلُ بِالْجَوَارِحِ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٩١] إِشَارَةٌ إِلَى عُبُودِيَّةِ اللِّسَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] إِشَارَةٌ إِلَى عُبُودِيَّةِ الْجَوَارِحِ، وَالْأَعْضَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] إِشَارَةٌ إِلَى عُبُودِيَّةِ الْقَلْبِ، وَالْفِكْرِ، وَالرُّوحِ.

وَالْإِنْسَانُ لَيْسَ إِلَّا هَذَا الْمَجْمُوعُ، فَإِذَا كَانَ اللِّسَانُ مُسْتَغْرِقًا فِي الذِّكْرِ، وَالْأَرْكَانُ فِي الشُّكْرِ، وَالْجَنَانُ فِي الْفِكْرِ؛ كَانَ هَذَا الْعَبْدُ مُسْتَغْرِقًا بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ فِي الْعُبُودِيَّةِ.

فَالآيَةُ الْأُولَى دَالَّةٌ عَلَى كِمَالِ الرُّبُوبِيَّةِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] وَهَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى كِمَالِ الْعُبُودِيَّةِ»^(٢).

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨٤٢).

(٢) تفسير الرازي (٩/ ٤٥٩).

ويقول هؤلاء المؤمنون المتفكرون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا﴾ [آل عمران: ١٩١] الذي نشأه في السماء، والأرض ﴿بَطَلًا﴾ أي: عبثًا ضائعًا بلا حكمة؛ بل خلقته لأمرٍ عظيم جليل، وخلقته بالحق؛ لتجزّي الذين أساءوا بما عملوا، وتجزّي من عمل صالحًا بالحسنَى.

﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي: نُزِّهْكَ عَنْ هَذَا الْعَبَثِ، وَالْبَاطِلِ، وَأَنْ تَخْلُقَ شَيْئًا بَاطِلًا، وَنُزِّهْكَ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ، وَنَقْصٍ.

وتسبيح هؤلاء المتفكرين فيه طلبُ التوفيق للعمل الصالح، والهداية إليه؛ ليهديهم في النهاية إلى جنّات النعيم، ويقيهم عذاب الجحيم؛ ولذا قالوا: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] أي: حتّى يكونَ ما وفّقنا إليه واقياً، وحامياً، ودافعاً عنّا عذاب النار.

«وَيَتَضَمَّنُ ذَلِكَ سُؤَالَ الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا وَقَاهُمُ اللَّهُ عَذَابَ النَّارِ، حَصَلَتْ لَهُمُ الْجَنَّةُ، وَلَكِنْ لَمَّا قَامَ الْخَوْفُ بقلوبهم؛ دَعَوْا اللَّهَ بِأَهْمِّ الْأُمُورِ عِنْدَهُمْ»^(١).



(١) تفسير السعدي (ص ١٦١).



الحديث العشرون



عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحَدِيثِيَّةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ ^(١) كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ؛ فَقَالَ:

«هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟»،

قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،

قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي، وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: فُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ، وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، وَكَافِرٌ بِالْكُوكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بَنُوهُ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، وَمُؤْمِنٌ بِالْكُوكَبِ» ^(٢).

كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَثْمِرُ الْأَحْدَاثَ، وَالْمَوَاقِفَ، فِي تَرْبِيَةِ أَصْحَابِهِ عَلَى الْإِيمَانِ، وَالْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، أَوْ تَصْحِيحِ خَطَأِ عَقْدِيٍّ، أَوْ التَّذْكِيرِ بِالْآخِرَةِ، وَالتَّزْهِيدِ فِي الدُّنْيَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

(١) مطر.

(٢) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

فاسْتَمَرَ رسولُ الله ﷺ هذا الحَدَثَ العامَّ، وهو سُقُوطُ المَطَرِ، في تربية، وترسيخِ الجانبِ العقديِّ لدى أصحابِهِ، ونَبَّهَهُمْ وَذَكَرَهُمْ بِأَنَّ المَطَرَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ تعالى وَحْدَهُ، وَخَلَقَهُ، وَتَقَدَّرَ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي هَذَا الكَوْنِ، الرَّازِقُ، المُدَبِّرُ، المَلِكُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا شَرِيكَ لَهُ.

فَمَنْ قال: «مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ، وَرَحْمَتِهِ»؛ فهو مؤْمِنٌ بِاللَّهِ، وكافرٌ بالكُوكِبِ، لا يَعْتَقِدُ لَهُ تَأْثِيرًا.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠] يعني: بِإِنزالِ المَطَرِ، وإنباتِ النَّباتِ.

وَمَنْ قال: «مُطَرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا»، **أي:** بسقوطٍ أو طُلُوعِ نَجْمٍ كَذَا وَكَذَا، أو غِيَابِهِ، فلا يَخْلُو مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْوالٍ:

١- إِمَّا أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ لِلْكَوكِبِ تَصَرُّفًا فِي نُزُولِ المَطَرِ، وَأَنَّ الكُوكِبَ فاعِلٌ، مُدَبِّرٌ، مُنْشِئٌ لِلْمَطَرِ، والسَّحابِ، كما كانَ اعتقادُ بعضِ أَهلِ الجاهليَّةِ؛ فهذا لا شَكَّ فِي كُفْرِهِ، وَأَنَّهُ أَشْرَكَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، فهذا شِرْكٌ أَكْبَرُ.

٢- وإِمَّا أَنْ يَقُولَ هَذَا، مُعْتَقِدًا أَنَّ المَطَرَ مِنَ اللَّهِ تعالى، وَبِرَحْمَتِهِ، وَأَنَّ سُقُوطَ النَّجْمِ لَهُ وَقْتُ، وَعلامَةٌ، اعتبارًا بالعَادَةِ، فكأنَّه قال: «مُطَرْنَا فِي وَقْتِ كَذَا»؛ فهذا لا يَكْفُرُ، لَكِنَّ هَذَا القَوْلَ حَرَامٌ، وَقِيلَ: مَكْرُوهٌ؛ لَنَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ؛ وَلأنَّ مِنْ شِعَارِ الجاهليَّةِ، وَسَدًّا لِلذَّرِيعَةِ.

٣- وَإِنْ قالَ هَذَا مُعْتَقِدًا أَنَّ المَطَرَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ خالِقُهُ، لَكِنَّ النَّوْءَ هُوَ السَّبَبُ؛ فهذا مِنَ الشَّرِكِ الْأَصْغَرِ؛ لأنَّه جَعَلَ ما لَيْسَ سَبَبًا سَبَبًا.

والقاعدةُ أن: «كُلُّ مَنْ اعتقدَ سببًا لم يدلُّ عليه شرعٌ، ولا قدرٌ؛ فهو شركٌ أصغرٌ، وإن اعتقدَه الفاعل بذاته فهو شركٌ أكبرٌ».

فمثلاً: مَنْ لَيْسَ حَلَقَةً، أَوْ خَيْطًا، وَنَحْوَهُمَا؛ لَرَفْعِ الْبَلَاءِ، أَوْ دَفْعِهِ، فَهَذَا مِنَ الشَّرِكِ، وَقَدْ يَكُونُ شِرْكًَا أَكْبَرَ، أَوْ أَصْغَرَ، حَسَبَ قَصْدِ صَاحِبِهِ: فَإِنْ اعتقدَ لَابِسُهَا أَنَّهَا مؤثِّرةٌ بِنَفْسِهَا دُونَ اللَّهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ شِرْكًَا أَكْبَرَ فِي تَوْحِيدِ الرَّبُّوبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ اعتقدَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ خَالِقًا غَيْرَهُ.

وإن اعتقدَ أَنَّهَا سَبَبٌ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مؤثِّرًا بِنَفْسِهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ شِرْكًَا أَصْغَرَ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا اعتقدَ أَنَّ مَا لَيْسَ بِسَبَبٍ سَبَبًا، فَقَدْ شَارَكَ اللَّهَ تَعَالَى فِي الْحُكْمِ لِهَذَا الشَّيْءِ بِأَنَّهُ سَبَبٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلْهُ سَبَبًا.

فِنِسْبَةِ الْمَطَرِ إِلَى النَّوْءِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

١ - نِسْبَةُ إِيجَادٍ: فَهَذَا شِرْكٌ أَكْبَرٌ.

٢ - نِسْبَةُ سَبَبٍ: فَهَذَا شِرْكٌ أَصْغَرٌ.

٣ - نِسْبَةُ وَقْتٍ: فَهَذَا جَائِزٌ، وَلَكِنْ يَقُولُ: مُطَرْنَا فِي نَوْءٍ كَذَا، وَلَا يَقُولُ: بَنَوْءٍ كَذَا^(١).

٤ - وَقَالَ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«قال العلماء: يَحْرُمُ أَنْ يَقُولَ: مُطَرْنَا بَنَوْءٍ كَذَا، وَيَجُوزُ: مُطَرْنَا فِي نَوْءٍ كَذَا، وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمَا: أَنَّ «الْبَاءَ» لِلْسَّبَبِيَّةِ، وَ«فِي» لِلظَّرْفِيَّةِ»^(٢).

(١) الاستذكار (٢/ ٤٣٦)، التمهيد (١٦/ ٢٨٥)، شرح النووي على مسلم (٢/ ٦١)، فتح الباري لابن

رجب (٩/ ٢٥٨)، فتح الباري لابن حجر (٢/ ٥٢٣)، القول المفيد (١/ ١٦٤، ٢/ ٢٨).

(٢) القول المفيد (٢/ ٣١).

وقد جاء في حديث آخر النهي عن هذا القول، والاعتقاد؛ فعن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا عدوى، ولا هامة^(١)، ولا نوء^(٢)، ولا صفر^(٣)»^(٤).

وقريب من هذا: قول بعض الناس إذا أصابه شيء سيء: «هذا من سوء الطالع»، وإذا حصل له أمر سار قال: «هذا من حسن الطالع»!

و«الطالع» هو: النجم الطالع في السماء.

وقد جاء في فتاوى اللجنة الدائمة: «يحرم استعمال عبارتي: «من حسن الطالع»، و«من سوء الطالع»؛ لأنَّ فيها نسبة التأثير في الحوادث الكونية -حسناً، أو سوءاً- إلى المطالع، وهي لا تملك من ذلك شيئاً، وليست سبباً في سعادة، أو نحس، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فإن كان القائل يعتقد أنَّ هذه المطالع فاعلة بنفسها من دون الله تعالى؛ فهو شرك أكبر، وإن كان يعتقد أنَّ الأمور كلها بيد الله وحده، ولكن تلفظ بذلك فقط؛ فهو من شرك الألفاظ الذي يُنافي كمال التوحيد الواجب»^(٥).

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «هذا من التنجيم الذي هو نوع من الشرك؛ وذلك لأنَّ الطالع، والغارب، ليس له تأثير في الحوادث الأرضية، بل الأمر بيد الله، سواء وُلِدَ الإنسان في هذا الطالع، أو في هذا الغارب، أو في أي وقت»^(٦).

(١) طائر يطير بالليل، كانوا يتشاءمون به. وقيل: كانوا في الجاهلية يعتقدون أن الميت إذا مات صارت روحه أو عظامه هامة يعني: طائراً يطير.

(٢) يعني: لا نوء يُنزل المطر أو يتصرف ويؤثر فيه، فلا تقولوا: مُطَرْنَا بنوء كذا.

(٣) لا تتشاءموا بشهر صفر، ولا ليلاليه.

(٤) رواه مسلم (٢٢٢٠).

(٥) فتاوى اللجنة (٢٦/٣٦٨)، بتصرف يسير.

(٦) لقاء الباب المفتوح (١٢/٦٤)، بترقيم الشاملة.

والتنجيمُ مُحَرَّمٌ؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ؛ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ»^(١).

والتنجيمُ هو: الاستدلالُ بالأحوالِ الفلكيةِ على الحوادثِ الأرضيةِ التي لم تقعْ، وهذا يُسمَّى «علمُ التأثير»، فالأحوالُ الفلكيةُ لا علاقةَ بينها وبينَ الحوادثِ الأرضيةِ.

قال قتادة: «خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لثَلَاثٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُتَدَبَّرُ بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا بغيرِ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيحَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ»^(٢).

فإن اعتقد أن النجوم، والأجرام السماوية، هي المُدَبِّرَةُ الفاعلةُ المُختارةُ لذاتها، فهذا كفرٌ بإجماعِ المسلمين، وإن اعتقد بأن الخالقَ المُدَبِّرَ هو الله تعالى، ولكنه جعلَ مسيرَ الكواكبِ دلائلَ على الحوادثِ قبلَ حدوثها، أو أنها أسبابٌ لها؛ فهذا قد اختلفَ في تكفيره على قولين^(٣).

أما الاستدلالُ بالنجومِ على الجهاتِ، والأوقاتِ؛ فهذا جائزٌ، ويُسمَّى «علمُ التيسير».

وقد يكون واجباً إذا لم يُعرف أوقاتُ الصلاةِ إلا به؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكُمُ وَيَا نَجْمٍ هُمْ يَسْتَدُونُ﴾ [النحل: ١٦].

فالاستدلالُ بالنجومِ على الأزمانِ لا بأسَ به، مثل أن يُقال: إذا طلعَ النجمُ الفلاني دخلَ وقتُ السَّيلِ، ودخلَ وقتُ الرِّبيعِ.

(١) رواه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦)، وصحَّحه النووي والعراقي، والألباني في صحيح الجامع (٦٠٧٤).

(٢) رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (١٠٧/٤)، ووصله الطبري في تفسيره (١٧/١٨٥)، بسند صحيح.

(٣) تيسير العزيز الحميد (ص ٣٧٨).

وكذلك الاستدلال بها على الأماكن، كالقبلة، والشمال، والجنوب^(١).

أما معرفة أحوال الطقس، والبحث عنها، وأوقات الكسوف، والخسوف، ونزول الأمطار، وتوقع ذلك: فلا تدخل في التنجيم، أو ادعاء علم الغيب؛ لأنها تُبنى على أمور حسية، وتجارب، ونظر في سُنَنِ الله الكونية، وليس فيها اعتقاد أن للنجوم تأثيراً في الأحوال الأرضية^(٢).

فالمقصود من الحديث: أنه لا يتم توحيد العبد، وكمال إيمانه، حتى يعترف بتفرد الله تعالى بالنعم الظاهرة والباطنة عليه، وعلى جميع الخلق، ويضيفها إلى الله تعالى قولاً، واعترافاً، ويعترف بتفرده بدفع النقم، ويستعين بنعم الله تعالى على ذكره وشكره، وحسن عبادته^(٣).



(١) تيسير العزيز الحميد (ص ٣٧٨)، والقول المفيد (١/ ٥٢٠).

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة (١/ ٦٣٥)، <https://islamqa.info/ar/83837>.

(٣) القول السديد للسعدي (ص ١١٠).

الحديث الحادي والعشرون

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُؤْذِنُنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُوبُ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أَقْلِبُ اللَّيْلَ، وَالنَّهَارَ»^(١).

وفي رواية: «لَا تَقُولُوا: خَيِّبَةُ الدَّهْرِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»^(٢).

وفي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُؤْذِنُنِي ابْنُ آدَمَ، يَقُولُ: يَا خَيِّبَةَ الدَّهْرِ، فَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: يَا خَيِّبَةَ الدَّهْرِ؛ فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ، أَقْلِبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا».

رَأْسُ الْأَدَبِ: الْأَدَبُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَعْظِيمُهُ، وَتَوْقِيرُهُ، وَمِنْ التَّأَدُّبِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى: التَّأَدُّبُ مَعَهُ فِي الْأَلْفَاظِ، وَهَذَا مَا أَرْشَدَ لَهُ هَذَا الْحَدِيثُ الْقُدْسِيُّ، بَعْدَ سَبِّ الدَّهْرِ، بَأَنَّهُ يَقُولُ -مَثَلًا-: يَا خَيِّبَةَ الدَّهْرِ، وَمِثْلُهُ:

يَا لَعْدَرِ الزَّمَانِ، أَنْتَ وَالزَّمَنُ عَلَيَّ، جَارَ عَلَيْهِ الزَّمَنُ، عَضَّنَا الدَّهْرُ بِنَابِهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

(١) رواه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) رواه البخاري (٦١٨٢)، ومسلم (٢٢٤٦).

وكان من عادة أهل الجاهلية إذا أصابهم شدة من الزمان، أو مكروه من الأمر؛ أضافوه إلى الدهر، وسبوه، فقالوا: يا خيبة الدهر، بؤساً للدهر، وتباً للدهر، ونحو ذلك من القول، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر، ويسبونه.

وإنما فاعلها هو الله تعالى، فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل؛ فلهذا نهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال.

فسب الدهر فيه أذية لله تعالى، وسوء أدب معه سبحانه وتعالى؛ لأن الله تعالى هو الذي يقدّر الأمور، والدهر هو الزمان، ولا فعل له، بل هو مخلوق من مخلوقات الله^(١).

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «في هذا ثلاث مفاسد عظيمة:

• **إحداها:** سب من ليس بأهل أن يسب؛ فإن الدهر خلق مسخر من خلق الله، مُنقاد لأمره، مُذلل لتسخيره، فسأبه أولى بالذم منه.

• **الثانية:** أن سبه متضمن للشر؛ فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر، وينفع، وأنه ظالم قد ضر من لا يستحق الضرر، وأعطى من لا يستحق العطاء، ورفع من لا يستحق الرفعة، وحرّم من لا يستحق الحرمان، ويعدّ بعضهم الدهر من أظلم الظلمة! ولهم في ذلك أشعار كثيرة جداً، وكثير من الجهال يصرّح بلعنه، وتقييده!

• **الثالثة:** أن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال، وهو الله سبحانه وتعالى، التي لو اتبع الحق فيها أهواءهم؛ لفسدت السموات، والأرض، وإذا وافقت أهواءهم، حمّدوا الدهر، وأثنوا عليه!

(١) أعلام الحديث للخطابي (٣/ ١٩٠٤)، معالم السنن (٤/ ١٥٨)، الاستذكار لابن عبد البر (٨/ ٥٥١)، شرح السنّة للبعوي (١٢/ ٣٥٧)، شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ١٥)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢/ ٤٩٣)، تفسير ابن كثير (٦/ ٤٨٠، ٧/ ٢٧٩).

وفي حقيقة الأمر، فَرَبُّ الدَّهْرِ تعالى هو الْمُعْطِي، المَانِعُ، الخَافِضُ، الرَّافِعُ، الْمُعِزُّ، المُذِلُّ، والدَّهْرُ ليس له مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، فَمسَبَّتُهُم للدَّهْرِ مَسَبَّةٌ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ؛ ولهذا كانت مُؤْذِيَةً لِلرَّبِّ تعالى، كما في هذا الحديث.

فسأبَّ الدَّهْرَ دائِرَينِ أَمْرَيْنِ، لا بُدَّ له مِنْ أَحَدِهِمَا: إمَّا سَبَّهَ اللَّهَ، أو السَّرَكَ بِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا اعتقد أَنَّ الدَّهْرَ فاعِلٌ مع الله فَهُوَ مُسْرِكٌ، وَإِنْ اعتقد أَنَّ اللهَ وحده هو الذي فَعَلَ ذلك، وَهُوَ يَسُبُّ مَنْ فَعَلَهُ؛ فَقَدْ سَبَّ اللَّهَ^(١).

وقولُ الله تعالى: «يؤذيني ابن آدم»:

أي: يُلْحِقُ بِي الْأَذَى، وَهُوَ خَبَرٌ يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ، وَالزَّجَرَ.

فالأَذْيَةُ لله ثابتةٌ، وَكَيْفِيَّتُهَا لا نَعْلَمُهَا، وَاللهُ تعالى يَتَأَذَى مِنْ فِعْلِ بَنِي آدَمَ، لَكِنَّهُ لا يُضَرُّهُ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ.

وَيَجِبُ عَلَيْنَا إِبْطَاتُهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تعالى أَثْبَتَهَا لِنَفْسِهِ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ كَأَذْيَةِ الْمَخْلُوقِ، وَلا يُلْزَمُ مِنَ الْأَذْيَةِ الضَّرَرُ، وَاللهُ تعالى لا يَبْلُغُ الْمَخْلُوقُ ضَرَرَهُ، أو نَفْعَهُ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَن تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَن تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»^{(٢)(٣)}.

وقوله تعالى: «وَأَنَا الدَّهْرُ»:

أي: مُدَبِّرُ الدَّهْرِ، وَمُضَرِّفُهُ، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٢٣)، باختصار وتصرف.

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) القول المفيد (٢/ ٢٤١، ٢٤٤)، شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٢/ ٣٥١).

[آل عمران: ١٤٠]، ففي الكلام حَذَفُ تقديره: «وأنا مقلَّبُ الدَّهْرِ»، كما يدلُّ عليه السَّيَاقُ، والقريْنَةُ؛ ولِذَا فسَّرَه بعده بقوله: «بِيدِي الأَمْرِ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ، والنَّهَارَ»، واللَّيْلُ والنَّهَارُ هُمَا الدَّهْرُ.

فليس «الدَّهْرُ» مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تعالى كما ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ حَزْمٍ، وغيره، ولا يُقَالُ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ نَفْسُهُ! وَمَنْ قال ذلك؛ فَقَدْ جَعَلَ الخَالِقَ مَخْلُوقًا، والمُقْلَبَ مُقْلَبًا^(١).

وَسَبُّ الدَّهْرِ قِسْمَانِ:

• **الأوَّلُ:** أَنْ يَسُبَّ الدَّهْرَ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الفَاعِلُ: كَأَنْ يَعْتَقِدَ بِسَبِّهِ الدَّهْرَ أَنَّ الدَّهْرَ هُوَ الَّذِي يُقْلِبُ الأُمُورَ إِلَى الخَيْرِ، وَالشَّرِّ، فهذا شِرْكٌ أَكْبَرُ؛ لِأَنَّهُ اعْتَقَدَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ خَالِقًا، وَنَسَبَ الحَوَادِثَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ تعالى، وهذا كُفْرٌ.

• **الثاني:** أَنْ يَسُبَّ الدَّهْرَ لَا لِعِتْقَادِهِ أَنَّهُ هُوَ الفَاعِلُ، بَلْ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الفَاعِلُ، لَكِنْ يُسَبُّ لَأَنَّهُ مَحَلٌّ لِهَذَا الأَمْرِ المَكْرُوهِ عِنْدَهُ، فهذا مُحَرَّمٌ، وَهُوَ فِي حَقِيقَتِهِ سَبُّ اللَّهِ تعالى، كما دَلَّ عَلَيْهِ الحَدِيثُ، لَكِنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَى درَجَةِ الشِّرْكِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ، وَيَتَقَصَّدْ، سَبَّ اللَّهِ تعالى.

وهو مِنَ السَّفَهَةِ فِي العَقْلِ، وَالضَّلَالِ فِي الدِّينِ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ سَبِّهِ تَعُودُ إِلَى اللَّهِ سُجَّانَةً وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ اللَّهَ تعالى هُوَ الَّذِي يُصَرِّفُ الدَّهْرَ.

أَمَّا قَوْلُ البَعْضِ: تَعَبْنَا مِنْ شِدَّةِ حَرِّ هَذَا اليَوْمِ، أَوْ بَرْدِهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ: فهذا لَيْسَ مِنْ سَبِّ الدَّهْرِ، وهذا كما قال لوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]^(٢).



(١) القول المفيد (٢/ ٢٤٥)، شرح كتاب التوحيد للغنيان (٢/ ٣٥١).

(٢) انظر: القول المفيد (٢/ ٢٤٠).

الحديث الثاني والعشرون

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ، حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: «أَتَذَرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنُ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنُ فَلَا يُؤْذَنُ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَحْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]»^(١).

وفي رواية لمسلم: «إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُ سَاجِدَةً، فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ فَتُضْبِعُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا.

ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُ سَاجِدَةً، وَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ فَتُضْبِعُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا.

ثُمَّ تَجْرِي لَا يَسْتَنْكِزُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَيُقَالُ لَهَا: ارْتَفِعِي، أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكَ، فَتُضْبِعُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا».

(١) رواه البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَذَرُونَ مَتَى ذَاكُمْ؟ ذَاكَ حِينَ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَنِهَا حَرًّا﴾ [الأنعام: ١٥٨]»^(١).

فَالْكُونُ كُلُّهُ خَاضِعٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَلِعَظَمَتِهِ، شَاهِدٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَرَبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَاسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

فَهَذِهِ الشَّمْسُ بِحَجْمِهَا الْهَائِلِ، وَحَرَارَتِهَا الْمُحْرِقَةِ، تَخَضَعُ لِرَبِّهَا ذَلِيلَةً مُنْقَادَةً، وَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ كُلِّ لَيْلَةٍ، وَلَا تَطْلُعُ مِنَ الْمَشْرِقِ حَتَّى تَسْتَأْذِنَ رَبَّهَا، وَهِيَ فِي حَالِ سُجُودِهَا، فَيَأْذَنُ لَهَا: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

وَمُسْتَقَرُّهَا الْمَكَانِيُّ تَحْتَ الْعَرْشِ، مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ فِي ذَلِكَ الْجَانِبِ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يس: ٣٨] قَالَ: «مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ»^(٢).

وَهِيَ أَيْنَمَا كَانَتْ فَهِيَ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَجَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْعَرْشَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهُوَ قُبَّةُ ذَاتُ قَوَائِمَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَهُوَ فَوْقَ الْعَالَمِ مِمَّا يَلِي رُؤُوسَ النَّاسِ.

فَالشَّمْسُ إِذَا كَانَتْ فِي قُبَّةِ الْفَلَكَ^(٣) وَفَتَ الظَّهِيرَةِ، تَكُونُ أَقْرَبَ مَا تَكُونُ مِنَ الْعَرْشِ، فَإِذَا اسْتَدَارَتْ فِي فَلَكَهَا الرَّابِعِ إِلَى مُقَابَلَةِ هَذَا الْمَقَامِ، وَهُوَ وَقْتُ نِصْفِ اللَّيْلِ؛ صَارَتْ أَبْعَدَ مَا تَكُونُ مِنَ الْعَرْشِ، فحِينَئِذٍ تَسْجُدُ وَتَسْتَأْذِنُ فِي الطُّلُوعِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الْحَدِيثُ^(٤).

(١) رواه مسلم (١٥٩).

(٢) رواه البخاري (٤٨٠٣)، ومسلم (١٥٩).

(٣) الْفَلَكَ: مدارُ النجوم والكواكب.

(٤) تفسير ابن كثير (٥٧٦/٦).

وقيل: معنى ﴿تَجْرِي لِمْسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يس: ٣٨] **أي:** إلى مُسْتَقَرٍّ لها، **أي:** إلى انتهاء، أو مُنتهي سَيْرِها عند انقضاء الدُّنيا، وقيام السَّاعة، فيبطل سَيْرُها، وتُسكن حَرَكَتها، وتُكوَّر، وينتهي هذا العالمُ إلى غايته.

وهذا هو مُسْتَقَرُّها الزَّمانِي؛ كما في قوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]، **أي:** يَجْرِيان إلى انقطاعهما بقيام السَّاعة.

وقيل: إنها تسيرُ حَتَّى تنتهيَ إلى أبعدِ مغاربِها، ثم تَرْجِعُ، فذلك مُسْتَقَرُّها؛ لأنها لا تُجاوِزُه.

وقيل: مُسْتَقَرُّها نهايةُ ارتفاعِها في السَّماءِ في الصَّيفِ، ونهايةُ هبوطِها في الشِّتاءِ^(١).
وَمَنْ تَأَمَّلَ قليلاً في عَظَمَةِ الشَّمْسِ، ثُمَّ شاهدَ بَعَيْنِ عَقْلِهِ فيها أثرَ صُنْعِ اللَّهِ، وإِتْقانِهِ، وحِكمَتِهِ؛ انتقلَ مِنْها إلى عَظَمَةِ خالِقِها، فَسُبْحَانَ وَتَعَالَى ما أَعْظَمَ شأنَهُ^(٢).

هذهِ الشَّمْسُ آيَةٌ ساطِعَةٌ، دالَّةٌ على اللَّهِ كُسُطُوعِها.

حَجْمُها مثلُ حَجْمِ الأرضِ مليوناً و ٣٠٠ ألفَ مرَّة.

تَبْعُدُ عن الأرضِ ١٥٦ مليون كيلومتر.

ويَقْطَعُ ضَوْءُ الشَّمْسِ هذهِ المَسافةَ في ٨ دقائق^(٣).

وتَصُلُ درجةُ حرارةِ الشَّمْسِ في أَجْزائها السَّطحيَّةِ إلى نحوِ ٥٦٠٠ درجةً مئويَّةً!

أمَّا في باطنِها، فتزيدُ درجةُ الحرارة عن ١٥ مليون درجة مئويَّة! وهي درجةُ

حرارةٍ كافيةٍ لتَبخِيرِ أيِّ شيءٍ على وجهِ الأرضِ في لحظاتٍ!

(١) تفسير البغوي (١٧/٧)، ابن كثير (٤/٤٣٠، ٦/٥٧٧).

(٢) تفسير الرازي (٣١/١٧٥)، باختصار وتصرف.

(٣) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (٢/٣٩).

سُبْحَانَ اللَّهِ! إِذَا كَانَتْ الشَّمْسُ مُشْتَعَلَةً بِهَذِهِ الطَّاقَةِ الْهَائِلَةِ مَلَائِينَ السِّنِينَ، فَلِمَ إِذَا لَا تَنْفَجِرُ؟ وَلِمَ إِذَا لَا تَنْطَفِئُ؟

فَالَا شَتِيعَالٌ إِمَّا أَنْ يَزِيدَ تَدْرِيجِيًّا، فَيَنْفَجِرَ الْجِسْمُ الْمُشْتَعِلُ، وَإِمَّا أَنْ يَقَلَّ تَدْرِيجِيًّا فَيَنْطَفِئُ، لَكِنَّ الشَّمْسَ لَا تَنْفَجِرُ، وَلَا تَنْطَفِئُ، ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: «لَوْ انْطَفَأَتِ الشَّمْسُ فَجَاءَتْ لَعَرِقَتِ الْأَرْضُ فِي ظِلَامٍ دَامِسٍ، وَهَبَطَتْ دَرَجَةُ الْحَرَارَةِ فِيهَا إِلَى ٢٧٠ دَرَجَةً تَحْتَ الصُّفْرِ، وَلَتَحَوَّلَتِ الْأَرْضُ إِلَى قَبْرِ جَلِيدِيٍّ!»

وَأَنَّ انْعِدَامَ الدَّفْعِ، وَالنُّورِ، كَافِيَانِ لِقَتْلِ كُلِّ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ»^(١).

مَنْ الَّذِي دَبَّرَ الشَّمْسَ، وَالْقَمَرَ، وَالنُّجُومَ، وَسَيَّرَهَا، فَلَا تَنْفَلِتُ، وَلَا تَصْطَدِّمُ؟ مَنْ أَجْرَاهَا بِهَذَا الْحِسَابِ الدَّقِيقِ، فَلَا تَتَقَدَّمُ، وَلَا تَتَأَخَّرُ، وَلَا تَنْحَرِفُ عَنْ مَسَارِهَا؟ ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣٨) ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿[يس: ٣٨-٤٠].

يَقُولُ أَحْمَدُ شَوْقِي: «سَلِ الشَّمْسَ مَنْ رَفَعَهَا نَارًا، وَنَصَبَهَا مَنَازِلًا؟

وَمَنْ عَلَّقَهَا فِي الْجَوِّ سَاعَةً، يَدْبُ عَقْرَبَاهَا فِي الْجَوِّ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؟

وَمَنْ الَّذِي آتَاهَا مِعْرَاجَهَا، وَهَدَاهَا أَذْرَاجَهَا، وَأَحْلَاهَا أَبْرَاجَهَا، وَنَقَلَ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا سِرَاجَهَا؟»^(٢).

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (٢/ ٣٩).

(٢) أسواق الذهب (ص ٤٠).

انْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ الَّتِي
فِيهَا ضِيَاءٌ وَبِهَا
مَنْ ذَا الَّذِي أَوْجَدَهَا
ذَاكَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي
ذُو حِكْمَةٍ بِالْغَةِ
جَذُوتُهَا مُسْتَعِرَةٌ
حَرَارَةٌ مُنْتَشِرَةٌ
فِي الْجَوِّ مِثْلَ الشَّرَرَةِ؟
أَنْعُمُهُ مِنْهُمْ مَرَّةً
وَقُدْرَةُ مُقْتَدِرَةٍ

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠) ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].

وقد استنكر بعض العقلايين المعاصرين هذا الحديث، وقالوا: هذا الحديث يُخالِفُ العقل؛ إذ كيف تسجد الشمس تحت العرش، وتُفارقُ الفلك، وهذا السجود يُعيقُ دورانها في سيرها؟!

والجواب:

• أولاً: أخبر الله تعالى عن سُجودِ الشمس؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ رَأَوْا أَنَّهُ يُسْجَدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

• ثانياً: سُجودُ الشمسِ كُلِّ لَيْلَةٍ لَا يُعيقُ دَوْرانها في سِيرها؛ بل هي تَسْبُحُ في الفلك، وتَسْجُدُ لله تَحْتَ العَرْشِ -وهي في حَالِ سِيرها، كما أخبر الله تعالى، ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سُجُودًا يَخْتَصُّ بِهَا، لَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

والمخلوقات كُلُّها تَحْتَ العَرْشِ، فَكُونُهَا تَسْجُدُ تَحْتَ العَرْشِ لَا يَقْتَضِي مُفَارَقَتَهَا

لفلكِها، أو مُفارقَتها لا نِظَامِها في مَسِيرِها بالنسبة للأرض؛ فهي دائمة الطُّلوع على جُزءٍ من الأرض، والأوقات بالنسبة إلى أهل الأرض، تختلف بمقدار سِيرِها.

ومعلومٌ أنَّ تعاقبَ اللَّيْلِ، والنَّهَارِ، واختلافَهما، يترتَّبُ على مَسِيرِها، فربَّما يقولُ قائلٌ: أين سُجودُها تحتَ العَرْشِ، ومتى يكونُ، وسِيرُها مُستَوِرٌّ، وبُعْدُها عن الأرض لا يَختلِفُ في وقتٍ من الأوقات، كما أنَّ سِيرَها لا يتغيَّرُ، كما هو مُشاهدٌ؟!

والجواب: أنَّها تَسْجُدُ كُلَّ لَيْلَةٍ تحتَ العَرْشِ، كما أخبرَ به الصَّادِقُ المَصْدُوقُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي طالِعةٌ على جانِبٍ من الأرض، مع سِيرِها في فلكِها، وهي دائِماً تحتَ العَرْشِ في اللَّيْلِ، والنَّهَارِ، بَلْ وَكُلُّ شَيْءٍ من المَخْلُوقَاتِ تحتَ العَرْشِ، لكنَّها في وقتٍ من سِيرِها، وفي مَكَانٍ مُعَيَّنٍ، يَصْلُحُ سُجودُها الذي لا يُدْرِكُه الخَلْقُ، وَلَكِنْ عِلْمٌ بِالوَحي، وهو سُجودٌ يُناسِبُها على ظاهرِ النصِّ^(١).

«فليسَ لنا إِلَّا التَّصَدِيقُ، والتَّسْلِيمُ، وليسَ في سُجودِها لربِّها تحتَ العَرْشِ ما يعوقُها عَنِ الدَّأْبِ في سِيرِها، والتَّصَرُّفِ لما سُخِّرَتْ له.

سُبْحَانَ الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدْداً، وتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَأَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»^(٢).

فهؤلاء كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩]، نَسَأَلُ اللهَ تَعَالَى السَّلَامَةَ، والعَافِيَةَ.

وَالشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ مِنَ الْمَغْرِبِ؛ فهِذَا مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

(١) بيان تلبس الجهمية لابن تيمية (٤/ ٥٤)، شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٣٣٥).

(٢) أعلام الحديث للخطابي (٣/ ١٨٩٤)، بتصرف.

«أي: إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يُقبل منه، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك، فإن كان مُصلحاً في عمله فهو بخيرٍ عظيمٍ.

وإن كان مُخلطاً، فأحدث توبةً حينئذٍ؛ لم تُقبل منه توبته، وعليه يُحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسِبَتْ فِي إيمَنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]؛ أي: ولا يُقبل منها كَسْبُ عَمَلٍ صالحٍ، إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك»^(١).

قال العلماء: «الضابط: أن كلَّ برٍّ مُحَدَّثٍ يكون السَّبَبُ في إحداثه رُؤية الآية، ولم يسبق من صاحبه مثله؛ لا ينفع، سواء كان من الأصول، أو الفروع.

وكلُّ برٍّ ليس كذلك؛ ليكون صاحبه كان عاملاً به قبل رؤية الآية؛ ينفع»^(٢).

وأما ما جاء في الحديث: «... ولا تزال التَّوبَةُ مَقْبُولَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ الْمَغْرِبِ، فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ، وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلُ»^(٣).

فقال ابن مفلح رَحِمَهُ اللهُ: «لَيْسَ الْمُرَادُ بِهَذَا الْخَبَرِ تَرْكُ مَا كَانَ يَعْمَلُهُ مِنَ الْفَرَائِضِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ، فَيَجِبُ الْإِثْبَانُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُهُ مِنَ الْفَرَائِضِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَيَنْفَعُهُ مَا يَأْتِي بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ، الَّذِي كَانَ يَأْتِي بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ.

فقوله: «وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلُ» أي: عَمَلًا لَمْ يَكُونُوا يَفْعَلُونَهُ»^(٤).



(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٦).

(٢) لوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/ ١٣٦).

(٣) رواه الإمام أحمد (١٦٧١)، وحسنه الحافظ ابن كثير في التفسير (٣/ ٣٧٥)، وحسن إسناده محققو المسند.

(٤) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ١١٦)، ولوامع الأنوار البهية (٢/ ١٣٦).

الحديث الثالث والعشرون

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ،
وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ، كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلَقَةِ»^(١).

هذا الحديث فيه دلالة واضحة على عظم عرش الرحمن جلَّ وعلا، وأنه أعظم مخلوقات الله تعالى.

و«العرش» في اللغة هو: سرير المَلِك، كما قال تعالى عَنْ سَرِيرِ مَلِكَةٍ سَبَأًا: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وقال عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]^(٢).

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٦١)، وابن حبان في صحيحه (٣٦١)، وأبو الشيخ في العظمة (٥٦٩/٢) وأبو نعيم في الحلية (١٦٦/١)، وجزم ابن القيم بنسبته إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصواعق المرسله (٤٣١/٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٩)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ كُرْسِيَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَسِعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَأَنَّ الْكُرْسِيَّ فِي الْعَرْشِ كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ» مجموع الفتاوى (١٠٦/٥)، وقال الذهبي في العلو: «الخبر منكر»، وتكلم فيه غير واحد.

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (٢٦٣/١)، البداية والنهاية (٢٠/١)، فتح رب البرية بتلخيص الحموية لابن عثيمين (ص ٥٣).

وَعَرْشُ الرَّحْمَنِ جَلَّ وَعَلَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ، مُحِيطٌ بِهَا، وَهُوَ أَعْلَاهَا، وَأَكْبَرُهَا، وَهُوَ مَقْبَبٌ، يَعْنِي: كَالْقُبَّةِ عَلَى الْعَالَمِ، وَمَا تَحْتَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ أَصْغَرُ مِنْ حَلْقَةٍ فِي فَلَاةٍ.

وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْكُرْسِيِّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] **أَي:** شَمِلَ، وَأَحَاطَ، وَالْكُرْسِيُّ أَكْبَرُ مِنَ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضِ، وَ«الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ»، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ^(١).

وَإِذَا كَانَ الْكُرْسِيُّ بِالنِّسْبَةِ لِلْعَرْشِ كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي صَحْرَاءٍ، فَمَاذَا تُسَاوِي السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضَ، بِالنِّسْبَةِ لِلْعَرْشِ؟! أَمْ مَاذَا تُسَاوِي الْأَرْضَ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا بِالنِّسْبَةِ لِلْعَرْشِ؟! بالنسبة للعرش!

وَالْعَرْشُ هُوَ أَثْقَلُ الْمَخْلُوقَاتِ وَزْنًا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَزَوْجِهِ جَوَيْرِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وَزَنْتَ بِهَا قُلْتُ مِنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنْتَهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمَدَادَ كَلِمَاتِهِ» ^(٢).

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْمَقْصُودُ بِالْحَدِيثِ نِهَايَةُ مَا يُمَكِّنُ مِنَ الْوِزْنِ، وَغَايَةُ مَا يُمَكِّنُ مِنَ الْمَعْدُودِ، وَغَايَةُ مَا يُمَكِّنُ مِنَ الْقَوْلِ، وَالْمَحْبُوبِ» ^(٣).

فَقَوْلُهُ: «وَزِنَةَ عَرْشِهِ»: «يُبَيِّنُ أَنَّ زِنَةَ الْعَرْشِ أَثْقَلُ الْأَوْزَانِ» ^(٤).

وَامْتَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِأَنَّهُ صَاحِبُ الْعَرْشِ؛ فَقَالَ: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو

(١) رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٢٤٨)، والحاكم (٢/ ٣١٠)، وصححه الألباني في مختصر العلل (ص ١٠٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٦).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٢٦٧).

(٤) مجموعة الرسائل والمسائل (٤/ ١١٠).

الْعَرْشِ ﴿ غافر: ١٥ ﴾، ﴿ فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٦].

وفي دُعاءِ الْكَرْبِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ، وَرَبُّ الْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»^(١).

وقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الْعَفْوَزُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٤-١٦].

وقوله: ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ [البروج: ١٥] **أي:** صاحبُ الْعَرْشِ الْمُعْظَمِ، العلي على جميع الْخَلَائِقِ، وَخَصَّ اللَّهُ الْعَرْشَ بِالذِّكْرِ؛ لِعَظَمَتِهِ، ولأنَّه أَخَصَّ الْمَخْلُوقَاتِ بِالْقُرْبِ مِنْهُ تَعَالَى^(٢).

وَالْمَجِيدُ: الْعَظِيمُ، الْقَوِيُّ فِي نَوْعِهِ، وَقِيلَ: الْكَرِيمُ، وَقِيلَ: الْعَالِي؛ لِعُلُوِّهِ، وَشَرَفِهِ^(٣).

وفي قوله تَعَالَى: ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ [البروج: ١٥] قراءتان: الرَّفْعُ على أَنَّهُ صِفَةٌ لِلرَّبِّ عَزَّجَلَّ صَاحِبِ الْعَرْشِ، وَالجَرُّ على أَنَّهُ صِفَةٌ لِلْعَرْشِ.

فاسمُ اللَّهِ ﴿ الْمَجِيدُ ﴾ [البروج: ١٥] هو: الْمُتَضَمِّنُ لكَثْرَةِ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَسَعَتِهَا، وعدمِ إحصاءِ الْخَلْقِ لَهَا، وَسَعَةِ أفعَالِهِ، وَكَثْرَةِ خَيْرِهِ، ودَوَامِهِ.

وعلى قراءةِ الْكَسْرِ: فَإِذَا كَانَ عَرْشُهُ مَجِيدًا، فَهُوَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أَحَقُّ بِالْمَجْدِ.

«والله تَعَالَى وَصَفَ عَرْشَهُ بِالْكَرَمِ: ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وَهُوَ نَظِيرُ الْمَجْدِ، وَوصَفَهُ بِالْعَظَمَةِ: ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، فَوَصَفَهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْمَجْدِ مُطَابِقٌ لَوْصِفِهِ بِالْعَظَمَةِ، وَالْكَرَمِ.

(١) رواه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٢) تفسير الطبري (٢٤ / ٢٨٤)، تفسير ابن كثير (٨ / ٣٧٢)، تفسير السعدي (ص ٩١٨).

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية (١٢ / ٨١٨٧)، النكت والعيون (٦ / ٢٤٣)، التحرير والتنوير (٣٠ / ٢٥٠).

بَلْ هُوَ أَحَقُّ الْمَخْلُوقَاتِ أَنْ يوصَفَ بِذَلِكَ؛ لِسَعَةِ، وَحُسْنِهِ، وَبِهَاءِ مَنْظَرِهِ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَعُ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَجْمَلُهُ، وَأَجْمَعُهُ لِمَصِفَاتِ الْحُسْنِ، وَبِهَاءِ الْمَنْظَرِ، وَعُلُوِّ الْقَدْرِ، وَالرُّتْبَةِ، وَالذَّاتِ، وَلَا يَقْدَرُ قَدْرَ عَظَمَتِهِ، وَحُسْنِهِ، وَبِهَاءِ مَنْظَرِهِ، إِلَّا اللَّهُ.

وَمَجْدُهُ مُسْتَفَادٌ مِنْ مَجْدِ خَالِقِهِ، وَمُبْدِعِهِ، وَالسَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَالْأَرْضُونَ السَّبْعِ، فِي الْكُرْسِيِّ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضِ فَلَاةٍ، وَالْكُرْسِيُّ فِيهِ كَتَلُكَ الْحَلَقَةِ فِي الْفَلَاةِ؛ فَكَيْفَ لَا يَكُونُ مَجِيدًا وَهَذَا شَأْنُهُ؟! فَهُوَ عَظِيمٌ، كَرِيمٌ، مَجِيدٌ^(١).

وَالْعَرْشُ أَوَّلُ الْمَخْلُوقَاتِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ.

وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ، اسْتَوَاءً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَكَمَالِهِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

وَلَمَّا سُئِلَ الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ قَالَ: «الْإِسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»^(٢).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْأَدَلَّةُ السَّمْعِيَّةُ الْمُحْكَمَةُ عَلَى عُلُوِّ الرَّبِّ عَلَى خَلْقِهِ، وَاسْتَوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، إِذَا بَسِطَتْ أَفْرَادُهَا كَانَتْ أَلْفَ دَلِيلٍ»^(٣).

وَالْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ حَقِيقَتَانِ، وَتَفْسِيرُهُ بِالْمُلْكِ، أَوِ السُّلْطَانِ، تَحْرِيفٌ، وَتَعْطِيلٌ.



(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (ص ٩٤)، بتصرف واختصار.

(٢) الاعتصام (١/ ٢٢٩).

(٣) إعلام الموقعين (٢/ ٢١٧) بتصرف، والصواعق المرسلة (١/ ٢٩٤).

الحديث الرابع والعشرون

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»^(١).

وفي رواية: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ»^(٢).

هذا الحديثُ يَتَضَمَّنُ سَعَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَثْرَةَ فَضْلِهِ فِي حِلْمِهِ قَبْلَ انْتِقَامِهِ، وَعَفْوِهِ قَبْلَ عُقُوبَتِهِ.

وَذَكَرُ «الْكِتَابِ» تَأْكِيدٌ بِالْبُغْ فِي مَعْنَاهُ؛ لِأَنَّ مَا زَادَ تَأْكِيدُهُ يُثَبِّتُ فِي كِتَابٍ. فَاللَّهُ تَعَالَى كَتَبَ وَأَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ، فِي كِتَابٍ شَرَفٍ عِنْدَهُ، حَتَّى لَمْ يَوَلِّ خَزَنَهُ، مَلَكًا مُقَرَّبًا، وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا، وَلَمْ يَرْضَ فِي مَكَانِ خَزَنِهِ إِلَّا أَنْ جَعَلَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ. وَذَلِكَ أَنَّ غَضَبَهُ جَدًّا لَمْ تَكُنْ لَتَقُومَ لَهُ السَّمَوَاتُ، وَالْأَرْضُ، لَوْلَا أَنَّهُ غَلَبَتْهُ رَحْمَتُهُ، فَدَفَعَ الْعَظِيمَ بِالْعَظِيمِ^(٣).

(١) رواه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) رواه البخاري (٧٥٥٤) - واللفظ له -، ومسلم (٢٧٥١).

(٣) الإفصاح لابن هُبَيْرَةَ (٣٠٧/٦).

فإنَّه تعالى كتبَ في كتابٍ عنده فوقَ العرشِ: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»، أو: «غَلَبَتْ غَضَبِي»، كتبَ ذلكَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ، لَمَّا قَدَّرَ خَلْقَهُمْ وَفَرَّغَ مِنْ تَقْدِيرِ ذَلِكَ.

والمُرَادُ بـ«غَلَبَتْ»، و«سَبَقَتْ»: كَثْرَةُ الرَّحْمَةِ، وَشُمُولُهَا^(١).

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللهُ: «وَصَفُ رَحْمَتِهِ بِأَنَّهَا تَغْلِبُ وَتَسْبِقُ غَضَبَهُ، يُدْلُّ عَلَى فَضْلِ رَحْمَتِهِ عَلَى غَضَبِهِ، مِنْ جِهَةِ سَبْقِهَا، وَغَلَبَتِهَا»^(٢).

فَالرَّحْمَةُ، وَالْغَضَبُ، كِلَاهُمَا مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى، لَكِنَّ الرَّحْمَةَ أَوْسَعُ، وَأَشْمَلُ، وَهَذَا مَعْنَى غَلَبِهَا لِلْغَضَبِ^(٣).

وهذا كما قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]؛ فـ«تَأَمَّلْ كَيْفَ وَقَعَ الْوَصْفُ بِـ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾» [غافر: ٣] بَيْنَ صِفَةِ رَحْمَةٍ قَبْلَهُ، وَصِفَةِ رَحْمَةٍ بَعْدَهُ؛ فَقَبْلَهُ: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] وَبَعْدَهُ: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣] ففِي هَذَا تَصْدِيقُ الْحَدِيثِ، وَشَاهِدٌ لَهُ^(٤).

وَمَعْنَى ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]: ذِي النِّعَمِ، وَالْمَنْ، وَالْخَيْرِ الْكَثِيرِ، الْمُتَفَضِّلِ عَلَى عِبَادِهِ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْمُنَنِ، وَالنِّعَمِ الْكَثِيرَةِ، الَّتِي لَا يُطِيقُونَ الْقِيَامَ بِشُكْرِ وَاحِدَةٍ مِنْهَا^(٥).

فَشِدَّةُ عِقَابِهِ وَقَعَتْ بَيْنَ رَحْمَتَيْنِ، فَسَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ، وَغَلَبَتْهُ؛ وَلِذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ فِي سُجُودِهِ بِرِضَاهُ مِنْ سَخَطِهِ، وَبِمُعَافَاتِهِ مِنْ عِقَابِهِ؛ فَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عِقَابِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٦).

(١) شرح النووي على مسلم (١٧/٦٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/٩١).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/٢٦١).

(٤) بدائع الفوائد لابن القيم (١/١٩٣).

(٥) تفسير ابن كثير (٧/١٢٨).

(٦) رواه مسلم (٤٨٦).

وهذا الكتابُ كُتِبَ فيه الرَّحْمَةُ، ووُضِعَ عندَ اللهِ تعالى فَوْقَ الْعَرْشِ؛ ففيه نَبِيَّةٌ على جَلَالَةٍ قَدَّرَ الْكِتَابَ، وَالْمَكْتُوبَ.

يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «تَأَمَّلْ اخْتِصَاصَ هَذَا الْكِتَابِ بِذِكْرِ الرَّحْمَةِ، وَوَضْعِهِ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ، وَطَائِقَ بَيْنَ ذَلِكَ، وَبَيِّنْ قَوْلَهُ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]؛ يَنْفَتَحُ لَكَ بَابٌ عَظِيمٌ مِنْ مَعْرِفَةِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إِنْ لَمْ يُغْلَقْهُ عَنْكَ التَّعْطِيلُ، وَالتَّجَهُُّمُ^(١)»^(٢).

فَاللهُ عَزَّجَلَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ، وَهُوَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أَنَّهُ أَوْجَبَ الرَّحْمَةَ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ؛ تَفَضُّلاً مِنْهُ، وَإِحْسَانًا، وَامْتِنَانًا عَلَى خَلْقِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَحْجُبَهَا عَنْ عِبَادِهِ: ﴿مَا يَفْتَحُ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

وَرَحْمَةُ اللهِ عَزَّجَلَّ بِعِبَادِهِ نَوَاعَانِ:

- **الأولى: رَحْمَةٌ عَامَّةٌ:** وَهِيَ لْجَمِيعِ الْخَلَائِقِ، بِإِجَادِهِمْ، وَتَرْبِيَتِهِمْ، وَرِزْقِهِمْ، وَإِمْدَادِهِمْ بِالنِّعَمِ، وَالْعَطَايَا، وَتَصْحِيحِ أَعْمَالِهِمْ، وَتَسْخِيرِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ نَبَاتٍ، وَحَيَوَانٍ، وَجَمَادٍ، هُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].
- فهذه تَشْمَلُ الْمُسْلِمَ، وَالْكَافِرَ «لَأَنَّ اللَّهَ قَرَنَ الرَّحْمَةَ هَذِهِ مَعَ الْعِلْمِ؛ فَكُلُّ مَا بَلَغَهُ عِلْمُ اللهِ، وَعِلْمُ اللهِ بِالْغُ كَلَّ شَيْءٍ؛ فَقَدْ بَلَغَتْهُ رَحْمَتُهُ، فَكَمَا يَعْلَمُ الْكَافِرُ، يَرْحَمُ الْكَافِرَ أَيْضًا، لَكِنَّ رَحْمَتَهُ لِلْكَافِرِ رَحْمَةٌ جَسَدِيَّةٌ، بَدَنِيَّةٌ، دُنْيَوِيَّةٌ»^(٣).

(١) يعني: تعطيل صفات الله، وعدم إثباتها على الوجه اللائق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(٢) مدارج السالكين (١/ ٥٧).

(٣) شرح الواسطية لابن عثيمين (١/ ٢٤٩).

• **الثانية: رحمة خاصة:** وهذه الرحمة لا تكون إلا للمؤمنين، فيرحمهم الله تعالى في الدنيا: بتوفيقهم إلى الهداية، ويدافع عنهم، وينصرهم على الكافرين، ويرزقهم الحياة الطيبة، ويبارك لهم فيما أعطاهم، ونحو ذلك من أنواع النعم الإلهية، والعطايا الربانية، ويرحمهم في الآخرة: بالعفو عن سيئاتهم، والرضا عنهم، وإدخالهم الجنة، ونجاتهم من النار، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]^(١).

«وأنظر إلى ما في الوجود من آثار رحمته الخاصة، والعامة:

فبرحمته أرسل إلينا رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنزل علينا كتابه، وعصمنا من الجهالة، وهدانا من الضلالة، وبصرنا من العمى، وأرشدنا من الغي.

وبرحمته عرفنا من أسمائه، وصفاته، وأفعاله، ما عرفنا به أنه ربنا، ومولانا.

وبرحمته علمنا ما لم نكن نعلم، وأرشدنا لمصالح ديننا، ودنيانا.

وبرحمته أطلع الشمس، والقمر، وجعل الليل، والنهار، وبسط الأرض، وجعلها مهادًا، وفراشًا، وقرارًا، وكفأنا، للأحياء والأموات.

وبرحمته أنشأ السحاب، وأمطر المطر، وأطلع الفواكه، والأقوات، والمرعى.

ومن رحمته: سخر لنا الخيل، والإبل، والأنعام، وذللها منقادًا للركوب، والحمل، والأكل، والدر.

وبرحمته وضع الرحمة بين عباده؛ ليتراحموا بها، وكذلك بين سائر أنواع الحيوان^(٢).



(١) والله الأساء الحسنى فادعوه بها، لعبد العزيز الجليل (ص ١٢٧).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٣٦٨).



الحديث الخامس والعشرون



عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ، قَالَ:

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، لَكَ فَلَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاعْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(١).

وفي رواية: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاعْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»^(٢).

(١) رواه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

(٢) رواه البخاري (٧٤٩٩)، ومسلم (٧٦٩).

هذا الذكر والدعاء العظيم، مِنْ أَدْعِيَةِ الْاِسْتِفْتَا حِ، الَّتِي كَانَ يَسْتَفْتَحُ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ اللَّيْلِ إِذَا قَامَ لِلتَّهَجُّدِ^(١).

وَقَدْ جَمَعَ هَذَا الدُّعَاءُ الْعَظِيمُ مَعَانِي: التَّوْحِيدِ، وَالْإِيمَانِ، وَالتَّصَدِيقِ، وَالْإِخْلَاصِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَالْإِنْقِيَادِ، وَالتَّسْلِيمِ، وَالْإِخْبَاتِ، وَالْإِنَابَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّضَرُّعِ، وَالْخُضُوعِ، وَالشَّائِءِ عَلَيْهِ أَعْظَمُ الشَّائِءِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَالْإِقْرَارِ بِوَعْدِ اللَّهِ، وَوَعِيدِهِ، وَبِالْبَعْثِ، وَبِجَنَّتِهِ، وَنَارِهِ.

كَيْفَ لَا؟ وَنَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِرَبِّهِ، وَأَعْظَمُهُمْ لَهُ عِبَادَةً، وَخَشْيَةً، وَقَدْ أَكْمَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَامَ الْعِبُودِيَّةِ وَالْإِحْسَانِ عَلَى وَجْهِهِ.

فَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْبُدُ رَبَّهُ عَزَّجَلَّ كَأَنَّهُ يَرَاهُ؛ إِجْلَالًا، وَمَهَابَةً، وَحَيَاءً، وَمَحَبَّةً، وَخَشْيَةً، وَكَانَ يَأْتِي بِالْعِبَادَاتِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ، وَأَحْسَنِهِ، مَعَ كَمَالِ الْخُضُوعِ، وَالْخُشُوعِ، فِيهَا لَرَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَكَانَ «أَكْمَلَ الْخَلْقِ، وَأَكْرَمَهُمْ عَلَى اللَّهِ، وَهُوَ الْمُقَدَّمُ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ فِي أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ؛ فَهُوَ أَفْضَلُ الْمُحِبِّينَ لِلَّهِ، وَأَفْضَلُ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ، وَأَفْضَلُ الْعَابِدِينَ لَهُ، وَأَفْضَلُ الْعَارِفِينَ بِهِ، وَأَفْضَلُ التَّائِبِينَ إِلَيْهِ»^(٢).

فَلَنَا فِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأُسُوءَةُ الْحَسَنَةُ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوءَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا لَكُمْ فِي أُسُوءَةٍ؟»^(٣).

(١) فعند ابن خزيمة في صحيحه (١١٥٢): «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ لِلتَّهَجُّدِ قَالَ بَعْدَمَا يُكَبِّرُ: ... فَذَكَرَهُ، وَبَوَّبَ لَهُ: «بَابُ ذِكْرِ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا كَانَ يَحْمَدُ هَذَا التَّحْمِيدَ وَيَدْعُو هَذَا الدُّعَاءَ؛ لِإِفْتِتَاحِ صَلَاةِ اللَّيْلِ، بَعْدَ التَّكْبِيرِ، لَا قَبْلَ».

(٢) مجموع الفتاوى (٥٦/١٥).

(٣) رواه مسلم (٦٨١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ»:

«اللَّهُمَّ» يعني: يا الله، والميم المُشَدَّدةُ عَوْضٌ عَنْ حَرْفِ النِّدَاءِ.

«لَكَ الْحَمْدُ»: أصلُ العبارة «الحمدُ لك»، وتقديمُ الخبرِ يدلُّ على التَّخصيصِ.

و«ال» في «الحمد» تُفيدُ الاستِغراقَ، والاستِقصاءَ؛ **أي**: استغراقُ جميعِ المَحمَديِّ؛ **أي**: جميعِ الحمدِ واجبٍ، ومُسْتَحَقٌّ لله تعالى؛ ففي ذلك إثباتُ كُلِّ المَحمَديِّ لله تعالى^(١).

و«الحمدُ»: وَصَفُ المَحمُودِ بالكمالِ، معَ المَحَبَّةِ، والتَّعْظِيمِ، «الكمالُ الذاتيُّ، والوصفيُّ، والفِعْليُّ»: فهو كَامِلٌ في ذاتِهِ، وصفاتِهِ، وأفعاليهِ، ولا بُدَّ مِنْ قَيْدٍ وهو: «المَحَبَّةُ والتَّعْظِيمُ».

قال أهلُ العلمِ: لأنَّ مُجَرَّدَ وَصْفِهِ بالكمالِ بِدُونِ مَحَبَّةٍ، ولا تعظيمٍ، لا يُسَمَّى حمداً؛ وإنَّما يُسَمَّى مَدْحاً؛ ولهذا يَقَعُ مِنْ إنسانٍ لا يُحِبُّ المَمدوحَ، لكنَّهُ يُريدُ أَنْ يَنَالَ مِنْهُ شَيْئاً.

تَجِدُ بَعْضَ الشُّعراءِ يَقِفُ أَمَامَ الأُمراءِ، ثُمَّ يَأْتِي هُمْ بأوصافٍ عَظِيمَةٍ؛ لا مَحَبَّةَ فِيهِمْ، وَلَكِنْ مَحَبَّةً فِي المَالِ الَّذِي يُعْطُونَهُ، أو خَوْفاً مِنْهُمْ.

ولَكِنْ حمداً لربِّنا عَزَّجَلَّ حَمْدَ مَحَبَّةٍ، وتعظيمٍ؛ فَلِذَلِكَ صارَ لا بُدَّ مِنَ القَيْدِ فِي الحَمْدِ أَنَّهُ «وَصَفُ المَحمُودِ بالكمالِ، معَ المَحَبَّةِ، والتَّعْظِيمِ»^(٢).

«فالحمدُ: إخبارٌ عَنْ مَحاسِنِ المَحمُودِ، معَ حُبِّهِ، وإجلالِهِ، وتعظيمِهِ؛ ولهذا كانَ خَبِراً يَتَضَمَّنُ الإنشاءَ، بخِلَافِ المَدْحِ؛ فَإِنَّهُ خَبَرٌ مُجَرَّدٌ»^(٣).

(١) مرقاة المفاتيح (٣/ ٩١٤)، شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ١٦٩).

(٢) تفسير سورة الفاتحة لابن عثيمين (١/ ٩).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٩٣).

فَالْحَمْدُ «ثَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وبِأَفْعَالِهِ الدَّائِرَةِ بَيْنَ الْفَضْلِ، وَالْعَدْلِ، فَلَهُ
الْحَمْدُ الْكَامِلُ بِجَمِيعِ الْوُجُوهِ»^(١).

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْحَمْدِ، وَالشُّكْرِ:

أَنَّ الْحَمْدَ: هُوَ الثَّنَاءُ بِالْقَوْلِ عَلَى الْمَحْمُودِ، بِصِفَاتِهِ اللَّازِمَةِ، وَالْمُتَعَدِّيَةِ، وَيَكُونُ
بِاللِّسَانِ، وَالْقَلْبِ.

فَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى أَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَعَلَى نِعَمِهِ، وَأَيَادِيهِ، وَعَلَى خَلْقِهِ،
وَأَفْعَالِهِ، وَعَلَى أَمْرِهِ، وَحُكْمِهِ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَظَاهِرًا، وَبَاطِنًا.

وَأَمَّا الشُّكْرُ: فَلَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى الصِّفَاتِ الْمُتَعَدِّيَةِ، وَيَكُونُ بِالْقَلْبِ خُضُوعًا،
وَاسْتِكَانَةً، وَبِاللِّسَانِ ثَنَاءً، وَاعْتِرَافًا، وَبِالْجَوَارِحِ طَاعَةً، وَانْقِيَادًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

فَالْحَمْدُ يَكُونُ فِي مُقَابِلِ نِعْمَةٍ، وَيَكُونُ بِدُونِهَا، وَالشُّكْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي مُقَابِلِ
نِعْمَةٍ.

وَالْحَمْدُ وَالشُّكْرُ بَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ:

فَالْحَمْدُ أَعْمُ مِنَ الشُّكْرِ مِنْ حَيْثُ مَا يَقَعَانِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ عَلَى الصِّفَاتِ
الِلَّازِمَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ، تَقُولُ: حَمْدُهُ لِفَرُوسِيَّتِهِ، وَحَمْدُهُ لِكَرَمِهِ.

وَهُوَ أَخْصَصُ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْقَوْلِ وَالْقَلْبِ.

وَالشُّكْرُ أَعْمُ مِنْ حَيْثُ مَا يَقَعَانِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ بِالْقَوْلِ، وَالْفِعْلِ، وَالْقَلْبِ، وَهُوَ
أَخْصَصُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى الصِّفَاتِ الْمُتَعَدِّيَةِ، فَلَا يُقَالُ: شَكَرْنَا اللَّهَ عَلَى حَيَاتِهِ،
وَعِلْمِهِ، وَسَمْعِهِ، وَبَصَرِهِ، لَكِنَّهُ الْمَحْمُودُ عَلَيْهَا، كَمَا هُوَ مَحْمُودٌ عَلَى إِحْسَانِهِ، وَعَدْلِهِ.

(١) تفسير السعدي (ص ٣٩).

وَلَا تَقُولُ: شَكَرْتُ فَلَانًا لِفُرُوسِيَّتِهِ، وَتَقُولُ: شَكَرْتُهُ عَلَى كَرَمِهِ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيَّ^(١).

فَاللَّهُ تَعَالَى مُخْتَصَّ بِالْحَمْدِ الْكَامِلِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»^(٢).

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْتَ نَوْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»:

وهذا كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، يعني: مُنَوَّر السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضِ، فَهُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ أَمْرَهَا، نُجُومَهَا، وَشَمْسَهَا، وَقَمَرَهَا، وَهُوَ الَّذِي يَنْوِّرُهَا.

قِيلَ: نَوَّرَ السَّمَاءَ بِالْمَلَائِكَةِ، وَنَوَّرَ الْأَرْضَ بِالْأَنْبِيَاءِ.

وَقَالَ أَبُو بَنْ كَعْبٍ، وَالْحَسَنُ، وَغَيْرُهُمَا: «مَزَيْنُ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ، زَيْنَ السَّمَاءِ بِالشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ، وَالنُّجُومِ، وَزَيْنَ الْأَرْضِ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَالْعُلَمَاءِ، وَالْمُؤْمِنِينَ».

وَقِيلَ: هَادِي أَهْلِ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ؛ فَبِنُورِهِ اهْتَدَى أَهْلُ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ^(٣).

وَلِذَا رَوَى فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُنْصَرَفٌ مِنَ الطَّائِفِ، أَنَّهُ قَالَ: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ؛ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ تُجِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ»^(٤).

(١) الفروق اللغوية للعسكري (ص ٢٠١)، مدارج السالكين (٢/ ٢٣٧)، تفسير ابن كثير (١/ ١٢٨)، شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ١٦٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٠٣)، وجود إسناده النووي، وصححه البوصيري، وحسنه الألباني.

(٣) تفسير البغوي (٦/ ٤٥)، تفسير القرطبي (١٢/ ٢٥٧)، تفسير ابن كثير (٦/ ٥٧)، فتح الباري (٣/ ٤).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٨١)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٢٩٣٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والْحَقُّ أَنَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضِ، بِهَذِهِ الْإِعْتِبَارَاتِ كُلِّهَا»^(١).

وَالنُّورُ بِهَذِهِ الْمَعَانِي مِنْ أَعْمَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالنُّورُ -أَيْضًا- مِنْ أَوْصَافِهِ، وَمِنْهُ اشْتَقَّ لَهُ اسْمُ «النُّور»^(٢).

فَاللَّهُ تَعَالَى: ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، النُّورُ الْحَسِّيُّ، وَالْمَعْنَوِيُّ؛ فَاللَّهُ تَعَالَى «بِذَاتِهِ نُورٌ، وَحِجَابُهُ نُورٌ، وَبِهِ اسْتَنَارَ الْعَرْشُ، وَالْكُرْسِيُّ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَالنُّورُ، وَبِهِ اسْتَنَارَتِ الْجَنَّةُ.

وَالنُّورُ الْمَعْنَوِيُّ يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ؛ فَكُتِبَتْهُ نُورٌ، وَشَرَعُهُ نُورٌ، وَالْإِيمَانُ وَالْمَعْرِفَةُ فِي قُلُوبِ رُسُلِهِ وَعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ نُورٌ؛ فَلَوْلَا نُورُهُ تَعَالَى؛ لَتَرَاكَمَتِ الظُّلُمَاتُ»^(٣).

وَفِي هَذَا يَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «نُونِيَّةٍ»:

وَالْأَرْضُ، كَيْفَ النُّجُومُ وَالْقَمَرَانِ	نُورُ السَّمَوَاتِ الْعُلَى مِنْ نُورِهِ
وَكَذَا حَكَاهُ الْحَافِظُ الطَّبْرَانِي	مِنْ نُورِ وَجْهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ
سَبْعَ الطَّبَاقِ وَسَائِرِ الْأَكْوَانِ	فَبِهِ اسْتَنَارَ الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ مَعَهُ
نُورٌ، كَذَا الْمَبْعُوثُ بِالْفُرْقَانِ	وَكُتِبَتْهُ نُورٌ، كَذَلِكَ شَرَعُهُ
نُورٌ عَلَى نُورٍ مَعَ الْقُرْآنِ	وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِ الْفَتَى
بَ لَا حَرْقَ السُّبُحَاتِ لِلْأَكْوَانِ	وَحِجَابُهُ نُورٌ، فَلَوْ كَشَفَ الْحِجَابَ
فِي الْأَرْضِ يَوْمَ قِيَامَةِ الْأَبْدَانِ	وَإِذَا أَتَى لِلْفَصْلِ يُشْرِقُ نُورُهُ
نُورٌ تَلَالُأً لَيْسَ ذَا بُطْلَانٍ ^(٤)	وَكَذَاكَ دَارُ الرَّبِّ جَنَّاتُ الْعُلَى

فَاللَّهُمَّ أَفْضُ عَلَيْنَا مِنْ نُورِكَ، وَبِرَكَاتِكَ.

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٤٦).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٤٤).

(٣) تفسير السعدي (ص ٥٦٨)، باختصار.

(٤) تفسير السعدي (ص ٥٦٨)، باختصار.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»:

وفي رواية لمسلم (٧٦٩): «أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، وعند النسائي في الكبرى (٧٦٥٦): «أَنْتَ قَيُّومُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

«قَيِّمٌ»، و«قَيَّامٌ»، و«قَيُّومٌ»: صيغة مُبالغة، والله تعالى يوصف بذلك، ومن أسمائه تعالى: «القَيُّومُ»، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].
و«القَيُّومُ هو كَامِلُ القَيُّومِيَّةِ، وله معنيان:

• **المعنى الأول:** هو الذي قام بنفسه، وعظمت صفاته، واستغنى عن جميع مخلوقاته.

• **المعنى الثاني:** هو الذي قامت به الأرض، والسموات، وما فيهما من المخلوقات، فهو الذي أوجدها، وأمدّها، وأعدّها، لكل ما فيه بقاءها، وصلاحتها، وقيامها، فهو الغني عنها من كل وجه، وهي التي افتقرت إليه من كل وجه^(١).

• قال قتادة: ﴿الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: القائم على خلقه، بأجلهم، وأعمالهم، وأرزاقهم^(٢).

فهذا الاسم ﴿الْقَيُّومُ﴾ «متضمن كمال غناه، وكمال قدرته؛ فإنه القائم بنفسه، لا يحتاج إلى من يقيمه، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه.

وهو المقيم لغيره؛ فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته، وعزته^(٣).

(١) الحق الواضح المبين للسعدي (ص ٨٧).

(٢) الزاهر لابن الأنباري (١/ ٩٠).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٤).

قال ابن القيم في «النونية»:

هذا وَمِنْ أَوْصَافِهِ الْقِيُومُ، وَال
إِحْدَاهُمَا: الْقِيُومُ قَامَ بِنَفْسِهِ
فَالأَوَّلُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنْ غَيْرِهِ
وَالْوَصْفُ بِالْقِيُومِ ذُو شَأْنٍ كَذَا
قِيُومٌ فِي أَوْصَافِهِ أَمْرَانِ
وَالْكُونُ قَامَ بِهِ هُمَا الْأَمْرَانِ
وَالْفَقْرُ مِنْ كُلِّ إِلَيْهِ الثَّانِي
مَوْصُوفُهُ أَيْضًا عَظِيمُ الشَّانِ

فمعنى «وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ»: أَنْتَ الَّذِي أَقَمْتَهُمَا مِنَ الْعَدَمِ، وَالْقَائِمُ عَلَيْهِمَا بِمَا يُصْلِحُهُمَا، وَيُقِيمُهُمَا، فَأَنْتَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ، الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ، الْمُخَيِّمُ الْمُمِيتُ، الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ مَنْ سِوَاكَ فَقِيرٌ إِلَيْكَ، وَمَصِيرُهُ إِلَيْكَ، كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ الَّذِي أَوْجَدْتَهُ، فَلَكَ الْحَمْدُ^(٢).

وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ بِقِيُومِيَّتِهِ؛ دَعَاهُ، وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِقِيُومِيَّتِهِ، وَأُنْزَلَ بِهِ حَاجَاتِهِ، وَاسْتَعَاثَ بِهِ؛ وَلِذَا عَلَّمَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاطِمَةَ ابْنَتَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنْ تَقُولَ كُلَّ صَبَاحٍ، وَمَسَاءٍ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»^(٣).

قال ابن القيم: «انْظَرِ هَذَانِ الْأَسْمَانِ^(٤) صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَالْغِنَى التَّامَّ، وَالْقُدْرَةَ التَّامَّةَ، فَكَأَنَّ الْمُسْتَغِيثَ بِهِمَا مُسْتَغِيثٌ بِكُلِّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَبِكُلِّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ.

فَمَا أَوَّلَى الْأَسْتَغَاثَةَ بِهِذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ أَنْ يَكُونَ فِي مَطْنَةِ تَفْرِيجِ الْكُرْبَاتِ، وَإِغَاثَةِ اللَّهْفَاتِ، وَإِنَالَةِ الطَّلَبَاتِ»^(٥).

(١) نونية ابن القيم (ص ٢١١).

(٢) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ١٦٩).

(٣) رواه الحاكم (٢٠٠٠)، وابن السَّيِّ في عمل اليوم والليلة (٤٦)، وصحَّحه المنذري، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٢٠).

(٤) يعني: الحي القيوم.

(٥) بدائع الفوائد (٢/ ٦٧٩).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ، وَمَنْ فِيهِنَّ»:

وهذا كما قال تعالى في سورة الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

و«الرَّبُّ»: هو الخالق، المالك، المدبّر.

«الرَّبُّ»: هو مَنْ اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير؛ فهو الخالق المالك لكل شيء، المدبّر لجميع الأمور^(١).

و«العالمين»: جمع عالم، وهو كل ما سوى الله تعالى، من الملائكة، والإنس، والجن، والطير، وغيرها.

وقد «وُصفوا بذلك؛ لأنهم عَلمٌ على خالقهم سُبحانه وتعالى؛ ففي كل شيء من المخلوقات آية تدلُّ على الخالق: على قدرته، وحكمته، ورحمته، وعزّته، وغير ذلك من معاني ربوبيّته»^(٢).

وتربية الله تعالى خلقه نوعان: عامّة، وخاصّة.

«فالعامّة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاءهم في الدنيا.

والخاصّة: تربيته لأوليائه، فيربّيهم بالإيمان، ويوفّقهم له، ويكمّلهم هم، ويدفع عنهم الصّوّارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه.

وحقيقتها: تربيته التّوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شرّ.

ولعلّ هذا المعنى هو السّرّ في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ: «الرَّبُّ»؛ فإنّ مطالبهم كلّها داخلة تحت ربوبيّته الخاصّة.

(١) تفسير سورة الفاتحة لابن عثيمين (١/ ١٠).

(٢) تفسير سورة الفاتحة لابن عثيمين (١/ ١٠).

فَدَلَّ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عَلَى انْفِرَادِهِ بِالْخَلْقِ، وَالتَّدْبِيرِ، وَالنَّعَمِ، وَكَمَالِ غِنَاهُ، وَتَمَامِ فَقْرِ الْعَالَمِينَ إِلَيْهِ بِكُلِّ وَجْهِ، وَاعْتِبَارٍ^(١).

فَمَعْنَى قَوْلِهِ: «أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ، وَمَنْ فِيهِنَّ» أَي: أَنْتَ خَالِقُهُمَا، وَمَالِكُهُمَا، وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمَا بِمَشِيَّتِكَ، وَأَنْتَ الْمُدَبِّرُ لَأُمُورِهِمْ؛ فَالْمُلْكُ لَكَ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مَعَكَ اشْتِرَاكٌ، أَوْ تَدْبِيرٌ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ^(٢).

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْتَ الْحَقُّ»:

الْحَقُّ فِي ذَاتِهِ، وَصِفَاتِهِ، فَهُوَ وَاجِبُ الْوُجُودِ، وَجُودُهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، وَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْعَدَمُ أَزَلًا، وَأَبَدًا، وَلَا وُجُودَ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا بِهِ، وَهُوَ كَامِلُ الصِّفَاتِ، وَالنُّعُوتِ.

فَهُوَ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ بِالْجَلَالِ وَالْجَمَالِ وَالْكَمَالِ مَوْصُوفًا، وَلَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ بِالْإِحْسَانِ مَعْرُوفًا.

فَقَوْلُهُ حَقٌّ، وَفِعْلُهُ حَقٌّ، وَلِقَاؤُهُ حَقٌّ، وَرُسُلُهُ حَقٌّ، وَكِتَابُهُ حَقٌّ، وَدِينُهُ حَقٌّ، وَعِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الْحَقُّ، وَكُلُّ شَيْءٍ يُنْسَبُ إِلَيْهِ فَهُوَ حَقٌّ؛ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَمُ﴾ [الكهف: ٢٩]^(٣).

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَوَعْدُكَ الْحَقُّ»:

أَي: مَا وَعَدْتَ بِهِ فِي كِتَابِكَ، وَعَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ؛ وَاقِعٌ لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: ٥٥]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ

(١) تفسير السعدي (ص ٣٩).

(٢) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ١٦٩).

(٣) تفسير أسماء الله الحسنی للسعدي (ص ١٨٤).

الْمِيعَادَ ﴿آل عمران: ٩﴾؛ فالله تعالى يَجْزِي الذينَ أساءوا بها عَمَلُوا، وَيَجْزِي الذينَ أحسنوا بالحُسنى ^(١).

قوله ﷺ: «وَقَوْلُكَ الْحَقُّ»:

أي: صدق، وعدل، ثابت، فلا عبث فيه، ولا كذب، ولا مجازفة، ولا شك في صدقه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ ﴿الأحزاب: ٤﴾ ^(٢)

وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿الأنعام: ١١٥﴾؛ **أي:** صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام؛ فكل ما أخبر به فحق لا مريّة فيه، ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة، كما قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ ﴿الأعراف: ١٥٧﴾.

فقوله سبحانه وتعالى حق، وصدق، وعدل، وهدي، ليس فيه مجازفة، ولا كذب، ولا افتراء ^(٣).

قوله ﷺ: «وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ»:

أي: واقع كائن لا محالة.

ولقاء الله هو: البعث بعد الموت، والمصير إلى الدار الآخرة، ووقوف العباد بين يدي الله عز وجل؛ للمحاسبة بأعمالهم، والجزاء بها ^(٤).

(١) شرح ابن بطال على البخاري (١٠٩/٣).

(٢) شرح ابن بطال (١٠٩/٣)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن (١٩/٩)، مرقاة المفاتيح (٩١٥/٣).

(٣) تفسير ابن كثير (١٩٩/١، ٣٢٢/٣).

(٤) فتح الباري لابن رجب (٢١٠/١)، شرح أبي داود للعيني (٣٨١/٣)، مرقاة المفاتيح (٩١٥/٣).

كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا عَمِلُوا وَكَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال: ﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَفِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

وقد جاء في حديث جبريل عليه السلام، من رواية أبي هريرة ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الإيمان: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ» ^(٢).

ولقاء الله لقاء حقيقي، على ما يليق بالله تعالى، من غير تحريف، ولا تأويل.

و«لقاء الله على نوعين:

لقاء محبوب على وجه الإكرام، ولقاء مكروه على وجه التعذيب؛ كما قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم: كَيْفَ الْقُدُومُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ فقال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَمَّا الْمُحْسِنُ: فَكَالْغَائِبِ، يَأْتِي أَهْلَهُ فَرِحًا مَسْرُورًا، وَأَمَّا الْمُسِيءُ: فَكَالْعَبْدِ الْآبِقِ، يَأْتِي مَوْلَاهُ خَائِفًا مَحْزُونًا» ^(٣).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ»:

فهما مخلوقتان موجودتان الآن، لا تفنيان، ولا تبديد، فنؤمن بنعيم الجنة، وأنها جزاء المؤمنين الطائعين، وبعذاب النار، وأنها جزاء الكافرين العاصين.

كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿وَأَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

(١) ورواية مسلم التي انفرد بها، هي من حديث ابن عمر عن عمر.

(٢) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٦٧، ٤٨٢).

قوله ﷺ: «وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ»:

فَنُؤْمِنُ بِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ، وَرُسُلِهِ، إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي، وَنُصَدِّقُ بِمَا صَحَّ مِنْ أَخْبَارِهِمْ، وما جَرَى لَهُمْ مَعَ قَوْمِهِمْ.

وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْكَفَرُ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وَأَنَّ رِسَالَاتَهُمْ جَمِيعًا حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَنُؤْمِنُ، وَنُصَدِّقُ، بِهِمْ جَمِيعًا، وَلَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ؛ فَمَنْ كَفَرَ بِرِسَالَةٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، فَقَدْ كَفَرَ بِالْجَمِيعِ، وَكَفَرَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ يُرِيدُونَ أَنْ يَفْرَقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا [النساء: ١٥٠-١٥١].

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُمْ جَمِيعًا صَادِقُونَ مُصَدِّقُونَ، بَارُونَ رَاشِدُونَ، وَكَانُوا عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَاهْدَى الْمُسْتَبِينَ، بَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمُ الْبَلَاغَ الْمُبِينِ، وَلَمْ يُبَدِّلُوا، وَلَمْ يُغَيِّرُوا، وَلَمْ يَكْتُمُوا مِنْهَا حَرْفًا، أَوْ يَزِيدُوا شَيْئًا، أَوْ يَنْقُصُوهُ؛ فَقَامَتْ بِذَلِكَ الْحُجَّةُ عَلَى الْخَلْقِ بِبَعْثِهِمْ.

قوله ﷺ: «وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ»:

خَصَّهُ بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ «النَّبِيِّينَ»؛ تَعْظِيمًا لَهُ، وَعَظْفَهُ عَلَى «النَّبِيِّينَ» إشارَةً إِلَى أَنَّهُ فَاتَّقَ عَلَيْهِمْ بِأَوْصَافٍ مُحْتَصَةٍ بِهِ.

وَلَمْ يَقُلْ: «وَأَنَا حَقٌّ»، فَجَرَّدَهُ عَنْ ذَاتِهِ، كَأَنَّهُ غَيْرُهُ، وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْإِيمَانُ بِهِ، وَتَصَدِيقُهُ؛ مُبَالَعَةً فِي إِثْبَاتِ نُبُوَّتِهِ، كَمَا فِي التَّشْهَدِ^(١).

(١) فتح الباري (٣/٥)، عمدة القاري للعيني (٧/١٦٧).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالسَّاعَةُ حَقٌّ»:

أي: يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وما فِيهِ مِنَ الْحِسَابِ، وَنَشْرِ صَحَائِفِ الْأَعْمَالِ، وَالْمِيزَانِ، وَالصَّرَاطِ، وَالْحَوْضِ، وَالْقَنْطَرَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَكُلُّهُ حَقٌّ، وَصَدُقَ، لَا شَكَّ فِيهِ.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسَلَمْتُ»:

أي: اسْتَسَلَمْتُ، وَأَطَعْتُ، وَانْقَدْتُ لِحُكْمِكَ، وَأَمْرِكَ، وَنَهْيِكَ، وَسَلَّمْتُ، وَرَضِيْتُ، وَآمَنْتُ، وَصَدَقْتُ، وَاسْتَيْقَنْتُ^(١).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَبِكَ آمَنْتُ»:

أي: صَدَقْتُ بِكَ، وَبِمَا أَنْزَلْتَ، وَبِكُلِّ مَا أَخْبَرْتَ، وَأَمَرْتَ، وَنَهَيْتَ^(٢).
وَتَأَمَّلْ كَيْفَ قَالَ: «وَبِكَ آمَنْتُ»، وَلَمْ يَقُلْ: «آمَنْتُ بِكَ»، وَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: «بِكَ آمَنْتُ» يَجْمَعُ: الْإِيمَانَ بِاللَّهِ، وَالْاعْتِرَافَ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَزُومُنْ بِهِ إِلَّا بِتَوْفِيقِهِ، وَقَوْلُهُ: «آمَنْتُ بِكَ» إِنَّمَا هُوَ مُجَرَّدُ الْإِخْبَارِ عَنْ إِيْمَانِهِ^(٣).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ»:

تَبَرَّأَ إِلَيْهِ مِنَ الْحَوْلِ، وَالْقُوَّةِ، وَصَرَفَ أُمُورَهُ إِلَيْهِ؛ وَأَيَّقَنَ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ، وَنَعِمَ الْمُفَوَّضُ إِلَيْهِ؛ فَاللَّهُ تَعَالَى كَافِي مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ.
وَاسْمُ اللَّهِ «الْوَكِيلُ» مَعْنَاهُ: الْكَافِي^(٤).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَيْكَ أُنَبِّتُ»:

أي: رَجَعْتُ إِلَى الْخَيْرِ، فَلَا يَكُونُ الرَّجُوعُ إِلَى الشَّرِّ إِنْابَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِرَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤] **أي:** عودوا إِلَى مَا يَرْضَى بِهِ عَنْكُمْ مِنَ التَّوْبَةِ.

(١) شرح ابن بَطَّال (١٠٩/٣)، التمهيد لابن عبد البر (١٩١/١٢)، إكمال المعلم للقاضي عياض

(٣/١٣١، ٨/٢١٥)، شرح النووي على صحيح مسلم (٥٥/٦).

(٢) شرح ابن بَطَّال (١٠٩/٣)، إكمال المعلم (٣/١٣١، ٨/٢١٥)، شرح النووي (٥٥/٦).

(٣) الإفصاح لابن هُبَيْرَةَ (١٩/٣).

(٤) شرح ابن بَطَّال (١٠٩/٣)، التوضيح لابن الملقن (٢٠/٩).

فَ«الْإِنَابَةُ»: الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّوْبَةِ، وَ«الْمُنِيبُ»: الرَّاجِعُ، وَالْمُقْبِلُ بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، يُقَالُ: أَنَابَ يُنِيبُ إِنْابَةً، فَهُوَ مُنِيبٌ: إِذَا أَقْبَلَ وَرَجَعَ.

والمعنى: أَطَعْتُ أَمْرَكَ، وَتُبْتُ، وَرَجَعْتُ بِهَمَّتِي إِلَى طَاعَتِكَ، وَعِبَادَتِكَ، **أَي:** أَقْبَلْتُ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا يَقْرُبُ إِلَيْكَ، وَانصَرَفْتُ، وَأَعْرَضْتُ عَنِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى غَيْرِكَ، وَعَنْ مُحَالَفَتِكَ.

وقيل: إِلَيْكَ رَجَعْتُ فِي أَمْرِي، وَتَدْبِيرِي؛ بِمَعْنَى: فَوَضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَتَوَكَّلْتُ، وَاسْتَعَنْتُ^(١).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَبِكَ خَاصَمْتُ»:

أَي: بِكَ أَحْجَجْتُ، وَأُدَافِعُ، وَأُقَاتِلُ، بِهَا أُعْطِيتَنِي مِنَ الْبَرَاهِينِ، وَالْقُوَّةِ.

والمعنى: حَاجَجْتُ وَخَاصَمْتُ مَنْ عَانَدَكَ، وَكَفَرَ بِكَ، وَخَاصَمَ فِيكَ، وَقَمَعْتُهُ بِحُجَّةِ اللِّسَانِ، وَبِالسَّيْفِ.

وقيل: بِتَأْيِيدِكَ، وَنُصْرَتِكَ، قَاتَلْتُ، أَوْ بَوَحَيْكَ نَاطَرْتُ خَصْمِي^(٢).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالِإِيكَ حَاكَمْتُ»:

أَي: أَحَاكَمْتُ إِلَيْكَ بِالْحُجَجِ، وَالسَّيْفِ، كُلٌّ مِنْ أَبِي قَبُولَ الْحَقِّ، وَجَحْدَهُ، وَجَعَلْتُكَ الْحَاكِمَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، دُونَ غَيْرِكَ مِمَّنْ كَانَتْ تُحَاكِمُ إِلَيْهِ الْجَاهِلِيَّةُ، وَغَيْرُهُمْ، مِنْ صَنَمٍ، وَكَاهِنٍ، وَنَارٍ، وَشَيْطَانٍ، وَغَيْرِهَا؛ فَلَا أَرْضَى إِلَّا بِحُكْمِكَ، وَلَا أَعْتَمِدُ غَيْرَهُ، وَلَا أَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْكَ^(٣).

(١) التمهيد (١٢/١٩١)، إكمال المعلم (٣/١٣١، ٨/٢١٥)، النهاية لابن الأثير (٥/١٢٢)، شرح النووي (٦/٥٥، ١٧/٣٩).

(٢) إكمال المعلم (٣/١٣٢، ٨/٢١٥)، شرح النووي (٦/٥٥، ١٧/٣٩)، شرح المشكاة للطبري (٤/١١٩٥)، شرح أبي داود للعيني (٣/٣٨٢).

(٣) إكمال المعلم (٣/١٣٢)، شرح النووي (٦/٥٥).

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ»:

فتكون «المُخَاصَمَةُ» لله تعالى، لا لهواه، وحظه، وتكون «مُحَاكَمَتُهُ» خَصَمَهُ إِلَى أمر الله، وشرعه، لا إلى شيءٍ سواه.

فَمَنْ خَاصَمَ لِنَفْسِهِ؛ فَهُوَ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَانْتَصَرَ لِنَفْسِهِ، وَقَدْ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ بِهَا»^(١)، وهذا لتكميل عبوديته.

وَمَنْ حَاكَمَ خَصَمَهُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، وَرَسُولِهِ؛ فَقَدْ حَاكَمَ إِلَى الطَّاغُوتِ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَكْفُرَ بِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠].

وَلَا يَكْفُرُ الْعَبْدُ بِالطَّاغُوتِ حَتَّى يَجْعَلَ الْحُكْمَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، كَمَا هُوَ كَذَلِكَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ^(٢).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ، وَمَا أَخَّرْتُ»:

يعني: ما قَدَّمْتُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، أَوْ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْعَمَلِ، قَبْلَ هَذَا الْوَقْتِ.

وَمَا أَخَّرْتُ عَنْهُ مِمَّا يَقَعُ مِنِّي بَعْدَ ذَلِكَ، عَلَى الْفَرْضِ، وَالتَّقْدِيرِ.

وقيل: ما قَدَّمْتُ مِنْ سَيِّئَةٍ، وَمَا أَخَّرْتُ مِنْ عَمَلٍ؛ **أي:** جميع ما فَرَطَ مِنِّي.

وقيل: ما قَدَّمْتُ مِنْ شَهَوَاتِي عَلَى حُقُوقِكَ، وَمَا أَخَّرْتُ مِنَ الْحُقُوقِ الَّتِي تَجِبُ لَكَ.

وَعَلَى هَذَا؛ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَشْمَلَ ذَلِكَ مَا مَضَى، أَوْ مَا مَضَى، وَيَأْتِي^(٣).

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) طريق المهجرتين لابن القيم (ص ٣٧).

(٣) إكمال المعلم (٣/ ١٣٢)، الإفضاح (٣/ ١٩)، مرقاة المفاتيح (٢/ ٤٩٥، ٣/ ٩١٦، ٥/ ٣٩١)، فيض

قوله ﷺ: «وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَغْلَنْتُ»:

أي: ما أخفيتُ، وأظهرتُ، مِنَ الأقوالِ، والأفعالِ، والأحوالِ السيئةِ.

أو: ما حدثتُ به نفسي، وما تحركَ به لِساني^(١).

قوله ﷺ: «أَنْتَ الْمُقَدَّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ»:

أي: تُقدِّمُ مَنْ شِئْتَ مِنْ خَلْقِكَ إِلَى رَحْمَتِكَ، وَطَاعَتِكَ بِتَوْفِيقِكَ، وَتؤَخِّرُ مَنْ شِئْتَ عَنْ ذَلِكَ بِخِذْلَانِهِمْ عَنِ التَّوْفِيقِ، كَمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُكَ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ.

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُنَزَّلُ لِلْأَشْيَاءِ مَنَازِلَهَا، يُقَدِّمُ مَا شَاءَ مِنْهَا، وَيؤَخِّرُ مَا شَاءَ، وَجَعَلَ عِبَادَهُ بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ أَنْ يُقَدَّمَ، وَيؤَخَّرَ، فَلَا أَقْدَمُ أَنَا، وَلَا أَوْخَرُ.

وَسُؤَالُ النَّبِيِّ ﷺ الْمَغْفِرَةِ، مَعَ أَنَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَا تَأَخَّرَ، مَحْمُولٌ عَلَى التَّوَاضُّعِ، وَهَضْمِ النَّفْسِ، وَالْإِشْفَاقِ، وَالْإِجْلَالِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْخُضُوعِ لَهُ، وَتَعْظِيمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ تَعْلِيمٌ لَأَمَّتِهِ؛ لِيُقْتَدَى بِهِ فِي أَصْلِ الدُّعَاءِ، وَالْخُضُوعِ، وَحُسْنِ التَّضَرُّعِ، وَالرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ^(٢).

قوله ﷺ: «أَنْتَ إِلَهِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»:

بَدَأَ الدُّعَاءَ بِالتَّوْحِيدِ، وَخَتَمَهُ بِالتَّوْحِيدِ، **أي:** أَنْتَ مَعْبُودِي، فَلَا مَعْبُودَ بِحَقِّ غَيْرِكَ.

القدِير (٢/ ١٥٤)، عون المعبود (٤/ ٢٦٢)، مرعاة المفاتيح (٨/ ٢٤٧).

(١) عمدة القاري (٧/ ١٦٧)، مرعاة المفاتيح (٣/ ٩١٦).

(٢) إكمال المعلم (٣/ ١٣٥)، الإفصاح (٣/ ٢٠)، شرح النووي (٦/ ٥٦، ٦٠، ١٧/ ٤٠)، عمدة القاري

(٧/ ١٦٧)، مرعاة المفاتيح (٢/ ٤٩٥، ٣/ ٩١٦)، مرعاة المفاتيح (٣/ ٩٣، ٤/ ٢٠٢، ٨/ ٢٤٧).

«وَالْإِلَهُ هُوَ بِمَعْنَى: الْمَالُوهِ الْمَعْبُودِ، الَّذِي يَسْتَحَقُّ الْعِبَادَةَ»^(١).

وهذا هُوَ تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ، الَّذِي هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ كُلِّهِ لِلَّهِ، بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَاتِ كُلِّهَا ظَاهِرِهَا، وَبَاطِنِهَا، لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَا يَجْعَلُ فِيهَا شَيْئًا لغيرِهِ، لَا لِمَلِكٍ مُقَرَّبٍ، وَلَا لِنَبِيِّ مُرْسَلٍ، فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمَا، فَلَا أَحَدٌ يَسْتَحَقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»:

المعنى: لَا تَحْوُلُ لِلْعَبْدِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَلَا قُوَّةَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ، إِلَّا بِاللَّهِ^(٢).

فَكَأَنَّكَ قُلْتَ: لَا أَسْتَطِيعُ، وَلَا أَقْوَى عَلَى التَّحْوُلِ إِلَّا بِمَعُونَةِ اللَّهِ، فَ«الْبَاءُ» فِي قَوْلِهِ: «إِلَّا بِاللَّهِ» لِلْإِسْتِعَانَةِ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَوَّلَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، سِوَاءٍ مِنْ مَعْصِيَةٍ إِلَى طَاعَةٍ، أَوْ مِنْ طَاعَةٍ إِلَى أَفْضَلٍ مِنْهَا، إِلَّا بِاللَّهِ^(٣) عَزَّ وَجَلَّ.

فَهَذِهِ «كَلِمَةُ إِسْلَامٍ، وَاسْتِسْلَامٍ، وَتَفْوِضٍ إِلَى اللَّهِ، وَتَبَرُّيٍّ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا، وَلَيْسَ لَهُ حِيلَةٌ فِي دَفْعِ شَرٍّ، وَلَا قُوَّةٌ فِي جَلْبِ خَيْرٍ، إِلَّا بِإِرَادَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» تُنَالُ بِهِ الْإِعَانَةُ»^(٤).

وَهَذِهِ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟»، قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، قَالَ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٥).

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ٢٢٤).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨٢).

(٣) الشرح الممتع (٢/ ٨٥).

(٤) فقه الأذعية والأذكار لعبد الرزاق بن عبد المحسن البدر (٣/ ٩٦).

(٥) رواه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

ومعنى «الكنز»: المال النفيس المجتمع الذي يخفى على أكثر الناس، وهذا هو شأن هذه الكلمة، فتواها مدخر في الجنة، وهو ثواب نفيس، كما أن الكنز أنفس الأموال^(١).

فهذه الكلمة فيها نصيب موفور «من كمال التفويض، والتبري من الحول والقوة إلا بالله، وتسليم الأمر كله له، وعدم منازعته في شيء منه، وعموم ذلك لكل تحول من حال إلى حال، في العالم العلوي، والسفلي، والقوة على ذلك التحول، وأن ذلك كله بالله وحده؛ فلا يقوم لهذه الكلمة شيء»^(٢).

وبعد؛ فهذا دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يستفتح به - أحياناً - صلاته بالليل، وهو جدير بالتأمل، والحفظ، والفهم، والعمل، وقد جمع فيه صلى الله عليه وسلم معاني الإيمان، والتوحيد، والتوكل، والانتقاد، والتسليم، والإنابة، والتضرع، والخضوع لله تعالى، مع عظيم الثناء عليه، وختمه بالدعاء.

وجمع فيه صلى الله عليه وسلم أنواع الاستفتاح الثلاثة:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أنواع الاستفتاح للصلاة ثلاثة، وهي أنواع الأذكار مطلقاً بعد القرآن:

• أعلاها: ما كان ثناءً على الله.

• يليه: ما كان خبراً من العبد عن عبادة الله.

• والثالث: ما كان دعاءً للعبد.

ثم ذكر حديثنا هذا، وقال: «وهذا الذكر تضمن الأنواع الثلاثة، فقدم ما هو خبر عن الله، واليوم الآخر، ورسله، ثم ذكر ما هو خبر عن توحيد العبد، وإيمانه، ثم ختم بالسؤال.

(١) شرح النووي (٢٦/١٧)، شفاء العليل لابن القيم (ص ١١٢).

(٢) زاد المعاد (٤/١٩٣).

وهذا لأنَّ خَبَرَ الإنسانِ عَنْ نَفْسِهِ سُلُوكٌ يَشْهَدُ فِيهِ نَفْسُهُ، وَتَحْقِيقَ عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

وَأَمَّا الشَّاءُ الْمَحْضُ: فَهُوَ لَا يَشْهَدُ فِيهِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّجَلَّ بِأَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ^(١).

وَالْتَوَسَّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّعَاءِ، بِتَقْدِيمِ الْحَمْدِ، وَالشَّاءِ عَلَيْهِ، وَتَمْجِيدِهِ بِأَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَالتَّوَسَّلُ إِلَيْهِ بِعِبُودِيَّتِهِ، وَتَوْحِيدِهِ؛ لَا يَكَادُ يُرَدُّ مَعَهُ الدُّعَاءُ.

وَلِذَا جُمِعَتِ الْفَاتِحَةُ الْوَسِيلَتَيْنِ، وَهُمَا: التَّوَسَّلُ بِالْحَمْدِ، وَالشَّاءُ عَلَيْهِ، وَتَمْجِيدِهِ:
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾
[الفاتحة: ٢-٤].

وَالْتَوَسَّلُ إِلَيْهِ بِعِبُودِيَّتِهِ، وَتَوْحِيدِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].
ثُمَّ جَاءَ سُؤَالُ أَهَمِّ الْمَطَالِبِ، وَهُوَ: الْهُدَايَةُ، بَعْدَ الْوَسِيلَتَيْنِ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ فَالدَّاعِي بِهِ حَقِيقٌ بِالْإِجَابَةِ.

وهنا في هذا الدعاء: ذَكَرَ التَّوَسَّلُ إِلَيْهِ بِحَمْدِهِ، وَالشَّاءَ عَلَيْهِ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ،
أَنْتَ نَوْرُ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ...»، وَبِعِبُودِيَّتِهِ لَهُ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ،
وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ...»، ثُمَّ سَأَلَهُ الْمَغْفِرَةَ: «فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ، وَمَا أَخَّرْتُ»^(٢).



(١) مجموع الفتاوى (٣٧٦/٢٢)، (٣٩٠)، باختصار.

(٢) مدارج السالكين (١/٤٧).



الحديث السادس والعشرون



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ: إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ، وَادْفِنُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ، وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ؛ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبْنَهُ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ.

فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَغَفَرَ لَهُ»^(١).

وفي رواية: «كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ دَرُونِي فِي الرِّيحِ؛ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَّرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا.

فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ، فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكَ مِنْهُ، فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ -وفي رواية: مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ-، فَغَفَرَ لَهُ»^(٢).

(١) رواه البخاري (٧٥٠٦)، ومسلم (٢٧٥٦).

(٢) رواه البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦).

وعن أبي سعيد الخدري، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ رَجُلًا فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، رَاشَهُ اللَّهُ^(١) مَالًا وَوَلَدًا، فَقَالَ لِيَوْلَدِهِ: لَتَفْعَلَنَّ مَا أَمُرُكُمْ بِهِ أَوْ لَأَوْلِيَنَّ مِيرَاثِي غَيْرَكُمْ، إِذَا أَنَا مُتُّ، فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، وَادْرُونِي فِي الرِّيحِ، فَإِنِّي لَمْ أَبْتَهِرْ^(٢) عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا، وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَيَّ أَنْ يُعَذِّبَنِي، قَالَ: فَأَخَذَ مِنْهُمْ مِثْقَالًا، فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ، وَرَبِّي، فَقَالَ اللَّهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟ فَقَالَ: مَخَافَتُكَ، قَالَ فَمَا تَلَفَاهُ^(٣) غَيْرُهَا».

متفقٌ عليه، وهذه رواية مسلم (٢٧٥٧)، وفي رواية البخاري (٧٥٠٨): «أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا فِيمَنْ سَلَفَ - أَوْ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ - أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا وَوَلَدًا، فَلَمَّا حَضَرَتِ الْوَفَاةُ، قَالَ لِبَنِيهِ: أَيُّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَتِرْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا، وَإِنْ يَقْدِرِ اللَّهُ عَلَيْهِ يُعَذِّبُهُ، فَانْظُرُوا إِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ رِيحٍ عَاصِفٍ فَأَذْرُونِي فِيهَا، فَقَالَ: نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَخَذَ مَوَاقِفَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَرَبِّي، فَفَعَلُوا، ثُمَّ أَذْرُوهُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كُنْ، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ قَائِمٌ، قَالَ اللَّهُ: أَيُّ عَبْدِي، مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ، - أَوْ فَرَقَ مِنْكَ -، قَالَ: فَمَا تَلَفَاهُ أَنْ رَحِمَهُ عِنْدَهَا»، وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى: «فَمَا تَلَفَاهُ غَيْرُهَا».

وفي رواية: «فَتَلَقَاهُ بِرَحْمَتِهِ»^(٤).

هَذِهِ الْقِصَّةُ مِنْ عَجَائِبِ الْقَصَصِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي الزَّمَانِ السَّابِقِ، الَّتِي أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى بِهَا إِلَى نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَصَّهَا عَلَى أَصْحَابِهِ؛ مَوْعِظَةً، وَذِكْرًا لَهُمْ.

(١) أَعْطَاهُ اللَّهُ.

(٢) وَلِبَعْضِ الرُّوَاةِ: «أَبْتَتَرُ» وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ، وَهَاءُ مُبْدَلَةٌ مِنَ الْهَمْزَةِ، وَمَعْنَاهُمَا: لَمْ أَقْدَمْ خَيْرًا، وَلَمْ أَذْخِرْهُ. شرح النووي على مسلم (٧٣ / ١٧).

(٣) أَي: مَا تَدَارَكَهُ.

(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٤٧٨).

وحاصلها: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ، وَرِزْقِهِ الْأَوْلَادِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَشْكُرْ رَبَّهُ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ، وَأَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمَعَاصِي.

فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ؛ تَذَكَّرَ حَالَهُ مَعَ رَبِّهِ، وَكَثْرَةَ ذُنُوبِهِ، وَتَفَرِيطَهُ فِي حَقِّ اللَّهِ، فَتَمَلَّكَهُ الْخَوْفُ الشَّدِيدُ مِنَ اللَّهِ، وَظَنَّ أَنَّهُ مَتَى قَدِمَ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ سَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا شَدِيدًا، فَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ فِي الْجُمْلَةِ، وَيُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ فِي الْجُمْلَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُثِيبُ، وَيُعَاقِبُ، بَعْدَ الْمَوْتِ.

لَكِنَّهُ كَانَ يَشْكُ فِي تَفَاصِيلِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَظَنَّ بِجَهْلِهِ أَنَّهُ لَوْ حُرِّقَ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَأُذِرَتْهُ الرِّيحُ فِي الْبَرِّ، وَالْبَحْرِ، فَسَيَفْلِتُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَنْ يَقْدِرَ اللَّهُ عَلَى جَمْعِهِ، وَإِحْيَائِهِ!

فَأَوْصَى أَوْلَادَهُ أَنْ يَفْعَلُوا بِهِ ذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمَوَاقِفَ بِذَلِكَ، وَغَفَلَ هَذَا الْمِسْكِينُ عَنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَبْعَثُ الْمَوْتَى، وَيُعِيدُهُمْ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وَمِنْهُمْ الَّذِي أَكَلَتْهُ أَسْمَاكُ الْبَحَارِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَكَلَتْهُ الطُّيُورُ الْمُفْتَرِسَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ فِي بُطُونِ السَّبَاعِ، وَوَحُوشِ الْبَرَارِيِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَحَوَّلَ إِلَى تُرَابٍ تَغَذَّتْ بِهِ الْأَشْجَارُ!

وَمَعَ ذَلِكَ، فَاللَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى بَعْثِهِمْ، وَإِحْيَائِهِمْ، وَجَمْعِهِمْ مِنْ بُطُونِ الْأَسْمَاكِ، وَالسَّبَاعِ، وَحَوَاصِلِ الطَّيْرِ، ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْمَرُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

فَفَعَلَ أَوْلَادُهُ بِهِ مَا طَلَبَهُ مِنْهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِ؛ فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْبَرَّ وَالْبَحْرَ أَنْ يَجْمَعَ مَا فِيهِ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ رَجُلًا سَوِيًّا.

فَسَأَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ السَّبَبِ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى صَنِيعِهِ، - وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ - فَقَالَ: يَا رَبِّ خَشِيتُكَ! وَفِي رَوَايَةٍ: مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ! فَغَفَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، وَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذا الرَّجُلُ جَمَعَ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ، وَوَقَعَ فِيهِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنَ الشَّكِّ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِجَهْلِهِ؛ فَقَبِلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ إِيمَانَهُ، وَخَوْفَهُ، وَغَفَرَ لَهُ مَا وَقَعَ فِيهِ بِجَهْلِهِ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

واللهُ تَعَالَى لَهُ «فِي خَلْقِهِ حِكْمٌ لَا تَبْلُغُهَا عُقُولُ الْبَشَرِ»^(١).

فهذا الرجلُ حمَلَهُ جَهْلُهُ عَلَى الشَّكِّ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي إِعَادَتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَحَرَقَ جِسْمِهِ، وَتَفَرَّقَ فِي الرِّيَّاحِ، «وَهَذَا كَفَرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، لَكِنَّهُ كَانَ جَاهِلًا لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَكَانَ مُؤْمِنًا يَخَافُ اللَّهَ أَنْ يُعَاقِبَهُ؛ فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ»^(٢).

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَهَذَا الرَّجُلُ كَانَ قَدْ وَقَعَ لَهُ الشَّكُّ، وَالْجَهْلُ، فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى إِعَادَةِ ابْنِ آدَمَ بَعْدَ مَا أُحْرِقَ، وَذُرِّي، وَعَلَى أَنَّهُ يُعِيدُ الْمَيِّتَ، وَيَحْشُرُهُ إِذَا فَعَلَ بِهِ ذَلِكَ.

وهذان أصلان عظيمان:

- أَحَدُهُمَا: مُتَعَلِّقٌ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.
- وَالثَّانِي: مُتَعَلِّقٌ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ يُعِيدُ هَذَا الْمَيِّتَ، وَيَجْزِيهِ عَلَى أَعْمَالِهِ.

وَمَعَ هَذَا، فَلَمَّا كَانَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ فِي الْجُمْلَةِ، وَمُؤْمِنًا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فِي الْجُمْلَةِ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ يُثَبِّتُ، وَيُعَاقِبُ، بَعْدَ الْمَوْتِ، وَقَدْ عَمَلَ عَمَلًا صَالِحًا، وَهُوَ خَوْفُهُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُعَاقِبَهُ عَلَى ذُنُوبِهِ؛ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ بِمَا كَانَ مِنْهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ»^(٣).

(١) حادي الأرواح (ص ٣٨١).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٣١).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٩١).

فقوله: «لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ»:

الظَّاهِرُ أَنَّ الْمَقْصُودَ عَمَلُ الْجَوَارِحِ، وَأَنَّ عِنْدَهُ أَصْلُ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ، وَبِالْجَزَاءِ، وَالْحِسَابِ، وَهَذَا وَاضِحٌ مِنْ قَوْلِهِ: «مِنْ خَشْيَتِكَ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ»، وَقَوْلِهِ: «لَيْتَنِي قَدَّرَ عَلَيَّ رَبِّي لِكَيْعَذِّبَنِي»، وَالْخَشْيَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ مُصَدِّقٍ^(١).

وقال الإمام ابن خزيمة في معناها: «لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ عَلَى التَّامِّ، وَالْكَامِلِ»^(٢).

وفي هذا الحديث دليل على: أَنَّ الْخَوْفَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ^(٣).

فقد غَفَرَ اللَّهُ تَعَالَى لِهَذَا الرَّجُلِ ذُنُوبَهُ الْعَظِيمَةَ؛ لِمَا وَقَعَ فِي قَلْبِهِ مِنْ مَخَافَةِ اللَّهِ.

يقول العراقيُّ: «في هذا الحديث فضيلةُ خَوْفِ اللَّهِ تَعَالَى، وَغَلَبَتِهَا عَلَى الْعَبْدِ، وَأَتَتْهَا مِنْ مَقَامَاتِ الْإِيمَانِ، وَبِهَا انْتَفَعَ هَذَا الْمُسْرِفُ، وَحَصَلَتْ لَهُ الْمَغْفِرَةُ»^(٤).

وَالْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عِبَادَةٌ جَلِيلَةٌ، تَحْمِلُ صَاحِبَهَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ؛ قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧].

وقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

وقال: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

(١) التمهيد لابن عبد البر (١٨ / ٤٠)، شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٢ / ٣٩١).

(٢) التوحيد (٢ / ٧٣٢).

(٣) منهاج السنة النبويّة (٥ / ٤٨٤).

(٤) طرح الشريب (٣ / ٢٦٩)، باختصار.

وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ (٤٠) ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وفي الحديث: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

وفي الحديث أيضًا: بيان عظيم قُدْرَةِ اللَّهِ تعالى، وَأَنَّ بَعَثَ الْمَوْتَى هِيئًا عَلَيْهِ يَسِيرٌ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثَوْا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمَ تَأْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيْطْمِئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

«وهذا فيه أعظم دلالة حسيّة على قُدْرَةِ اللَّهِ، وإحيائه المَوْتَى للبعث، والجزاء. فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنّه سأله أَنْ يُرِيه بَصَرَهُ كَيْفَ يُحْيِي الْمَوْتَى؛ لَأَنَّهُ قَدْ تَيَقَّنَ ذَلِكَ بِخَبَرِ اللَّهِ تعالى، ولكنه أحبَّ أَنْ يُشَاهِدَهُ عَيْنًا؛ لِيَحْصُلَ لَهُ مَرْتَبَةٌ عَيْنِ الْيَقِينِ.

فأمّره الله تعالى أَنْ يَأْخُذَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ، وَيُضْمِّهُنَّ إِلَيْهِ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ بَمَرَأَى مِنْهُ، ومُشَاهَدَةً، وعلى يَدَيْهِ.

ثُمَّ أَمْرَهُ أَنْ يُمَزِّقَهُنَّ، وَيَخْلِطَ أَجْزَاءَهُنَّ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَيَجْعَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي فِي الْقُرْبِ مِنْهُ جُزْءًا مِنْ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ.

(١) رواه الترمذي (١٦٣٩)، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٤١١٢).

قال: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠] **أي:** تَحْصُلُ هُنَّ حَيَاةً كَامِلَةً، وَيَأْتِيَنَّكَ فِي هَذِهِ الْقُوَّةِ، وَسُرْعَةَ الطَّيْرَانِ، ففَعَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ، وَحَصَلَ لَهُ مَا أَرَادَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠] **أي:** ذُو قُوَّةٍ عَظِيمَةٍ، سَخَّرَ بِهَا الْمَخْلُوقَاتِ، فَلَمْ يَسْتَعْصِ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا، بَلْ هِيَ مُنْقَادَةٌ لِعِزَّتِهِ، خَاضِعَةٌ لَجَلَالِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَأَفْعَالُهُ تَعَالَى تَابِعَةٌ لِحُكْمَتِهِ، لَا يَفْعَلُ شَيْئًا عَبَثًا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(١).



(١) تفسير السعدي (ص ١١٢)، باختصار، وتصرُّف.



الحديث السابع والعشرون



عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَقَفِيَانِ، وَفَرَشِيٌّ، أَوْ فَرَشِيَانِ، وَثَقَفِيٌّ، كَثِيرَةُ شَحْمٍ بَطُونِهِمْ، قَلِيلَةُ فِقْهِ فُلُوبِهِمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ قَالَ الْآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا، وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا!

وَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا؛ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢]^(١).

وفي رواية: «فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَتَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ حَدِيثَنَا؟ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَسْمَعُ بَعْضَهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْتَن كَانَ يَسْمَعُ بَعْضَهُ لَقَدْ يَسْمَعُ كُلَّهُ»^(٢).

هُؤُلَاءِ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - وَقَدْ أَسْلَمَ بَعْضُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ - اجْتَمَعُوا عِنْدَ الْبَيْتِ، وَصَفَهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقَلَّةِ الْفِقْهِ؛ لِأَنَّهُمْ شَبَّهُوا اللَّهَ تَعَالَى بِخَلْقِهِ، مِنْ أَنَّهُ يَسْمَعُ جَهْرَ الْأَصْوَاتِ دُونَ سِرِّهَا، أَوْ يَسْمَعُ بَعْضَهَا دُونَ الْآخَرِ، فَصَدَرَتْ مِنْهُمْ تِلْكَ الْمَقَالَةُ، الدَّالَّةُ عَلَى قِلَّةِ الْفَهْمِ.

(١) رواه البخاري (٧٥٢١)، ومسلم (٢٧٧٥).

(٢) رواه البخاري (٤٨١٦).

وَأَفْطَنَهُمْ، وَأَفْقَهُهُمْ، مَنْ قَالَ: «إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا؛ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا»، لَكِنَّهُ شَكَّ فِي ذَلِكَ، وَعَلَّقَ عِلْمَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا يُخْفُونَهُ بِسَمْعِهِ إِذَا جَهَرُوا، فَلَمْ يَقْطَعْ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسْمَعُ قَوْلَهُمْ؛ وَلِذَا وَصَفَ بِقَلَّةِ الْفِقْهِ مَعَهُمْ^(١).

وَاللَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ بَصِيرٌ، يَسْمَعُ جَمِيعَ الْأَصْوَاتِ، الظَّاهِرَةِ، وَالْبَاطِنَةِ، الْخَفِيَّةِ، وَالْجَلِيَّةِ، بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ، عَلَى تَفْنُنِ الْحَاجَاتِ، فَالْغَيْبُ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ، وَالسِّرُّ عِنْدَهُ عِلَانِيَّةٌ، وَالْبَعِيدُ عِنْدَهُ قَرِيبٌ: ﴿وَإِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وَقَالَ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ صُدُورَهُمْ^(٢) لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ^(٣) يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].

فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرَى وَيَسْمَعُ دَيْبَ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ، عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ، فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ.

«قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا، يَعْلَمُ السِّرَّ، وَأَخْفَى مِنَ السِّرِّ، فَالسِّرُّ: مَا انْطَوَى عَلَيْهِ ضَمِيرُ الْعَبْدِ، وَخَطَرَ بَقْلِيهِ، وَلَمْ تَتَحَرَّكْ بِهِ شَفَتَاهُ، وَأَخْفَى مِنْهُ: مَا لَمْ يَخْطُرْ بَعْدُ؛ فَيَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَخْطُرُ بَقْلِيهِ كَذَا، وَكَذَا، فِي وَقْتِ كَذَا، وَكَذَا»^(٤).

فَعِلْمُهُ وَسَمْعُهُ يَشْمَلُ السِّرَّ، وَالْإِعْلَانُ: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]؛ **أَي:** «مَنْ هُوَ مُحْتَفٍ فِي قَعْرِ بَيْتِهِ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ، وَمَنْ هُوَ ظَاهِرٌ مَاشٍ فِي بَيَاضِ النَّهَارِ؛ كِلَاهُمَا فِي عِلْمِ اللَّهِ سَوَاءٌ»^(٥).

(١) شرح ابن بَطَّال (١٠/٥٢٣)، الإِفْصَاح (٢/٤٠)، شرح كتاب التَّوْحِيدِ لِلْغُنَيَّانِ (٢/٥٠٥).

(٢) يُخْفُونَ مَا صَدُورُهُمْ مِنَ الشَّحْنَاءِ وَالْعِدَاوَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ.

(٣) يُعْطُونَ رُؤُوسَهُمْ بِثِيَابِهِمْ.

(٤) الْوَابِلُ الصَّبِيبُ لَا بِنَ الْقِيَمِ (ص ٦٢)، بِاخْتِصَارٍ.

(٥) تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ (٤/٤٣٧)، بِتَصَرُّفٍ.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت خولة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تشكو زوجها، فكان يخفي عليّ كلامها، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١]»^(١).

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في «نونية»:

وهو العليم بما يوسوس عبده
بل يستوي في علمه الداني مع الـ
وهو العليم بما يكون غدا وما
وبكل شيء لم يكن لو كان كيد
في نفسه من غير نطق لسان
قاصي وذو الإسرار والإعلان
قد كان والمعلوم في ذا الآن
ف يكون موجودا لدى الأعيان^٣

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَئِذَا جُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدَتْهُمْ عَلَيْهَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْوْنَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ١٩-٢٣].

فيُخبر تعالى عن أعدائه الذين بارزوه بالكفر به، وبآياته، وتكذيب رُسُلِهِ، ومُعاداتِهِمْ، ومُحَارَبَتِهِمْ، وحالِهِمُ الشَّنِيعَةَ حين يُحْشَرُونَ، أي: يُجْمَعُونَ ﴿إِلَى النَّارِ فَهُمْ

(١) أخرجه البخاري تعليقا (٩/ ١١٧)، ووصله النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨)، وصححه: ابن تيمية، وابن الملقن، وابن حجر، والألباني.

(٢) نونية ابن القيم (ص ٣٦).

يُوزَعُونَ ﴿[فصلت: ١٩] **أي:** يُرَدُّ أولُهم على آخِرِهِم، وَيَتَّبِعُ آخِرُهُم أولَهُم، وَيُسَاقُونَ إِلَيْهَا سَوْقًا عَنِيفًا، لَا يَسْتَطِيعُونَ امْتِنَاعًا، وَلَا يَنْصُرُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ.

ثُمَّ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ، وَأَبْصَارُهُمْ، وَجُلُودُهُمْ، فَيَشْهَدُ كُلُّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِمْ، فَكُلُّ عَضْوٍ يَقُولُ: أَنَا فَعَلْتُ كَذَا، وَكَذَا، يَوْمَ كَذَا، وَكَذَا.

ثُمَّ وَبَّخَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى؛ فَقَالَ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢] **أي:** وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَخْفُونَ عِنْدَ ارْتِكَابِ الْقَبَائِحِ؛ مَخَافَةَ أَنْ تَشْهَدَ أَعْضَاؤُكُمْ عَلَيْكُمْ، وَلَا تُحَازِرُونَ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ كُنْتُمْ تُجَاهِرُونَ اللَّهَ بِالْكَفْرِ، وَالْمَعَاصِي، وَلَا تُبَالُونَ مِنْهُ فِي رَعْمِكُمْ؛ لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ.

وَلِذَا قَالَ: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ﴾ بِإِقْدَامِكُمْ عَلَى الْمَعَاصِي ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ فَلِذَلِكَ صَدَرَ مِنْكُمْ مَا صَدَرَ.

وَهَذَا الظَّنُّ الْفَاسِدُ، وَهُوَ اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا يَعْمَلُونَ؛ صَارَ هُوَ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ، وَشَقَائِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ فِهَذَا الظَّنُّ السَّيِّئُ حَيْثُ ظَنْنْتُمْ بِهِ مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ ﴿أَزْدَنْكُمْ﴾ **أي:** أَهْلَكَكُمْ ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لِأَنْفُسِهِمْ، وَأَهْلِيهِمْ؛ بِسَبَبِ الْأَعْمَالِ الَّتِي أَوْجَبَهَا لَكُمْ ظَنُّكُمْ الْقَبِيحُ بِرَبِّكُمْ، فَحَقَّتْ عَلَيْكُمْ كَلِمَةُ الْعِقَابِ، وَالشَّقَاءِ، وَوَجَبَ عَلَيْكُمْ الْخُلُودُ الدَّائِمُ فِي الْعَذَابِ الَّذِي لَا يُقْتَرُ عَنْهُمْ سَاعَةً^(١).

وَفِيهِ تَنْبِيْهُ عَلَى: أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَقَّقَ أَنَّهُ لَا يَمُرُّ عَلَيْهِ حَالٌ، إِلَّا وَعَلَيْهِ رَقِيبٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى^(٢).



(١) تفسير ابن كثير (٧/ ١٧٢)، تفسير السعدي (ص ٧٤٧).

(٢) إرشاد الساري للقسطاني (٧/ ٣٢٩).

الحديث الثامن والعشرون

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«مِفْتَاحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي غَدٍ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي الْأَرْحَامِ، وَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ بَأْيَ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَمَا يَذَرِي أَحَدٌ مَتَى يَجِيءُ الْمَطَرُ»^(١).

وفي رواية: «مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَذَرِي نَفْسٌ بَأْيَ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ»^(٢).

وفي رواية: «مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ بَأْيَ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]»^(٣).

(١) رواه البخاري (١٠٣٩).

(٢) رواه البخاري (٤٦٩٧).

(٣) رواه البخاري (٤٦٢٧، ٤٧٧٨).

اشتمَلَ هذا الحديثُ على أصلٍ عظيمٍ من أصولِ الإيمانِ، وثوابِ العقيدةِ، وهو أنَّ الغَيْبَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَعِلْمُ الْغَيْبِ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ نَفْسِهِ، وَبِيَدِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحْدَهُ خَزَائِنُهُ، وَالطَّرِيقُ الْمَوْصِلَةُ إِلَيْهِ، لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا هُوَ، وَلَا يُطْلَعُ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ شَاءَ مِنْ رُسُلِهِ.

فَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، لَا مَلَكٌ مَقْرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، فَضْلاً عَمَّنْ هُوَ دُونَهُمَا.

قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْثَوْنَ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٢٦]، ﴿قُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠]، ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، وقال: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝﴾ [٦٦] إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿[الجن: ٢٦-٢٧]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقد قال النبي ﷺ عن نفسه، فيما أخبر الله عنه: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْرَثْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال الله تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۚ إِنِ اتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقالت الْجَنُّ: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدَ يَمَنٌ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

وقال الله عَنْهُمْ فِي قِصَّةِ مَوْتِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

ولِذَا، عَلَّمَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نَسْتَخِيرَ اللَّهَ تَعَالَى عِلَامَ الْغُيُوبِ فِي الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ؛ فَقَالَ: «إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ؛ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ،

ثُمَّ لَيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ...» الحديث^(١).

وَيَحِبُّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُؤْمِنَ بِهَذَا الْأَصْلِ، ويوقن به، فَمَنْ اعتقد، أو ادَّعى أَنَّ غيرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ الْغَيْبَ؛ فقد كفرَ، وكذَّبَ وَضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا.

كَمَنْ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ فِي السَّحَرَةِ، وَالْكَهَنَةِ، وَالْعَرَّافِينَ، وَالْمُنَجِّمِينَ، وَكَاعْتِقَادِ بَعْضِ الطَّوَائِفِ فِي أُمَّتِهِمْ، وَغُلَاةِ الصُّوفِيَّةِ فِي مَشَائِحِهِمْ، وَأَوْلِيَائِهِمْ، وَالْإِعْتِقَادِ فِي الْجَنِّ.

يَقُولُ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ ادَّعى عِلْمَ الْغَيْبِ، فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ صَدَّقَ مَنْ يَدَّعي عِلْمَ الْغَيْبِ، فَإِنَّهُ كَافِرٌ أَيْضًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]؛ فَلَا يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضِ، إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ.

وهؤلاء الذين يدَّعون أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ؛ كُلُّ هَذَا مِنَ الْكُفَّانَةِ.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»^(٢).

فَإِنْ صَدَّقَهُ فَإِنَّهُ يَكُونُ كَافِرًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا صَدَّقَهُ بِعِلْمِ الْغَيْبِ، فَقَدْ كَذَّبَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]^(٣).

وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٤).

(١) رواه البخاري (١١٦٦).

(٢) رواه مسلم (٢٢٣٠).

(٣) فتاوى ابن عثيمين (١/ ٢٠٢).

(٤) رواه أبو داود (٣٩٠٤)، والإمام أحمد (٩٥٣٢) وغيرهما، وصحَّحه ابن حجر، والألباني.

والعرَّافُ هو: الذي يَسْتَدِلُّ على معرفةِ الأمورِ بمقدِّماتٍ يَسْتَدِلُّ بها على المَسْرُوقِ، ومكانِ الضَّالَّةِ، ونحوِها، فهو أعمُّ مِنَ الكاهِنِ؛ لأنه يَشْمَلُ الكاهِنَ، وغيره، فهما مِنْ بابِ العامِّ، والخاصِّ.

وقيل: العرَّافُ هو: الذي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ، والكاهِنُ هو الذي يُخْبِرُ عَنِ المَغَيِّباتِ فِي المُسْتَقْبَلِ^(١).

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ، لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ»:

«مَفَاتِيحُ الغَيْبِ» أي: خَزَائِنُ الغَيْبِ، و«مَفَاتِيحُ»: جَمْعُ «مِفْتَاحٍ»، وهو المِفْتَاحُ الذي يَفْتَحُ بِهِ، وهو عبارةٌ عَنْ كُلِّ مَا يَحُلُّ مُغْلَقًا، كَالْقُفْلِ عَلَى الْبَيْتِ. و«مَفَاتِيحُ»: جَمْعُ «مِفْتَاحٍ».

فَشَبَّهَ الأُمُورَ المُغَيَّبَةَ عَنِ النَّاسِ بِالمَتَاعِ النَّفِيسِ الذي يُدْخَرُ بِالمَخَازِنِ والخَزَائِنِ المُسْتَوْتَقَّ عَلَيْهَا بِأَقْفَالٍ، بحيثُ لَا يَعْلَمُ مَا فِيهَا إِلَّا الذي بِيَدِهِ مَفَاتِيحُهَا. فلا يَعْلَمُ الغَيْبَ إِلَّا مَنْ بِيَدِهِ مَفَاتِيحُ أَقْفَالِهِ، وهو اللهُ^(٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ويقولُ الشَّيْخُ ابنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللهُ - في بَيَانِ وَجْهِ كَوْنِ هَذِهِ الخَمْسِ مَفَاتِيحَ - :
«السَّاعَةُ: مِفْتَاحُ الحَيَاةِ الآخِرَةِ.

نزولُ الغَيْثِ: مِفْتَاحُ حَيَاةِ الأَرْضِ بِالنَّبَاتِ.

ما فِي الأَرْحَامِ: مِفْتَاحُ الوُجُودِ فِي الحَيَاةِ.

عَمَلُ الغَدِّ: مِفْتَاحُ عَمَلِ المُسْتَقْبَلِ.

(١) القول المفيد (١/ ٥٥٢).

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٢٨٢)، التفسير الوسيط للواحدي (٨/ ١٨٨)، تفسير القرطبي (٧/ ١)، التحرير

والتنوير (٧/ ٢٧٠).

عِلْمُ مَكَانِ الْمَوْتِ: مِفْتَاحُ الْإِنْتِقَالِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ.

فَلِهَذَا صَارَتْ هَذِهِ الْخَمْسُ مِفْتَاحَ^(١).

و«الْغَيْبُ»: كُلُّ مَا غَابَ عَنْ عِلْمِ النَّاسِ، بِحَيْثُ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى عِلْمِهِ، كَالْمَلَائِكَةِ، وَالْجِنِّ، وَمَوَاقِيتِ الْأَشْيَاءِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

والمعنى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ، وَبِيَدِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحْدَهُ خَزَائِنُهُ، وَالطَّرِيقُ الْمَوْصِلَةُ إِلَيْهِ، لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا هُوَ، وَلَا يُطْلَعُ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ شَاءَ مِنْ رُسُلِهِ^(٢).

وَالْغَيْبُ نَوْعَانِ: وَاقِعٌ، وَمُسْتَقْبَلٌ.

فَعَيْبُ الْوَاقِعِ نِسْبِيٌّ، يَكُونُ لِشَخْصٍ مَعْلُومًا، وَلَا خَرَجَ مَجْهُولًا.

وَعَيْبُ الْمُسْتَقْبَلِ حَقِيقِيٌّ، لَا يَكُونُ مَعْلُومًا لِأَحَدٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَوْ مَنْ أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ مِنَ الرُّسُلِ، وَمَنْ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ مَكْذُوبٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

وَقَوْلُهُ: «خَمْسٌ» لَا يُفِيدُ حَضَرَ عِلْمِ الْغَيْبِ فِي هَذِهِ الْخَمْسِ، لَكِنْ هَذِهِ أُمَمَاتُهَا، وَذُكِرَتْ لِحَاجَةِ النَّاسِ إِلَى مَعْرِفَةِ اخْتِصَاصِ اللَّهِ بِعِلْمِهَا^(٤).

بَدِيلٌ أَنَّهُ ذُكِرَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: «مَجِيءُ الْمَطَرِ» ضِمْنَ «الْخَمْسِ»، وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهَا: «عِلْمُ السَّاعَةِ».

«وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ بِهِ دُونَ خَلْقِهِ، لَمْ يَنْحَصِرْ فِي خَمْسٍ،

(١) شرح الواسطية (١/ ١٩٥)، جلسات رمضانية (صوتية)..

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٢٨٢)، التفسير الوسيط للواحدي (٨/ ١٨٨)، تفسير القرطبي (٧/ ١)، التحرير والتنوير (٧/ ٢٧٠)..

(٣) شرح ثلاثة الأصول لابن عثيمين (ص ١٥٣).

(٤) فتح الباري لابن رجب (٩/ ٢٦٨)، عمدة القاري للعيني (٧/ ٦١)، إرشاد الساري للقسطلاني (٢/ ٢٥٩).

بَلْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، مِثْل: عِلْمُهُ بَعْدَ خَلْقِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ومثل: استثناؤه بعلمه بذاته، وصفاته، وأسمائه، كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وفي الحديث: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»^(١).

وهذه الخمس جاءت تفسيرا لها - كما في بعض الروايات - في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

فهذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحدٌ إلا بعد إعلامه تعالى بها:

١ - فَعِلْمُ وَقْتِ السَّاعَةِ مِمَّا اخْتَصَّ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ، وَلَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ، فَلَا يَعْلَمُهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ.

كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ^(٤) فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِكُمْ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

(١) رواه الإمام أحمد (٤٣١٨)، وصححه الألباني.

(٢) فتح الباري لابن رجب (٩/٢٦٨)، بتصرف.

(٣) يُظْهِرُهَا وَيَكْشِفُهَا، أَوْ: يَأْتِي بِهَا.

(٤) ثَقُلَ عِلْمُهَا وَخَفِيَ أَمْرُهَا.

ولما سأل النبي ﷺ جبريل، في حديث جبريل المشهور: «فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل»^(١).

٢- وإنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به؛ علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه.

٣- ولا يعلم ما في الأرحام، مما يريد أن يخلقه الله سواه، قبل أن يأمر ملك الأرحام بتخليقه، وكتابتها، ولكن إذا أمر بكونه ذكرًا، أو أنثى، أو شقيًا، أو سعيدًا؛ علم الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه.

٤- ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً، في دنياها، وأخرها.

٥- ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٤٣]، في بلدها، أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك^(٢).

وقوله ﷺ: «لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي غَدٍ»:

يعني: من خير، أو شر، فلا يعلم أحد ما ينطوي عليه الغد من خير، أو شر، ولو كان نبياً، إلا بواسطة الوحي المنزل عليه^(٣).

وهذا كما قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]»^(٤).

ولما دخل النبي ﷺ على الربيع بنت معوذ رضى الله عنها غداة بُني عليها، وكان هناك جويزات يضربن بالدف، يندبن من قتل من آبائهن يوم بدر، حتى قالت

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٥٢)، فتح الباري لابن رجب (٩/ ٢٧٠).

(٣) فيض القدير (٥/ ٥٢٥)، منار القاري لحمزة قاسم (٢/ ٢٩١).

(٤) رواه مسلم (٢٥٩).

جارية: «وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ»، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُولِي هَكَذَا، وَقُولِي مَا كُنْتَ تَقُولِينَ»^(١).

فَمَنَعَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ الْبَاطِلِ؛ «لأنَّه لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِنَّمَا يَعْلَمُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْغَيْبِ مَا أَخْبَرَهُ»^(٢).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا يَكُونُ فِي الْأَرْحَامِ»، وفي رواية: «وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ»:

وهذا كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨) عَلِمَ الْغَيْبَ وَالشَّهَادَةَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالَى ﴿[الرعد: ٨-٩]

فَاللَّهُ تَعَالَى مُحِيطٌ عِلْمُهُ بِمَا تَحْمِلُهُ الْحَوَامِلُ مِنْ كُلِّ إِنَاثِ الْحَيَوَانَاتِ، كما قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤].

فَيَعْلَمُ مَا حَمَلَتْ مِنْ ذَكَرٍ، أَوْ أُنْثَى، أَوْ حَسَنٍ، أَوْ قَبِيحٍ، أَوْ شَقِيٍّ، أَوْ سَعِيدٍ، أَوْ طَوِيلِ الْعُمُرِ، أَوْ قَصِيرِهِ، وَكَيْفَ رِزْقِهِ، سَوِيَّ الْخَلْقِ، أَمْ نَاقِصِهِ، وَاحِدًا، أَوْ اثْنَيْنِ، أَوْ أَكْثَرَ، كما قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

وكما في الحديث: «وَكَلَّ اللَّهُ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ نُطْفَةٍ، أَيُّ رَبِّ عِلَاقَةٍ، أَيُّ رَبِّ مُضْغَةٍ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، أَذَكَرٌ، أَمْ أُنْثَى؟ أَشَقِيٌّ، أَمْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الْأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»^(٣).

وقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ [الرعد: ٨] أي: تَنْقُصُ مِمَّا فِيهَا، إِمَّا أَنْ يَهْلِكَ الْحَمْلُ، أَوْ يَتَضَاعَلَّ، أَوْ يَضْمَحِلَّ.

(١) رواه البخاري (٤٠٠١).

(٢) مرقاة المفاتيح (٢٠٦٥/٥).

(٣) رواه البخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٦٤٦).

﴿وَمَا تَزِدْهُ﴾ [الرعد: ٨] الْأَرْحَامُ، وَتَكْبُرُ الْأَجِنَّةُ الَّتِي فِيهَا، أَوْ يَتِمُّ خَلْقُهَا.

وقيل: «الغَيْضُ»: نُقْصَائُهَا عَنْ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ، و«الزِّيَادَةُ»: زِيَادَتُهَا عَلَيْهَا.

وقيل: «النَّقْصَانُ»: السَّقْطُ، و«الزِّيَادَةُ»: تَمَامُ الْخَلْقِ.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]: فَلَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ، وَلَا يَتَأَخَّرُ، وَلَا يَزِيدُ، وَلَا يَنْقُصُ، إِلَّا بِمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ، وَعِلْمُهُ ^(١) جَلَّ وَعَلَا.

فَإِنْ قِيلَ: الطَّبُّ الْحَدِيثُ الْآنَ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَيَعْلَمُ نَوْعَ الْجَنِينِ، هَلْ هُوَ ذَكَرٌ، أَوْ أُنْثَى، بِوَاسِطَةِ الْأَشْعَةِ؟

فَالْجَوَابُ:

• **أَوَّلًا:** عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا فِي الْأَرْحَامِ أَعَمُّ مِنْ مُجَرَّدِ عِلْمِ كَوْنِهِ ذَكَرًا، أَوْ أُنْثَى؛ وَلِذَا لَمْ يُذَكَّرْ فِي الْآيَةِ، وَلَا فِي الْحَدِيثِ، مُتَعَلِّقُ الْعِلْمِ، فَلَمْ يَقُلْ: «يَعْلَمُ كَذَا، وَكَذَا».

فَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ هَلْ هُوَ حَسَنٌ، أَوْ قَبِيحٌ؟ شَقِيٌّ، أَوْ سَعِيدٌ؟ رِزْقُهُ، أَجَلُهُ، هَلْ سَيُخْرِجُ حَيًّا، أَوْ مَيِّتًا؟ فَهَلْ هَذَا فِي عِلْمِ الْبَشَرِ؟! وَهَلْ يَدَّعِيهِ أَحَدٌ؟!

• **ثَانِيًا:** الطَّبُّ الْحَدِيثُ، وَوَسَائِلُ التَّقْنِيَةِ، لَا يُمَكِّنُهَا الْعِلْمُ بِنَوْعِ الْجَنِينِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ خَلْقَهُ، وَيَصِيرَ ذَكَرًا، أَوْ أُنْثَى، بِأَمْرِ اللَّهِ، **أي:** بَعْدَ التَّخْلِيقِ، وَتَكْوِينِ الْجَنِينِ، وَظُهُورِ نَوْعِهِ، وَإِذَا خُلِقَ صَارَ مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ لَا مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، أَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ: فَلَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ^(٢).

(١) تفسير البغوي (٤/٢٩٧)، تفسير ابن كثير (٤/٤٣٥)، تفسير السعدي (ص ٤١٤)، فيض القدير (٥/٥٢٥).

(٢) شرح الواسطية لابن عثيمين (١/١٩٦)، جلسات رمضانية له (صوتية)، شرح رياض الصالحين (٣/٤٤١).

وقوله ﷺ: «وَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا»:

يعني: ماذا تَكْسِبُ في المُستقبل، فلا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ، هل تَكْسِبُ خيراً، أو شراً؟ أو تموتُ قَبْلَ غَدٍ؟ أو يَأْتِي غَدٌ وفيه ما يَمْنَعُ العملَ؟ وما أَشَبَهُ ذَلِكَ. فالإنسانُ لَا يَعْلَمُ ماذا يَكْسِبُ غَدًا عِلْمًا يَقِينًا، ولكنه قد يَتَوَقَّعُ، وقد تُخْلَفُ الأمور^(١).

وقوله ﷺ: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ»:

فلا يَدْرِي أَيُّ إنسانٍ، وأَيُّ نَفْسٍ، هل يَمُوتُ بِأَرْضِهِ، أو بِأَرْضٍ بَعِيدَةٍ عَنْهَا، أو قَرِيبَةٍ مِنْهَا، أو يَمُوتُ فِي الْبَحْرِ، أو فِي الْجَوِّ؟ لَا يَدْرِي، وَلَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ. تَحْدُ الإنسانَ يَوْلَدُ فِي بَلَدٍ، وَيَعِيشُ فِيهَا، وَلَا يَطْرَأُ عَلَى بَالِهِ أَنْ يَنْتَقِلَ عَنْهَا، ثُمَّ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَقْبِضَهُ فِي أَرْضٍ؛ جَعَلَ لَهُ حَاجَةً فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، فَيَمُوتُ فِيهَا وَهُوَ لَا يَدْرِي أَنَّهُ سَيَمُوتُ فِيهَا! بل الحيوانُ كَالْبَعِيرِ، يَنْشَأُ فِي جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِ الْأَرْضِ، ثُمَّ يَكْبُرُ، ثُمَّ يُسْتَعْمَلُ لِلرُّكُوبِ، أو غَيْرِ الرُّكُوبِ، ثُمَّ يُذْبَحُ فِي بِلَادٍ بَعِيدَةٍ عَنْ بِلَادِهِ، أو يَمُوتُ فِي بِلَادٍ بَعِيدَةٍ عَنْ بِلَادِهِ.

وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ، وَالنَّفْسُ عُمُومًا، لَا يَدْرِي مَكَانَ الْمَوْتِ، وَلَا بِأَيِّ أَرْضٍ يَمُوتُ، مَعَ أَنَّهُ يُمَكِّنُهُ الذَّهَابُ يَمِينًا، وَشِمَالًا، وَالْإِنْتِقَالَ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ؛ فَرَمَانَ الْمَوْتِ مِنْ بَابِ أَوَّلَى، فَلَا يَدْرِي أَيْضًا مَتَى يَمُوتُ وَفِي أَيِّ يَوْمٍ يَمُوتُ.

فَجِهَالَةُ الزَّمَانِ أَشَدُّ مِنْ جِهَالَةِ الْمَكَانِ؛ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَنْتَقِلَ، أو لَا يَنْتَقِلَ، لَكِنَّ الزَّمَانَ يَمُوتُ رَغْمًا عَنْهُ؛ فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَتَى يَمُوتُ، وَلَا بِأَيِّ أَرْضٍ يَمُوتُ^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٤٤٢).

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٤٤٢)، جلسات رمضانيّة.

وقد قيل: إنَّ الخليفةَ المنصورَ اهتمَّ بمعرفةِ مُدَّةِ عُمرِهِ، فرأى في منامِهِ كأنَّ خيالاً أخرجَ يدهَ مِنَ البحرِ، وأشارَ إليه بالأصابعِ الخمسِ، فاستفتى العلماءَ في ذلك، فتأولوها بخمسِ سنينَ، وبخمسَةِ أشهرٍ، وبغيرِ ذلك.

حتى قال أبو حنيفةَ رَحِمَهُ اللهُ: «تأويلُها: أنَّ مفاتيحَ الغيبِ خمسٌ لا يَعْلَمُها إِلَّا اللهُ، وأنَّ ما طَلَبْتَ مَعْرِفَتَهُ لا سبيلَ لك إِلَيْهِ»^(١).

وقولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَمَا يَذِرِي أَحَدٌ مَتَى يَجِيءُ الْمَطَرُ»**، وفي روايةٍ: **«وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ»**:

الذي يُنزِلُ الْمَطَرَ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ فِي اللَّيْلِ، أَوِ النَّهَارِ، أَوْ فِي أَيِّ سَاعَةٍ، إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ.

لكنَّ معرفةَ أحوالِ الطَّقسِ، والبحثَ عنها، وأوقاتِ الكُسوفِ، والخُسوفِ، ونُزولِ الأمطارِ، وتوقُّعِ ذلك، لا يدخلُ في التَّنجيمِ، أو ادِّعاءِ عِلْمِ الْغَيْبِ؛ لِأَنَّهَا تُبْنَى عَلَى أُمُورٍ حِسِّيَّةٍ، وَتَجَارِبَ، وَنَظَرٍ فِي سُنَنِ اللهِ الْكُونِيَّةِ، ثُمَّ هِيَ أُمُورٌ ظَنِّيَّةٌ لَا يَقِينَةُ، فَتُصِيبُ تَارَةً، وَتُخْطِئُ تَارَةً، وَغَالِبًا تَكُونُ تَقْدِيرَاتٍ عَلَى الْمَدَى الْقَرِيبِ، فَلَا يَتَوَقَّعُونَ أَمْطَارًا تَحْدُثُ بَعْدَ سَنَوَاتٍ، أَوْ بَعْدَ أَشْهُرٍ^(٢).

وقولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ»:

كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ صَارَ الشُّغْلُ الشَّاغِلُ لَهُمْ: نَهَايَةُ الْعَالَمِ اقْتَرَبَتْ، الْقِيَامَةُ سَتَقُومُ يَوْمَ كَذَا، سَنَةٌ كَذَا، أَوْ كَذَا، وَأُلْفَتْ فِي هَذَا مُؤَلَّفَاتٌ، عَرَبِيَّةٌ، وَأَجْنَبِيَّةٌ، وَتَوَرَّطَتْ فِي هَذَا وَكَالَاتُ أَنْبَاءٍ عَالِمِيَّةٍ!

(١) الكشَّافُ لِلزُّخْمَشَرِيِّ (٣/ ٥٠٥).

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة (١/ ٦٣٤، ٦٣٥، ٨/ ٣٢٣)، القول المفيد (١/ ٥٣١)، شرح رياض الصالحين

(٣/ ٤٤١)، جلسات رمضانية لابن عثيمين.

فَمَثَلًا: في سنة ٢٠١٢م، الملايين يترقبون نهاية العالم في ٢١ ديسمبر ٢٠١٢م، وشهدت خمس دول بأمريكا الجنوبية احتفالات غير مسبوقة، ابتداءً من يوم الجمعة، ولمدة ثلاثة أيام؛ ارتقابًا لإشاعة نهاية العالم يوم الجمعة ٢١ ديسمبر ٢٠١٢م، معتقدين أنه سيرتطم بالأرض جسم ضخم، سيقلب الأرض رأسًا على عقب!

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾ [النازعات: ٤٤]، وقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا إِلَّا لَوْفِيهَا^(١) لَوْفِيهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ^(٢) فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤].

وفي هذا الحديث: **«وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ».**

فمن زعم في قديم، أو حديث، أن الساعة ستقوم يوم كذا، أو سنة كذا، أو أن نهاية العالم اقتربت؛ فهو كاذب، مفتر على الله الكذب، متقول على الله تعالى بغير علم، ولا برهان.

وللساعة أشراط، لا تقوم الساعة إلا بعد وقوعها، وكثير منها لم يقع.

والمطلوب من المسلم أن يعمل ليوم القيامة، ولا ينشغل بموعدها، ولا يمنعها قرب قيام الساعة، أو الخوف من قيامها، من العمل، والتكسب، والسعي على عياله، والعمل لهذا الدين؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

(١) يُظْهِرُهَا وَيَكْشِفُهَا، أو: يأتي بها.

(٢) ثَقُلَتْ عِلْمُهَا وَخَفِيَ أَمْرُهَا.

وَلَمَّا سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ السَّاعَةِ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «وَمَاذَا أَعَدَدْتَ لَهَا»^(١).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيدَ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةً»^(٢)، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَفْعَلْ»^(٣).



(١) رواه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٢) نخلة صغيرة.

(٣) رواه الإمام أحمد (١٢٩٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، وصححه الألباني في الصحيحة

(٩) ومحققو المسند.

الحديث التاسع والعشرون

عَنْ أَبِي ذَرٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَخُقَّ لَهَا أَنْ تَنْطُ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ، إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ»^(١).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَخُقَّ لَهَا أَنْ تَنْطُ»:

أي: صاحَتْ وصَوَّتَتْ مِنْ ثِقَلٍ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَحَقِيقُهَا، وَيَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَفْعَلَ؛ لكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ السَّاجِدِينَ الْعَابِدِينَ الْخَاضِعِينَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَعَظَمَتِهِ، فَهُمْ مَعَ كَثَرَتِهِمْ لَا يَفْتَرُونَ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَلَا يَسْأَمُونَ^(٢).

فَالسَّمَاءُ مَسْكَنُ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ تَعَالَى طَرْفَةَ عَيْنٍ: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وَهُمْ فِي عِبَادَةٍ دَائِمَةٍ، خَاشِعِينَ لِلَّهِ، مُعْظَمِينَ لَهُ سُجَّادَةً وَتَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]،

(١) رواه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، والحاكم (٣٨٨٣)، وصححه، وصححه ابنُ العربي في عارضة الأحوذى (١٥٢/٥)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٧٢٢).

(٢) تفسير القرطبي (٦/١٦)، مرقاة المفاتيح (٣٣٥٠/٨).

وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ^(١) ^(١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ^(٢) ﴿[الأنبياء: ١٩-٢٠].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

فأخبرنا صلى الله عليه وسلم أنه ما من موضع في السموات السبع، إلا وهو مشغول بالملائكة، يتعبدون لربهم؛ تعظيماً لجلاله، وأداءً لبعض حقه، وانقياداً لأمره سبحانه وتعالى.

«وهم في صنوف من العبادة، منهم: من هو قائم أبداً، ومنهم: من هو راجع أبداً، ومنهم: من هو ساجد أبداً، ومنهم: من هو في صنوف آخر، الله أعلم بها.

وهم دائمون في عبادتهم، وتسييحهم، وأذكارهم، وأعمالهم التي أمرهم الله بها، وهم منازل عند ربهم، كما قالت الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ ^(١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ^(١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿[الصافات: ١٦٤-١٦٦]» ^(٣).

ومعنى قولهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] **أي:** ما منّا ملك إلا له موضع مخصوص في السموات، ومقامات العبادة، لا يتجاوزها، ولا يتعدّها.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥] **أي:** نقف صُفُوفاً في الطاعة، فُصُوفُ الملائكة في السماء للعبادة كُصُوفِ الناس في الأرض، كما قال عنهم: ﴿وَالصَّافَتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١] ^(٤).

وفي الحديث: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟»، فقالوا: يا رسول

(١) لا يتعبون، ولا يملون.

(٢) لا يَضْعِفُونَ.

(٣) البداية والنهاية (١/٩٦)، بتصرف يسير.

(٤) تفسير البغوي (٧/٦٣)، تفسير القرطبي (١٥/١٣٧)، تفسير ابن كثير (٧/٤٣).

الله، وَكَيْفَ تَصِفُ الْمَلَائِكَةَ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّنُوفَ الْأَوَّلَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»^(١).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ مِنَ السَّمَوَاتِ لَسَّمَاءَ مَا فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ، إِلَّا وَعَلَيْهِ جِبْهَةٌ مَلَكٍ، أَوْ قَدَمُهُ، قَائِمًا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾^(١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ»^(٢) [الصفات: ١٦٥-١٦٦].

وقال ابن عباس: «ما في السَّمَوَاتِ مَوْضِعُ شِبْرٍ، إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ يُصَلِّي، أَوْ يُسَبِّحُ»^(٣).

وفي هذا الحديث بيان واضح لكمال عظمة الله تعالى، وجلاله، وكمال تعظيم الملائكة له سبحانه وتعالى.



(١) رواه مسلم (٤٣٠).

(٢) تفسير الطبري (١٩/٦٥٢)، تفسير ابن كثير (٧/٣٩).

(٣) تفسير البغوي (٧/٦٣).



الحديث الثلاثون



عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُفْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً، فَقَامَ فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، لَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ.

قال: ثُمَّ رَكَعَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ، يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ، وَالْمَلَكَوَتِ، وَالْكِبْرِيَاءِ، وَالْعَظَمَةِ»، ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ فِي سُجُودِهِ مِثْلَ ذَلِكَ^(١).

هذا الذكر العظيم من الأذكار المشتركة في الركوع، والسُّجود، وقد ثبت في هذا الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كرَّره كثيراً جداً، في الركوع، وفي السُّجود، بمقدار قراءة سورة البقرة قراءة المتدبر، الذي لا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ وَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ.

فتأمل كيف كان طول ركوع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسُجُوده، وخُضوعه، وتعظيمه لربه عزَّ وجلَّ.

(١) رواه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١٠٤٩، ١١٣٢)، وصححه النووي في المجموع (٤١٤/٣)، والألباني في صحيح أبي داود، وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار (٧٤/٢).

والأصل والأغلب في الرُّكُوعِ هُوَ تَعْظِيمُ اللَّهِ تَعَالَى، والأصل والأغلب في السُّجُودِ هُوَ الاجْتِهَادُ فِي الدُّعَاءِ؛ لحديث: «فَأَمَّا الرُّكُوعُ: فَعَظَّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ: فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؛ فَقَمِنْ»^(١) أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»^(٢).

ولذا يقول المُصَلِّي في ركوعه: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ».

فَنَزَّ عَظَمَتَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ حَالِ الْعَبْدِ، وَذَلَّه، وَخُضُوعِهِ، وَقَابَلَ تِلْكَ الْعَظَمَةَ بِهَذَا الدُّلِّ، وَالْإِنْجِنَاءِ، وَالْخُضُوعِ، قَدْ انْخَفَضَ، وَطَأْطَأَ رَأْسَهُ، وَطَوَى ظَهْرَهُ، وَرَبُّهُ فَوْقَهُ يَرَى خُضُوعَهُ، وَذَلَّه، وَيَسْمَعُ كَلَامَهُ، فَهُوَ رُكْنٌ تَعْظِيمٍ، وَإِجْلَالٍ^(٣).

وكان النبي ﷺ يقول في الرُّكُوعِ أَيْضًا: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَخُيَّي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي»^(٤).

لَكِنْ لَا يَمْتَنِعُ الدُّعَاءُ فِي الرُّكُوعِ بِمَا وَرَدَ، كَمَا لَا يَمْتَنِعُ التَّعْظِيمُ فِي السُّجُودِ بِمَا وَرَدَ، لَكِنْ يَكُونُ الْغَالِبُ فِي الرُّكُوعِ هُوَ التَّعْظِيمُ، وَالْغَالِبُ فِي السُّجُودِ هُوَ الاجْتِهَادُ فِي الدُّعَاءِ^(٥).

وقد ثَبَتَ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ، وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»^(٦).

وهذا دُعَاءٌ كَانَ يَدْعُو بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رُكُوعِهِ، مَعَ التَّسْبِيحِ.

(١) حقيق وجدير.

(٢) رواه مسلم (٤٧٩).

(٣) شفاء العليل لابن القيم (ص ٢٢٨)، الصلاة وحكم تاركها (ص ١٤٥).

(٤) رواه مسلم (٧٧١).

(٥) إحكام الأحكام لابن دقيق العيد (١/ ٣١٥)، وفتح الباري (٢/ ٢٨١، ٣٠٠).

(٦) رواه البخاري (٧٩٤)، ومسلم (٤٨٤).

وعنها، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ، وَسُجُودِهِ: «سُبُّوحٌ»^(١)
قُدُّوسٌ^(٢)، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ، وَالرُّوحِ»^(٣).

وكان ﷺ يقول في سُجُودِهِ أَيضًا: «اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ،
وَلَكَ أَسَلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ، وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ
أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»^(٤). وهذا تعظيمٌ كان يقوله ﷺ في سُجُودِهِ.

فالرُّكُوعُ محلُّ التَّعْظِيمِ، وهو والسُّجُودُ حالتا ذُلٍّ، وخُضُوعٍ، وانخِفاضٍ؛ ولذا كان
النَّبِيُّ ﷺ يقولُ فِيهَا: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ، وَالْمَلَكُوتِ، وَالْكِبَرِيَاءِ، وَالْعَظَمَةِ».

«سُبْحَانَ»: التَّسْبِيحُ: التَّنْزِيهُ، وَالتَّقْدِيسُ، وَالتَّبَرُّتُ مِنَ النَّفَائِصِ^(٥).

أي: أُنْزَهُ اللَّهَ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ، وَعَيْبٍ، وَسَوْءٍ، وَمَا لَا يَلِيْقُ بِكَمَالِهِ، وَجَلَالِهِ،
كَالْجَهْلِ، وَالْعَجْزِ، وَالتَّعَبِ، وَالْإِعْيَاءِ.

«الْجَبَرُوتِ»: مَا خُوذَ مِنَ الْجَبْرِ، وَالْقَهْرِ، وَ«الْمَلَكُوتِ»: مَا خُوذَ مِنَ «الْمُلْكِ»،
مِثْلُ: الرَّهْبَةِ، وَالرَّهْبُوتِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالرَّحْمُوتِ.

وهيَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ؛ فَ«الْمُلْكُ»، وَ«الْمَلَكُوتُ» بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَ«الْجَبْرُ»
وَ«الْجَبَرُوتُ» بِمَعْنَى وَاحِدٍ، لَكِنْ زِيدَتِ الْوَاوُ، وَالتَّاءُ؛ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الصِّفَةِ.

فالمعنى: صَاحِبُ الْجَبْرِ وَالْقَهْرِ الْعَظِيمِ، وَصَاحِبُ الْمُلْكِ الْعَظِيمِ، ظَاهِرًا، وَبَاطِنًا^(٦).

(١) مُبْرَأً وَمَنْزَهُ مِنَ النَّفَائِصِ، وَالشَّرِّكَ، وَمَا لَا يَلِيْقُ.

(٢) مُبَارَكٌ، أَوْ: طَاهِرٌ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ.

(٣) رواه مسلم (٤٨٧).

(٤) رواه مسلم (٧٧١).

(٥) النهاية (٣٣١/٢)، ولسان العرب (٤٧١/٢).

(٦) تفسير الطبري (٣٤٧/٩)، النهاية لابن الأثير (٢٣٦/١)، (٣٥٩/٤)، تفسير القرطبي (٢٣/٧)،

(٣٣٠)، تفسير ابن كثير (٥٩٦/٦)، مرقاة المفاتيح (٧١٥/٢).

فَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْجَبَّارُ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ
الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾
[الحشر: ٢٣].

و«الْجَبَّارُ» لَهُ ثَلَاثَةُ مَعَانٍ، كُلُّهَا دَاخِلَةٌ فِيهِ: الرَّؤُوفُ، الْقَهَّارُ، الْعَلِيُّ:

١ - بِمَعْنَى الرَّؤُوفِ، فَهُوَ يَجْبِرُ الضَّعِيفَ، وَالْكَسِيرَ، وَالْمُصَابَ، وَيَجْبِرُ قُلُوبَ
الْمُحِبِّينَ لَهُ الْخَاضِعِينَ لِعَظَمَتِهِ، وَجَلَالِهِ، بِأَيْفِضُ عَلَيْهِمْ مِنْ كَرَامَاتِهِ،
وَبَرَكَاتِهِ.

٢ - بِمَعْنَى الْقَهَّارِ لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي دَانَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَخَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ.

٣ - قَالَ قَتَادَةُ: «جَبَرَ خَلْقَهُ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ أَمْرِهِ»^(١).

٤ - بِمَعْنَى الْعَلِيِّ الْأَعْلَى، فَهُوَ الْأَعْلَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَعْنَى رَابِعٌ، وَهُوَ: الْمُتَكَبِّرُ عَنْ كُلِّ سَوْءٍ، وَنَقْصٍ، وَعَنْ ثَمَائِلَةِ أَحَدٍ،
وَعَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ كُفُوٌّ، أَوْ ضِدٌّ، أَوْ سَمِيٌّ، أَوْ شَرِيكٌ، فِي خَصَائِصِهِ، وَحُقُوقِهِ^(٢).

يَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «نَوَيْتِهِ»:

وَالْجَبْرُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ	وَكَذَلِكَ الْجَبَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ
ذَا كَسْرَةٍ، فَالْجَبْرُ مِنْهُ دَانٍ	جَبْرُ الضَّعِيفِ وَكُلُّ قَلْبٍ قَدْ غَدَا
لَا يَنْبَغِي لِسِوَاهُ مِنْ إِنْسَانٍ	وَالثَّانِي جَبْرُ الْقَهْرِ بِالْعِزِّ الَّذِي
لَوْ فَلَيْسَ يَدْنُو مِنْهُ مِنْ إِنْسَانٍ	وَلَهُ مُسَمًّى ثَالِثٌ وَهُوَ الْعُدْ

وَقَالَ:

سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْإِكْرَامِ وَالسُّبْحَانِ

(١) تفسير الطبري (٢٢/٥٥٤).

(٢) شأن الدعاء للخطابي (ص ٤٨)، شفاء العليل لابن القيم (ص ١٢١)، تفسير أسماء الله الحسنى

للسعدى (ص ١٧٦).

والله تعالى هو المَلِكُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، صَاحِبُ الْمُلْكِ: المَوْصُوفُ بصفاتِ الْعَظَمَةِ، والكِبَرِيَاءِ، والقَهْرِ، والتدبيرِ، الذي له التَّصَرُّفُ الْمُطْلَقُ، في الخَلْقِ، والأَمْرِ، والجزاءِ، والكلُّ في العالمِ العلويِّ، والسُّفْلِيِّ، عبيده، ومماليكه، ومُضْطَرَّوْنَ إليه، فهو الأمرُ النَّاهِي، الْمُعِزُّ، المُذِلُّ، يُصَرِّفُ أُمُورَ عِبَادِهِ كما يُحِبُّ، وَيُقَلِّبُهُمْ كما يَشَاءُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى^(١).

كما قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿لِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠].

و«الكِبَرِيَاءِ»: الْعَظَمَةُ وَالْمُلْكُ، وَالْجَلَالُ، وَالْمَجْدُ، مِنْ «الكِبَرِ» بمعنى: الْعَظَمَةِ.

وقيل: هي عبارة عن كمالِ الذَّاتِ، وكمالِ الوجودِ، ولا يوصَفُ بها إِلَّا اللهُ تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجنَّة: ٣٧].

وَمِنْ أَسْمَائِهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: «الْمُتَكَبِّرُ»، و«الكَبِيرُ»؛ **أي**: الْعَظِيمُ ذُو الْكِبَرِيَاءِ، وقيل: الْمُتَعَالِي عَنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ، وقيل: الْمُتَكَبِّرُ وَالْمُنْتَزِعُ عَنِ السُّوءِ، وَالنَّقْصِ، وَالْعُيُوبِ^(٢).

و«الْعَظَمَةُ»: معناها قَرِيبٌ مِنْ «الْكِبَرِيَاءِ»، لَكِنَّ الْكِبَرِيَاءَ أَعْلَى؛ وَلِذَا جَاءَ فِي

(١) تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص ٢٣٤).

(٢) النهاية (٤/ ١٤٠)، لسان العرب (٥/ ١٢٥)، المرقاة (٣/ ٢٤٧)، عون المعبود (٣/ ٨٩)، تفسير

السعدي (ص ٧٧٨، ٨٥٤).

الحديث: «الكبرياءُ ردائي، والعظمةُ إزارِي -وفي روايةٍ: والعِزَّةُ إزارِي-، فَمَنْ نازَعَنِي واحِدًا مِنْهُما أُلْقِه في النَّارِ»^(١).

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللهُ: «والعِظَمَةُ، والكِبَرِيَاءُ، مِنْ خِصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ، والكِبَرِيَاءُ أَعْلَى مِنَ الْعِظَمَةِ؛ وَلِهَذَا جَعَلَهَا بِمَنْزِلَةِ الرَّدَاءِ، كَمَا جَعَلَ الْعِظَمَةَ بِمَنْزِلَةِ الْإِزَارِ»^(٢).



(١) رواه أبو داود (٤٠٩٠)، والإمام أحمد (٧٣٨٢)، وتقدم الكلام عليه.

(٢) العبودية لابن تيمية (ص ٩٩).

الحديث الحادي والثلاثون

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَشْكُو زَوْجَهَا، فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١] الْآيَةَ^(١).

هذا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، كَانَ شَيْخًا كَبِيرًا، اشْتَكَتْهُ زَوْجَتُهُ، وَشَكَتَ حَالَهُ، وَحَالَهَا، إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَحَاوَرَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا جَرَى بَيْنَهُمَا، لَمَّا حَرَّمَهَا عَلَى نَفْسِهِ بِالظَّهَارِ - وَكَانَ مِنْ طَلَاقِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ - بَعْدَ الصُّحْبَةِ الطَّوِيلَةِ، وَالْأَوْلَادِ، وَرَاجَعَتِ الْكَلَامَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَرَّرَتْ، وَأَعَادَتْ^(٢).

وَكَانَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، وَالْمَرْأَةُ تُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَقُولُ: «فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا»، وَفِي رَوَايَةٍ: «وَمَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ»^(٣).

لَكِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سَمِعَ قَوْلَهَا، وَشَكَاوَهَا، وَجَادَلَتَهَا، مِنْ فَوْقِ

(١) أخرجه البخاري تعليقا (٩/١١٧)، ووصله النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨)، وصححه: ابن تيمية، وابن الملقن، وابن حجر، والألباني.

(٢) تفسير البغوي (٨/٥٠)، تفسير السعدي (ص ٨٤٣).

(٣) رواه ابن ماجه (١٨٨)، وأحمد (٢٤١٩٥).

سَمِعَ سَمَواتٍ؛ ولذا قال في خِتَامِ الآيَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]؛ فهو «سَمِيعٌ لِمَا تُنَاجِيهِ، وَتَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ، بَصِيرٌ بِمَنْ يَشْكُو إِلَيْهِ»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: لجميع الأصوات، في جميع الأوقات، على تَفَنُّنِ الحاجات.

﴿بَصِيرٌ﴾: يُبْصِرُ دَيْبَ النَّمْلَةِ السَّوداءِ، على الصَّخْرَةِ الصَّماءِ، في اللَّيْلَةِ الظُّلَماءِ.

وهذا إخبارٌ عَنْ كَمالِ سَمْعِهِ، وَبَصَرِهِ، وإِحاطَتِها بِالْأُمُورِ الدَّقِيقَةِ، والجَلِيلَةِ.

وفي ضَمَنِ ذلك: الإِشارةُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُزِيلُ شَكْواها، وَيَرْفَعُ بَلْواها؛ ولهذا ذَكَرَ حُكْمَها، وَحُكْمَ غَيْرِها، على وَجْهِ الْعُمُومِ في الآياتِ التي بَعَدَها^(٢).

وَصَدَقَ اللَّهُ تَعَالَى إِذْ يَقُولُ: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] وقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّهُ اللَّهُ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

ولذا قالت أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْواتُ» **أي:** أَدْرَكَ سَمْعُهُ الْأَصْواتَ، وَأَحاطَ بِها كُلُّها، لا يَفُوتُهُ مِنْها شَيْءٌ وَإِنْ خَفِيَ، ولا تَخْتَلَفُ عَلَيْهِ أَصْواتُ الْخَلْقِ، ولا تَشْتَبِهُ عَلَيْهِ، ولا يَشْغَلُهُ مِنْها سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، ولا تُغْلِطُهُ كَثْرَةُ الْمَسائِلِ، والسَّائِلِينَ^(٣).

وقولُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هَذَا يَدُلُّ على أَنَّ الصَّحابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ آمَنُوا بِالنُّصُوصِ على ظاهِرِها الَّذِي يَتبادَرُ إلى الفَهِمِ، وَأَنَّ هَذَا هوَ الَّذِي أَرادَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ، وَمِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ.

إِذْ لَوْ كانَ هَذَا الَّذِي آمَنُوا بِهِ، واعتَقَدوه خَطَأً؛ لَمْ يُقَرُّوا عَلَيْهِ، وَلَبِثَ هُمْ الصَّوابُ،

(١) تفسير البغوي (٨/ ٥٠).

(٢) تفسير السعدي (ص ٨٤٣)، بتصرف.

(٣) طريق المهجرتين (ص ١٢٧)، شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ١٨٩).

وَلَمْ يَأْتِ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ تَأْوِيلُ هَذِهِ النُّصُوصِ، وَصَرَفُهَا عَنْ ظَوَاهِرِهَا، لَا مِنْ طَرِيقٍ صَحِيحٍ، وَلَا ضَعِيفٍ، مَعَ تَوَافُرِ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِ ذَلِكَ.

مِمَّا يُبَيِّنُ قَطْعًا أَنَّ الَّذِي أُرِيدَ مِنْهُمْ، وَمِنْ كُلِّ مُؤْمِنٍ، هُوَ ظَاهِرُ الْخُطَابِ، وَهَذَا وَاضِحٌ لِمَنْ تَأَمَّلَ النُّصُوصَ، وَعَرَفَ حَالَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ بَطْلَانُ التَّأْوِيلِ، وَأَنَّهُ سُلُوكٌ غَيْرُ سَبِيلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَحَابَتِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ^(١).

وَسَمِعُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَوَعَانٍ: سَمْعٌ إِذْرَاكِ، وَسَمْعٌ إِبَاجِيَّةٌ:

• **الْأَوَّلُ:** سَمِعُهُ لَجْمِيعِ الْأَصْوَاتِ الظَّاهِرَةِ، وَالْبَاطِنَةِ، الْخَفِيَّةِ، وَالْجَلِيَّةِ،

وَإِحَاطَتُهُ التَّامَّةُ بِهَا، فَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ.

• **وَالثَّانِي:** سَمْعٌ الْإِبَاجِيَّةُ مِنْهُ لِلسَّائِلِينَ، وَالدَّاعِينَ، وَالعَابِدِينَ، فَيُجِيبُهُمْ، وَيُثَبِّتُهُمْ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] **أَي:** مُجِيبُهُ.

وَقَوْلُ الْمُصَلِّي «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» **أَي:** اسْتَجَابَ لَهُ، فَأَثَابَهُ^(٢).

وَالسَّمْعُ الثَّانِي: «سَمْعُ الْإِبَاجِيَّةِ»، لَا يُنَافِي الْأَوَّلَ: «سَمْعُ الْإِذْرَاكِ»، وَلَيْسَ هُوَ

تَأْوِيلًا لَهُ؛ بَلْ هُوَ إِثْبَاتٌ لَهُ، وَمِنْ لَوَازِمِهِ؛ فَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى مُجِيبُ دَعَوَاتِ الدَّاعِينَ،

وَالسَّائِلِينَ؛ فَيَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ يَسْمَعُهَا؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَسْمَعُ، وَهُوَ مُجِيبُ.



(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ١٨٩).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٧٩)، تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص ٢٠٩)، شرح العقيدة السفارينية

لابن عثيمين (ص ١٨٥)، شرح الواسطية (١/ ٢٠٦)، شرح رياض الصالحين (٥/ ٥٥١).

الحديث الثاني والثلاثون

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ:

«إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ».

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»^(١).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ، وَبِمَا جِئْتَ بِهِ: فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟

قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»^(٢).

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٨٧)، وحسنه، وابن ماجه (٣٨٣٤)، ورواه ابن منده في الرد على الجهمية (٢٥)، من حديث جابر، وقال: «هذا حديث ثابت باتفاق».

في هذا الحديث بيان: أن الله تعالى مُتَصَرِّفٌ في قُلُوبِ عِبَادِهِ كَيْفَ شَاءَ، لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَلَا يَفُوتُهُ مَا يُرِيدُهُ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ قَلْبَهُ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاعَهُ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَنَحْنُ نُوْمِنُ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدِينُ، وَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَصَابِعُ حَقِيقَةً، نُسَبِّحُهَا لَهُ كَمَا أَثْبَتَهَا لَهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَكَمَالِهِ، مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ، وَلَا تَمَثِيلٍ، وَلَا تَكْيِيفٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿[الشورى: ١١]﴾.

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ الْقُلُوبَ كُلَّهَا بَيْنَ إَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ جَلَّ وَعَالَى، عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ، وَلَا نَقُولُ كَمَا يَقُولُ مَنْ تَأَوَّلَ الْحَدِيثَ: الْحَدِيثُ كِنَايَةٌ عَنْ سُلْطَانِ اللَّهِ، وَتَصَرُّفِهِ فِي الْقُلُوبِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي قُلُوبِنَا أَصَابِعُ!

بَلْ نُثْبِتُهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَلَا يَلْزَمُ مَنْ كَوَّنَ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ بَيْنَ إَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، أَنْ تَكُونَ مُمَاسَّةً، وَمُبَاشِرَةً لَهَا، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ الْحُلُولُ بِأَنْ تَكُونَ أَصَابِعُ اللَّهِ دَاخِلٌ أَجْوَافِنَا!

وهذا الذي دَعَا مَنْ تَأَوَّلَ الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ يَقُولَ: يَجِبُ صَرْفُهُ عَنْ ظَاهِرِهِ حَتَّى لَا يُتَوَهَّمِ الْحُلُولُ! وهذا خطأ؛ فَالْبَيِّنَةُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ لَا يَلْزَمُ مِنْهُا المُمَاسَّةُ، وَالْمُبَاشَرَةُ، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فَهَلْ يَلْزَمُ مِنَ الْآيَةِ أَنْ يَكُونَ السَّحَابُ مُلَاصِقًا لِلسَّمَاءِ، وَالْأَرْضِ، مُبَاشِرًا لَهَا؟! لَا يُمَكِّنُ.

وَنَحْنُ نَقُولُ: «سُتْرَةُ الْمُصَلِّي بَيْنَ يَدَيْهِ»، وَلَيْسَتْ هِيَ مُبَاشِرَةٌ لَهُ، وَلَا مُمَاسَّةٌ لَهُ.

وَنَقُولُ: «بَدْرٌ بَيْنَ مَكَّةَ، وَالْمَدِينَةِ»، مَعَ تَبَاعُدِ مَا بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُمَا، فَلَا يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ مُتَّصِلَةً بِهِمَا.

وَنَقُولُ: «شَعْبَانُ بَيْنَ جُمَادَى، وَذِي الْقَعْدَةِ»، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مَوَالِيًا لْجُمَادَى.

فَالْبَيِّنَةُ لَا تَسْتَلْزِمُ الْإِصْصَالَ فِي الزَّمَانِ، أَوْ الْمَكَانِ.

وَإِذَا كَانَتِ الْبَيِّنَةُ لَا تَسْتَلْزِمُ الْمُبَاشَرَةَ، وَالْمُهَاسَّةَ، فِيمَا بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَكَيْفَ بِالْبَيِّنَةِ فِيمَا بَيْنَ الْمَخْلُوقِ، وَالْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الَّذِي وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضَ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ؟!

وَقَدْ دَلَّ الشَّرْعُ، وَالْعَقْلُ، عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَاطِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا يَحِلُّ فِي شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا يَحِلُّ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَجْمَعَ السَّلَفُ عَلَى ذَلِكَ.

فَنُؤْمِنُ بِأَنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَمَا أَخْبَرَنَا نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ، وَلَا يَلْزِمُ مِنْ ذَلِكَ الْمَعَانِي الْفَاسِدَةُ الَّتِي يَتَصَوَّرُهَا بَعْضُ أَهْلِ الْبِدْعِ، بَلْ نَقُولُ كَمَا قَالَ نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَقِيقَةً بِلَا تَأْوِيلٍ.

وُنَبِّتُ مَعَ ذَلِكَ -أَيْضًا- أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَصَرَّفُ فِي هَذِهِ الْقُلُوبِ كَمَا يَشَاءُ، وَنَقُولُ كَمَا كَانَ يَقُولُ نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»^(١).

فَالْحَاصِلُ: أَنَّ قُلُوبَ الْعِبَادِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ تَعَالَى، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهَا كَيْفَ شَاءَ، وَيُقَلِّبُهَا حَيْثُ شَاءَ، وَنَوَاصِي الْعِبَادِ بِيَدِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

«فَيَأْتِيَكُمْ أَنْ تَرُدُّوا أَمْرَ اللَّهِ أَوَّلَ مَا يَأْتِيكُمْ، فَيُحَالُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ إِذَا أَرَدْتُمُوهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَتُخْتَلَفَ قُلُوبُكُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، يُقَلِّبُ الْقُلُوبَ حَيْثُ شَاءَ، وَيُصَرِّفُهَا أَنَّى شَاءَ.

(١) التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٧٣)، أساء الله وصفاته لابن عثيمين (ص ٤٥)، القواعد المثلى (ص ٥١)، تقريب التدمرية (ص ٦٢)، القول المفيد (٢/ ٥٢٨)، تفسير الفاتحة والبقرة (٢/ ٢١٨).

فليكثر العبدُ من قول: يا مقلبَ القلوبِ، ثبَّتْ قلبي على دينك، يا مُصَرِّفَ القلوبِ، اصْرِفْ قلبي إلى طاعتِكَ»^(١).

وَمِنْ دُعَاءِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وَمِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي»^(٢).

فَاللَّهُ تَعَالَى بِعِزَّتِهِ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، فَهُوَ لِكَمَالِ عِزَّتِهِ، وَغِنَاهُ، لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ الطَّائِعِينَ، وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ الْعَاصِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنٌّ عَنِ عِبَادِهِ الْأَكْفَرُ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وَقَالَ: ﴿فَمَنْ أَهْتَكَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٤١].

فَمَنْ اسْتَعَاذَ بِعِزَّةِ اللَّهِ، وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِعِزَّتِهِ، وَتَوَحَّيْدِهِ؛ هَدَاهُ وَنَجَّاهُ مِنَ الضَّلَالَةِ.

فَسَلِّ اللَّهُ تَعَالَى الثَّبَاتَ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَالْإِيْمَانِ، وَالْهُدَايَةِ حَتَّى الْمَمَاتِ، وَاسْتَعِذْ بِهِ مِنَ الضَّلَالِ بَعْدَ الْهُدَى.

إِذْ لَمْ يَخْبُ سَعْيِي مَنْ رَجَاكَ	لَا رَبَّ أَرْجُوهُ لِي سِوَاكَ
يَا رَبِّ إِنَّ الْهُدَى هُدَاكَ	إِنْ أَنْتَ لَمْ تَهْدِنَا ضَلَلْنَا
أَنْتَ تَرَانَا وَلَا نَرَاكَ	أَحْطَتْ عَلْمًا بِنَا جَمِيعًا



(١) تفسير السعدي (ص ٣١٨).

(٢) رواه البخاري مختصراً (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧).

الحديث الثالث والثلاثون

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] قال:

«مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيَفْرَجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَخْفِضَ آخَرِينَ»^(١).

فَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، لَهُ مُقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضِ، وَبِيَدِهِ وَحْدَهُ خَزَائِنُهَا، وَهُوَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ الْغَنِيُّ، الَّذِي تَصَمَّدُ إِلَيْهِ^(٢) جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ، فِي جَمِيعِ حَاجَاتِهَا، وَأَحْوَالِهَا، وَضُرُورَاتِهَا، بِالذُّلِّ، وَالْحَاجَةِ، وَالْإِفْتِقَارِ، فَالْكُلُّ خَاضِعٌ لَهُ، مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْغَنِيُّ عَنْ عِبَادِهِ.

وهذا كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

فَهُوَ الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ عَنْ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ وَاسِعُ الْجُودِ، وَالْكَرَمِ، فَكُلُّ الْخَلْقِ

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٢)، وابن حبان في صحيحه (٦٨٩)، وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة (٢٨/١) وكذا حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه، وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢٨/١)، وابن حجر في تغليق التعليق (٣٣٣/٤)، ورواه البيهقي في الشعب (١٠٦٧) موقوفاً على أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذكره عنه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (١٤٤/٦)، ورجَّحه الدارقطني في «العلل» (٢٢٩/٦).

(٢) تقصده.

مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، يَسْأَلُونَهُ جَمِيعَ حَوَائِجِهِمْ، بِحَالِهِمْ، وَمَقَالِهِمْ، وَلَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ طَرَفَةً عَيْنٍ، وَلَا أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ.

وهو تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]: يَغْفِرُ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجُ كَرْبًا، وَيُجِيبُ دَاعِيًا، وَيَكْشِفُ غَمًّا، وَيُعْنِي فَقِيرًا، وَيَجْبُرُ كَسِيرًا، وَيَنْصُرُ مَظْلُومًا، وَيَأْخُذُ ظَالِمًا، وَيَقُتُّ عَانِيًا، وَيُشْفِي مَرِيضًا، وَيُعْطِي قَوْمًا، وَيَمْنَعُ آخَرِينَ، وَيُمِيتُ، وَيُحْيِي، وَيَرْفَعُ، وَيَخْفِضُ، وَيُقِيلُ عَثْرَةً، وَيَسْتُرُ عَوْرَةً، وَيُعِزُّ ذَلِيلًا، وَيُذِلُّ عَزِيزًا، وَيُعْطِي سَائِلًا، وَيَذْهَبُ بِدَوْلَةٍ، وَيَأْتِي بِأُخْرَى، وَيُدَاوِلُ الْأَيَّامَ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَرْفَعُ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ آخَرِينَ، إِلَى مَا لَا يُخْصَى مِنْ أَعْمَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ.

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، وَلَا تُغْلِطُهُ الْمَسَائِلُ، وَلَا يُبْرِئُهُ إِلَّا حَاجُ الْمُلْحِجِينَ، وَلَا طَوْلُ مَسْأَلَةِ السَّائِلِينَ.

قال مُجَاهِدٌ: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ يُجِيبُ دَاعِيًا، وَيَكْشِفُ كَرْبًا، وَيُجِيبُ مُضْطَرًّا، وَيَغْفِرُ ذَنْبًا».

وقال قتادة: «لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ، وَالْأَرْضِ، يُحْيِي حَيًّا، وَيُمِيتُ مَيِّتًا، وَيُزِيلُ صَغِيرًا، وَيَقُتُّ أَسِيرًا، وَهُوَ مُنْتَهَى حَاجَاتِ الصَّالِحِينَ، وَصَرِيحِهِمْ، وَمُنْتَهَى شُكْوَاهُمْ»^(١).

فَسُبْحَانَ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ، الَّذِي عَمَّتْ مَوَاهِبُهُ أَهْلَ الْأَرْضِ، وَالسَّمَاوَاتِ، وَعَمَّ لُطْفُهُ جَمِيعَ الْخَلْقِ فِي كُلِّ الْأَنَاءِ، وَاللَّحْظَاتِ.

وتعالى الَّذِي لَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْإِعْطَاءِ مَعْصِيَةُ الْعَاصِينَ، وَلَا اسْتِغْنَاءُ الْفُقَرَاءِ الْجَاهِلِينَ بِهِ، وَبِكَرَمِهِ.

وهذه الشؤون التي أخبر أنه تعالى كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ هي: تقاديرُه، وتدابيرُه،

(١) تفسير الطبري (٢٣/٣٨)، تفسير ابن كثير (٧/٤٩٥).

التي قَدَّرَهَا فِي الْأَزَلِ، وَقَضَاهَا، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخُمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، لَا يَزَالُ تَعَالَى يُمِضِيهَا، وَيُنْفِذُهَا، فِي أَوْقَاتِهَا الَّتِي اقْتَضَتْهَا حِكْمَتُهُ، وَيَسُوقُهَا إِلَى مَوَاقِيتِهَا، فَلَا يَتَقَدَّمُ مِنْهَا شَيْءٌ عَنْ وَقْتِهِ، وَلَا يَتَأَخَّرُ؛ فَهِيَ مَا أَحْصَاهُ كِتَابُهُ، وَجَرَى بِهِ قَلَمُهُ، وَنَقَذَ فِيهِ حُكْمُهُ، وَسَبَقَ بِهِ عِلْمُهُ.

وَهِيَ أَحْكَامُهُ الدِّينِيَّةُ الَّتِي هِيَ الْأَمْرُ، وَالنَّهْيُ، وَالْقَدَرِيَّةُ الَّتِي يُجْرِيهَا عَلَى عِبَادِهِ، مُدَّةَ مُقَامِهِمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَهُوَ سُجَّانُهُ وَتَعَالَى الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمَالِكِ كُلِّهَا وَحْدَهُ، تَصَرَّفَ مَلِكٌ قَادِرٌ قَاهِرٌ، عَادِلٌ رَحِيمٌ، تَامَّ الْمُلْكُ، لَا يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ مُنَازِعٌ، وَلَا يُعَارِضُهُ فِيهِ مُعَارِضٌ.

فَتَصَرَّفَهُ فِي الْمَمْلَكَةِ دَائِرٌ بَيْنَ الْعَدْلِ، وَالْإِحْسَانِ، وَالْحِكْمَةِ، وَالْمَصْلَحَةِ، وَالرَّحْمَةِ؛ فَلَا يَخْرُجُ تَصَرُّفُهُ عَنْ ذَلِكَ^(١).

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيَرْفَعُ قَوْمًا» أَي: يَرْفَعُهُمْ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعُلَى بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ، أَوْ يَرْفَعُهُمْ بِحُظُوظِ الدُّنْيَا مِنَ الرِّزْقِ، وَغَيْرِهِ.

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيَخْفِضُ آخَرِينَ» أَي: إِلَى الدَّرَكَاتِ السُّفْلَى بِسُوءِ أَعْمَالِهِمْ، أَوْ بِتَقْلِيلِ أَرْزَاقِهِمْ، وَمَعَاشِهِمْ^(٢).

وَهَذَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «يَخْفِضُ الْقِسْطَ، وَيَرْفَعُهُ»^(٣)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ، يَخْفِضُ، وَيَرْفَعُ»^(٤).

فَاللَّهُ تَعَالَى يَجْزِيكُمْ فِي خَلْقِهِ بِمِيزَانِ الْعَدْلِ، فَمَنْ عَمِلَ مَا يَسْتَحِقُّ الرِّفْعَ رَفَعَهُ، وَمَنْ عَمِلَ مَا يَسْتَحِقُّ الْخَفْضَ خَفَضَهُ.

(١) تفسير البغوي (٧/ ٤٤٥)، طريق المهجرتين (ص ١٢٣)، تفسير ابن كثير (٧/ ٤٩٤)، تفسير السعدي (ص ٨٣٠).

(٢) مشارق الأنوار الوهاجة شرح سنن ابن ماجه، للإيثوبي (٤/ ١٩١).

(٣) رواه مسلم (١٧٩).

(٤) رواه البخاري (٧٤١١)، ومسلم (٩٩٣).

فِيخْفُضُ الْمِيزَانَ تَارَةً بِتَقْتِيرِ الرِّزْقِ، وَالْخِذْلَانِ بِالْمَعْصِيَةِ، وَيَرْفَعُهُ تَارَةً بِتَوْسِيعِ
الرِّزْقِ، وَالتَّوْفِيقِ لِلطَّاعَةِ، عَدْلًا، وَحِكْمَةً.

فَاللَّهُ تَعَالَى يَخْفِضُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُوسِّعُ الرِّزْقَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ،
وَيُضَيِّقُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ^(١).



(١) أعلام الحديث للخطابي (٣/ ١٨٦٢)، المفهم للقرطبي (١/ ٤٠٩)، شرح النووي على مسلم (٣/ ١٣)،
٨٠/ ٧، فتح الباري (١٣/ ٣٩٥)، إرشاد الساري للقسطلاني (٧/ ١٦٩، ١٠/ ٣٨٧)، مرقاة المفاتيح
(١/ ١٦٥)، شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١/ ٣٠٦).

الحديث الرابع والثلاثون

عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَثَابِتٌ، عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَقَالَ ثَابِتٌ: يَا أَبَا حَمْرَةَ، اسْتَكْنَيْتُ، فَقَالَ أَنَسٌ: أَلَا أَرْفِيكَ بِرُفْقَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، فَذْهَبِ الْبَاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»^(١).

وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوِّذُ بِغُضْهِمْ، يَمْسُكُهُ بِيَمِينِهِ:

«أَذْهَبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»^(٢).

وَعَنْهَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اسْتَكْنَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اسْتَدَّ وَجْعُهُ، كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ، وَأَفْسَحُ عَنْهُ بِيَدِهِ، رَجَاءَ بَرَكَتِهَا»^(٣).

ورَقَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اسْتَكْنَيْتَ؟

(١) رواه البخاري (٥٧٤٢).

(٢) رواه البخاري (٥٧٥٠)، ومسلم (٢١٩١).

(٣) رواه البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢).

فَقَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: «بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ^(١)، أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ»^(٢).

وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْقِي الْحَسَنَ، وَالْحُسَيْنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَكَانَ يُعَوِّذُهُمَا وَيَقُولُ: «أُعِيدُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ، وَهَامَّةٍ^(٣)، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ^(٤)»، وَيَقُولُ: «هَكَذَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يُعَوِّذُ إِسْحَاقَ وَإِسْمَاعِيلَ»^(٥).

وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ شَكَاَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ضَغْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ -ثَلَاثًا-، وَقُلْ -سَبْعَ مَرَّاتٍ-: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ، وَأُحَازِرُ»^(٦).

فَاللَّهُ تَعَالَى مِنْ عَظَمَتِهِ، وَعِزَّتِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشَّافِي وَحْدَهُ، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُهُ، وَلَا شَافِيَ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الشِّفَاءِ مِنَ الْأَمْرَاضِ إِلَّا هُوَ، بِمَا يَقْدِرُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَوْصِلَةِ إِلَيْهِ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

«فَمَا يَقَعُ مِنَ الدَّوَاءِ، وَالتَّدَاوِي، إِنْ لَمْ يُصَادِفْ تَقْدِيرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَّا فَلَا يَنْجَعُ»^(٧).
يَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَالْبُرْءُ لَيْسَ فِي وُسْعِ خَلْقٍ أَنْ يُعَجِّلَهُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ، أَوْ أَنْ يُقَدَّرَ وَقْتُهُ، وَحِينُهُ.

(١) نفس الأدمي، أو العين.

(٢) رواه مسلم (٢١٨٦).

(٣) كُلِّ ذَاتِ سُمْ يَقْتُلُ.

(٤) تصيب بسوء إذا حَلَّتْ وَأَلَّتْ بِهِ.

(٥) رواه البخاري (٣٣٧١)، والترمذي (٢٠٦٠) واللفظ له.

(٦) رواه مسلم (٢٢٠٢).

(٧) فتح الباري (١٠/٢٠٧).

وَقَدْ رَأَيْنَا الْمُتَسِّبِينَ إِلَى عِلْمِ الطَّبِّ يُعَالِجُ أَحَدُهُمْ رَجُلَيْنِ، وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّ عِلَّتَهُمَا وَاحِدَةً، فِي زَمَنٍ وَاحِدٍ، وَسِنٍّ وَاحِدٍ، وَبَلَدٍ وَاحِدٍ، وَرُبَّمَا كَانَا أَخَوَيْنِ تَوَآمِيْنِ، غِذَاؤُهُمَا وَاحِدٌ، فَعَالَجَهُمَا بِعِلَاجٍ وَاحِدٍ، فَيُفِيْقُ أَحَدُهُمَا، وَيَمُوتُ الْآخَرُ، أَوْ تَطْوُلُ عِلَّتُهُ، ثُمَّ يُفِيْقُ عِنْدَ الْأَمَدِ الْمَقْدُورِ لَهُ»^(١).

وَلِذَا تَوَسَّلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ الرُّقِيَّةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى «بِكَمَالِ رُبُوبِيَّتِهِ»^(٢)، وَكَمَالِ رَحْمَتِهِ بِالشِّفَاءِ^(٣)، وَأَنَّهُ وَحْدَهُ الشَّافِي، وَأَنَّهُ لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُهُ، فَتَضَمَّنَتْ التَّوَسُّلَ إِلَيْهِ بِتَوْحِيدِهِ، وَإِحْسَانِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ»^(٤).

فَالْمَرِيضُ يَتَوَسَّلُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ بِرُبُوبِيَّتِهِ الْعَامَّةِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ»؛ فَهُوَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْخَالِقُ، الْمَالِكُ، الْمُدَبِّرُ لَجَمِيعِ الْأُمُورِ.

فَشِفَاءُ اللَّهِ تَعَالَى لَا شِفَاءَ غَيْرُهُ، وَشِفَاءُ الْمَخْلُوقِينَ مَا هُوَ إِلَّا سَبَبٌ، وَالطَّبِيبُ سَبَبٌ، وَالِدَوَاءُ سَبَبٌ، وَالشَّافِي هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ^(٥).

وَاللَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ؛ لِيَكُونَ هِدَايَةً لِلْعَالَمِينَ، فَهُوَ الْهُدَى، وَالرَّحْمَةُ الْعَامَّةُ، وَالنُّورُ الْهَادِي، وَالْبَلَغُ، وَالْمَوْعِظَةُ، وَالْفُرْقَانُ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وَجَعَلَهُ اللَّهُ شِفَاءً لِّأَمْرَاضِ الْقُلُوبِ: «الشِّفَاءُ الْمَعْنَوِيُّ الرُّوحِيَّ»، وَأَمْرَاضِ الْأَبْدَانِ «الشِّفَاءُ الْمَادِّيَّ»؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وَقَالَ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وَ«مِنْ» هُنَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ، وَلَيْسَ لِلتَّبْعِيضِ، فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ شِفَاءٌ.

(١) التمهيد (٥/ ٢٦٤).

(٢) رَبَّ النَّاسِ.

(٣) مَذْهَبُ الْبَاسِ.

(٤) زَادَ الْمَعَاد (٤/ ١٧٣).

(٥) شَرْحُ رِيَاضِ الصَّالِحِينَ لِابْنِ عَثِيمِينَ (٤/ ٤٧٩).

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فَالْقُرْآنُ هُوَ الشِّفَاءُ النَّامُ مِنْ جَمِيعِ الْأَدْوَاءِ الْقَلْبِيَّةِ، وَالبَدَنِيَّةِ، وَأَدْوَاءِ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ^(١)، وَمَا كُلُّ أَحَدٍ يُؤْهَلُ وَلَا يَوْفَقُ لِلْإِسْتِشْفَاءِ بِهِ، وَإِذَا أَحْسَنَ الْعِلُّ التَّدَاوِي بِهِ، وَوَضَعَهُ عَلَى دَائِهِ بِصِدْقٍ، وَإِيمَانٍ، وَقَبُولٍ تَامٍّ، وَاعْتِقَادٍ جَازِمٍ، وَاسْتِيفَاءٍ شُرُوطِهِ؛ لَمْ يَقَاوِمْهُ الدَّاءُ أَبَدًا.

وَكَيْفَ نُقَاوِمُ الْأَدْوَاءَ كَلَامَ رَبِّ الْأَرْضِ، وَالسَّمَاءِ؟ الَّذِي لَوْ نَزَلَ عَلَى الْجِبَالِ لَصَدَعَهَا مِنْ عَظَمَتِهِ، وَجَلَالَتِهِ، أَوْ عَلَى الْأَرْضِ لَقَطَعَهَا.

فَمَا مِنْ مَرَضٍ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ، وَالْأَبْدَانِ، إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ سَبِيلُ الدَّلَالَةِ عَلَى دَوَائِهِ، وَسَبَبِهِ، وَالْوِقَايَةِ مِنْهُ، لَمَنْ رَزَقَهُ اللهُ فَهَمًّا فِي كِتَابِهِ^(٢).

وَفِي الْحَدِيثِ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً، إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»^(٣).

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ، بَرَأَ بِإِذْنِ اللهِ عَزَّجَلَّ»^(٤).

وَهَذَا يُعْمُ الْأَدْوِيَّةَ الْحَسِّيَّةَ، وَغَيْرَهَا، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الدَّوَاءُ بِالْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ الشِّفَاءُ التَّامُّ؟ وَالَّذِي فِيهِ مِنَ الْأَدْوِيَّةِ الَّتِي تَشْفِي مِنَ الْأَمْرَاضِ، مَا لَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهَا عَقُولُ أَكْبَارِ الْأَطِبَّاءِ، وَلَمْ تَصِلْ إِلَيْهَا عُلُومُهُمْ، وَتَجَارِبُهُمْ، وَأَقْيَسَتُهُمْ، مِنَ الْأَدْوِيَّةِ الْقَلْبِيَّةِ، وَالرُّوحَانِيَّةِ^(٥).

فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَهْمِيَّةِ الرُّقِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهِيَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْإِلَهِيَّةِ فِي الْعِلَاجِ.

وَالرُّقِيَّةُ: مَأْخُودَةٌ مِنَ الْفِعْلِ «رَقَى»، يُقَالُ: رَقَيْتُهُ، أَرْقِيهِ، يَعْنِي: عَوِذْتُهُ بِاللَّهِ.

(١) أهُوَالِهَا وَمَصَائِبُهَا وَعَذَابُهَا.

(٢) زَادُ الْمَعَادِ (٤/ ١٦٢، ٣٢٢)، بِتَصْرُفٍ.

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٦٧٨).

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٢٠٤).

(٥) انْظُرْ: زَادُ الْمَعَادِ (٤/ ١٠).

فالرُقِيَّةُ: ما يُعوَّذُ بِهِ الْمَرِيضُ مِنَ الْأَدْعِيَةِ؛ لَطَلَبِ الشِّفَاءِ^(١).

وَالرُّقِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ هِيَ الدَّوَاءُ الْمَعْنَوِيُّ الَّذِي هَجَرَهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْيَوْمَ، فَهِيَ عِلَاجٌ لَأَمْرَاضِ الْأَبْدَانِ، كَالصُّدَاعِ، وَأَمْرَاضِ الْبُطْنِ، وَالْآفَاتِ الَّتِي تُصِيبُ الدَّمَ، وَالسَّرَطَانَاتِ، وَغَيْرِهَا، وَالْأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ، وَأَمْرَاضِ الْقُلُوبِ، كَضَيْقِ الصَّدْرِ، وَالْقَلْقِ، وَالْاِكْتِثَابِ، وَالْوَسْوَاسَةِ، وَالْاضْطِرَابَاتِ، وَالتَّوَثُّرِ، وَالْحَسَدِ، وَالْعُرُورِ، وَالْكَبَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فإن قيل: كيف يُفَرَّقُ الْمُسْلِمُ بَيْنَ الْحَالَاتِ الَّتِي تَسْتَدْعِي الرُّقِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ، وَالْحَالَاتِ الَّتِي تَسْتَدْعِي الذَّهَابَ إِلَى طَبِيبٍ، أَوْ أَخْصَائِي نَفْسِي؟

فالجواب: أَنَّ الْعِلَاجَ فِي الْعِيَادَاتِ الطَّبِيبَةِ، النَّفْسِيَّةِ، أَوِ الْعُضْوِيَّةِ، وَالْعِلَاجَ بِالْقُرْآنِ، وَالرُّقَى الشَّرْعِيَّةِ، لَا يَتَنَافَيَانِ؛ فَهُمَا سَبَبَانِ لِحُصُولِ الشِّفَاءِ، يَتَكَامَلَانِ، وَلَا يَتَضَادَّانِ.

فالذي نُنصِّحُ بِهِ: عَدَمُ التَّفْرِيقِ بَيْنَ مُسْتَدْعِيَاتِ الْعِلَاجِ بِالرُّقَى الشَّرْعِيَّةِ، وَمُسْتَدْعِيَاتِ الْعِلَاجِ بِالْأَدْوِيَةِ الْحِسِّيَّةِ.

فمَتَى أُصِيبَ الْإِنْسَانُ بِحَالَةٍ مَرَضِيَّةٍ، مَهْمَا كَانَ تَوْصِيفُهَا؛ فَإِنَّهُ يَسْتَعْمِلُ أَوَّلًا الْعِلَاجَ الشَّرْعِيَّ بِالْقُرْآنِ، وَالرُّقَى، وَالتَّعَاوِذِ الشَّرْعِيَّةِ، فَإِنْ اسْتَمَرَ بِهِ الدَّاءُ، فَإِنَّهُ يَعْزِضُ نَفْسَهُ عَلَى طَبِيبٍ بَشَرِيٍّ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَتْرُكُ الرُّقِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ، وَإِنَّمَا يُضِيفُ إِلَيْهَا الْعِلَاجَ بِالْأَدْوِيَةِ.



(١) الصباح المنير (٢/ ٢٣٦)، حاشية العدوي على الرسالة (٢/ ٤٩٠).



الحديث الخامس والثلاثون



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«أَنَا سَيِّدُ الْقَوْمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، هَلْ تَذَرُونَ بِي؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ
وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُنْصِرُهُمُ النَّاطِرُ، وَيُسَمِّعُهُمُ الدَّاعِي، وَتَدْنُو
مِنْهُمْ الشَّمْسُ، فَيَقُولُ بَغْضُ النَّاسِ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ إِلَيَّ
مَا بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَيَّ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَيَّ رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَغْضُ
النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَهُ...» الْحَدِيثُ، إِلَى أَنْ قَالَ: «فَيَأْتُونِي، فَأَسْجُدُ
تَحْتَ الْعَرْشِ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ازْفَعْ رَأْسَكَ، وَاشْفَعْ تَشْفَعُ، وَاسْلُ تَغْطَهُ»^(١).



(١) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).



الحديث السادس والثلاثون



عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا:
يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ»...
وَسَاقَ الْحَدِيثِ،

وَفِيهِ: «...فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ
الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَنْقُ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبُضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ
مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ، قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي
أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ، يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الْحَيَاةِ»^(١).

فِي هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ إِثْبَاتُ الشَّفَاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَالشَّفَاعَةُ فِي اللُّغَةِ: الْوَسِيلَةُ، وَالطَّلَبُ.

وَفِي الْعُرْفِ: سُؤَالُ الْخَيْرِ لِلْغَيْرِ.

وَالشَّفَاعَةُ عِنْدَ اللَّهِ: سُؤَالُ اللَّهِ التَّجَاوُزَ عَنِ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ لِلْغَيْرِ.

وَحَقِيقَتُهَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِلُطْفِهِ، وَكَرَمِهِ، يَأْذَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِبَعْضِ الصَّالِحِينَ مِنْ

(١) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له.

خَلَقَهُ، مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْمُرْسَلِينَ، وَالْمُؤْمِنِينَ، أَنْ يَشْفَعُوا عِنْدَهُ فِي بَعْضِ أَصْحَابِ
الذُّنُوبِ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ؛ إظهاراً لكرامة الشَّافِعِينَ عِنْدَهُ، وَرَحْمَةً بِالْمَشْفُوعِ فِيهِمْ.

وَلَا تَصِحُّ الشَّفَاعَةُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، إِلَّا بِشَرْطَيْنِ:

• **أحدهما:** إِذْنُ اللَّهِ تَعَالَى لِلشَّافِعِ أَنْ يَشْفَعَ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا الشَّرْطِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ أَكْرَمُ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، لَا يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى
يَسْتَأْذِنَ، وَيَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَيَسْأَلَ رَبَّهُ، حَتَّى يَقُولَ لَهُ: «اشْفَعْ تُشْفَعُ».

الثاني: رضا الله عن المشفوع له، أَنْ يَشْفَعَ فِيهِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا الشَّرْطِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].
وَهَذَانِ الشَّرْطَانِ مُجْمَلَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي
شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

وَقَدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَرْضَى أَنْ يُشْفَعَ إِلَّا فِي أَهْلِ التَّوْحِيدِ؛
لِمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا، وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِيَ دَعْوَتِي؛
شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الْآخِرَةِ».

زَادَ فِي رَوَايَةٍ: «فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي، لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»^(١).

وَقَالَ تَعَالَى فِي الْكَفَّارِ: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

(١) رواه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٩)، والزيادة له.

أَمَّا شَفَاعَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَنْ أَبِي طَالِبٍ؛ فَهِيَ شَفَاعَةٌ خَاصَّةٌ بِهِ وَحْدَهُ.

وَقَدْ صَرَّحَ الْأَئِمَّةُ الْمُحَقِّقُونَ بِتَوَاتُرِ أَحَادِيثِ الشَّفَاعَةِ، وَهِيَ مُشْتَهَرَةٌ فِي كُتُبِ الصَّحَاحِ، وَالْمَسَانِيدِ.

وَتَنْقَسِمُ الشَّفَاعَةُ مِنْ حَيْثُ الْقَبُولِ، وَالرَّدِّ، إِلَى قِسْمَيْنِ:
مَرْدُودَةٍ: وَهِيَ مَا فَقَدَتْ أَحَدَ شَرْطَيْ الشَّفَاعَةِ الْمَذْكُورَيْنِ.
وَمَقْبُولَةٍ: وَهِيَ مَا تَحَقَّقَ فِيهَا شَرْطَا الشَّفَاعَةِ^(١).



(١) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص ٢٣٤).

الحديث السابع والثلاثون

عَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

«يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ، وَالْأَرْضُ، لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ، مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ.

وَيُوضَعُ الصَّرَاطُ مِثْلُ حَدِّ الْمَوْسَى، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: مَنْ تُجِيزُ عَلَيَّ هَذَا؟ فَيَقُولُ: مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَيَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ، مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»^(١).

مِنْ عَقِيدَتِنَا: الْإِيمَانُ بِالْمِيزَانِ، وَالْإِيمَانُ بِالصَّرَاطِ.

(١) رواه الحاكم (٨٧٣٩)، وصححه على شرط مسلم، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٤١)، ورواه المروزي في زوائد الزهد (١٣٥٧)، والآجري في الشريعة (٨٩٤)، عن سلمان من قوله، ورجح وقفه ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١٨/٢) وقال: «الموقوف هو المشهور». وروى مسلم (١٨٣) عن أبي سعيد الخدري قال: «بَلَّغْنِي أَنَّ الْجِسْرَ أَدْقُ مِنَ الشَّعْرَةِ، وَأَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ»، وروى الطبري في تفسيره (٢٣٢/١٨)، والحاكم في مستدركه (٣٤٢٣)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠٣/٩)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢٧٨)، من طرق، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «الصَّرَاطُ عَلَى جَهَنَّمَ مِثْلُ حَدِّ السَّيْفِ» وهو صحيح عن ابن مسعود.

وَهُمَا دَلِيلَانِ عَلَى كِمَالِ عَدْلِ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

والميزان: ميزانٌ حقيقيٌّ محسوسٌ، لَهُ لِسَانٌ^(١) وَكِفَّتَانِ، تَوَزَنُ فِيهِ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، وَيَكُونُ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

«فَإِذَا انْقَضَى الْحِسَابُ؛ كَانَ بَعْدَهُ وَزْنُ الْأَعْمَالِ؛ لِأَنَّ الْوَزْنَ لِلْجَزَاءِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَعْدَ الْمُحَاسَبَةِ؛ فَإِنَّ الْمُحَاسَبَةَ لَتَقْدِيرُ الْأَعْمَالِ، وَالْوَزْنَ لِإِظْهَارِ مَقَادِيرِهَا؛ لِيَكُونَ الْجَزَاءُ بِحَسَبِهَا»^(٢).

وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ: هَلْ هُوَ مِيزَانٌ وَاحِدٌ، تَوَزَنَ بِهِ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، أَمْ أَنَّ الْمَوَازِينَ مُتَعَدِّدَةٌ، فِلْكَلِّ شَخْصٍ مِيزَانُهُ الْخَاصُّ، أَوْ لِكُلِّ عَمَلٍ مِيزَانٌ؟

فَرَجَّحَ الْحَافِظُ ابْنَ كَثِيرٍ، وَالْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: أَنَّهُ مِيزَانٌ وَاحِدٌ، لَكِنْ جُمِعَتْ ﴿الْمَوَازِينُ﴾ [الأنبياء: ٤٧] فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ الْأَعْمَالِ الْمَوْزُونَةِ فِيهِ^(٣).

وَهُوَ مِيزَانٌ دَقِيقٌ عَادِلٌ، يَزِنُ مِثْقَالَ الذَّرَّةِ مِنَ الْعَمَلِ، تَوَزَنَ فِيهِ الْحَسَنَاتُ، وَالسَّيِّئَاتُ، بِكَيْفِيَّةٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

(١) وهي الحديدية التي تكون في وسط الميزان.

(٢) التذكرة للقرطبي (٢/ ٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٤٥)، فتح الباري (١٣/ ٥٣٨).

وَالْوِزْنَ بِالْقِسْطِ فَلَا ظُلْمَ وَلَا
فَبَيْنَ نَاجٍ رَاجِحٍ مِيزَانُهُ
يُؤْخَذُ عَبْدٌ بِسَوْى مَا عَمِلَا
وَمُقَرَّفٍ أَوْبَقَهُ عُذْوَانُهُ

وَلَا يَعْلَمُ قَدْرَ هَذَا الْمِيزَانِ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الْحَدِيثُ: «فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ، وَالْأَرْضُ، لَوَسَّعَتْ»، فـ«الْمِيزَانُ أَوْسَعُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ، وَالْأَرْضِ، فَمَا يَمْلَأُ الْمِيزَانَ فَهُوَ أَكْبَرُ مِمَّا يَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ، وَالْأَرْضِ»^(١).

وَقَدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ عَلَى أَنَّ الَّذِي يوزَنُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثَلَاثَةُ أَشْيَاءٍ:

فِتَارَةٌ تَوْزَنُ الْأَعْمَالُ، وَتَارَةٌ تَوْزَنُ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ، وَتَارَةٌ يَوْزَنُ الْعَامِلُ نَفْسُهُ^(٢).
وَقَدْ يَوْزَنُ كُلُّ ذَلِكَ؛ فَيَوْزَنُ الْعَامِلُ، وَعَمَلُهُ، وَصَحِيفَةُ عَمَلِهِ^(٣).

أَمَّا وَزْنُ الْعَمَلِ: فَيُؤْتَى بِالْأَعْمَالِ خَيْرُهَا، وَشَرُّهَا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتَوْزَنُ فِي الْمِيزَانِ، بَعْدَ أَنْ يَقْلِبَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِقُدْرَتِهِ أَجْسَامًا^(٤).

وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا، قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»^(٥).

وَأَمَّا وَزْنُ صَحَائِفِ الْأَعْمَالِ: فَدَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْبِطَاقَةِ الْمَشْهُورِ، فِي الرَّجُلِ الَّذِي يُنْشَرُّ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ، ثُمَّ تَخْرُجُ بِطَاقَةٌ^(٦) فِيهَا: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»... فَتَوْضَعُ السَّجَلَاتُ فِي

(١) جامع العلوم والحكم (١٨/٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٣٩٠).

(٣) معارج القبول لحافظ الحكمي (٨٤٩/٢)، القيامة الكبرى للأشقر (ص ٢٥٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/٣٨٩)، معارج القبول (٢/٨٤٥).

(٥) رواه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

(٦) رُقْعَةٌ صَغِيرَةٌ.

كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةَ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَتَقَلَّتِ الْبِطَاقَةُ؛ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ^(١).

وَأَمَّا وَزْنُ الْعَامِلِ نَفْسِهِ «صَاحِبِ الْعَمَلِ»: فَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»، وَقَالَ: «اقْرَءُوا: ﴿فَلَا نُفِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]»^(٢).

وَجَاءَ فِي مَنَاقِبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ -، أَنَّ الْقَوْمَ صَحَّحُوا مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَهَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ»^(٣).

وَيَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «نُونِيَّتِهِ»:

أَفَمَا تُصَدِّقُ أَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَا	دُ مُحَطُّ يَوْمَ الْعَرْضِ فِي الْمِيزَانِ؟
وَلِذَاكَ تَثْقُلُ تَارَةً وَتَخِفُّ أُخْرَى	رَى ذَاكَ فِي الْقُرْآنِ ذُو تَبْيَانٍ
وَلَهُ لِسَانٌ كِفَّتَاهُ تُقِيمُهُ	وَالْكِفَّتَانِ إِلَيْهِ نَاطِرَتَانِ
مَا ذَاكَ أَمْرًا مَعْنَوِيًّا بَلْ هُوَ الدِّ	مَحْسُوسٌ حَقًّا عِنْدَ ذِي الْإِيمَانِ

أَمَّا الصِّرَاطُ: فَهُوَ جِسْرٌ مَمْدُودٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، يَرِدُّهُ النَّاسُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾^(٧١) ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿[مريم: ٧١-٧٢]

وَوُرُودُ النَّارِ هُوَ: الْمُرُورُ عَلَى الصِّرَاطِ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَغَيْرُهُمَا^(٥).

(١) رواه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وهو في الصحيحة (١٣٥).

(٢) رواه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٣) رواه الإمام أحمد (٣٩٩١)، وهو في السلسلة الصحيحة (٢٧٥٠).

(٤) النونية (ص ٣٥١).

(٥) تفسير الطبري (٢٣٢/١٨)، تفسير القرطبي (١٣٦/١١).

وَالصِّرَاطُ أَدْقُ مِنَ الشَّعْرِ، وَأَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ، دَخَضَ مَزَلَّةٌ^(١)، فِيهِ خَطَاطِيفُ،
وَكَلَالِبُ، لَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ قَدَمٌ، إِلَّا مَنْ ثَبَّتَهُ اللَّهُ، وَيُنْصَبُ فِي ظُلْمَةٍ، فَيُعْطَى النَّاسُ
أَنْوَارًا عَلَى قَدْرِ إِيْمَانِهِمْ، وَيَمُرُّونَ فَوْقَهُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ^(٢).

كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرَفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرَّيْحِ، وَكَالطَّيْرِ،
وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرَّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلِّمٌ، وَمُخْدَوِّشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ^(٣) فِي نَارِ
جَهَنَّمَ»^(٤).

فَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُثَقِّلَ مَوَازِينَنَا، وَأَنْ يُبَيِّضَ وَجُوهَنَا، وَأَنْ يَثْبِتَنَا عَلَى الصِّرَاطِ.



(١) الموضع الذي تَزَلُّ فيه الأقدام.

(٢) شرح الطحاوية (١/ ٤١٥)، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص ٣٢٧).

(٣) أي: مدفوع.

(٤) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)، واللفظ له.

الحديث الثامن والثلاثون

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ:

«رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلْءُ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضِ، وَمِْلءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ، وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيٍّ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»^(١).

هذا الذكر من أذكار الرفع من الركوع، وفيه ثناء على الله تعالى بما هو أهله، وأنه سبحانه وتعالى يعطي، ويمنع، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع؛ فالخلق خلقه، والأمر أمره: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وقوله: «أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ» يعني: أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ قَوْلُهُ: «لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيٍّ لِمَا مَنَعْتَ...» إلى آخره.

وقوله: «وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ» جملة اعتراضية، والتقدير: فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَقُولَ هَذَا؛ لِأَنَّ كُلَّنَا لَكَ عَبْدٌ.

(١) رواه مسلم (٤٧٧).

وفي هذا دليلٌ ظاهرٌ على فضيلة هذا الذكر؛ فقد أخبر النبي ﷺ، أن هذا أحق ما قاله العبدُ.

وإنما كان أحق ما قاله العبدُ؛ لما فيه من التفويض إلى الله تعالى، والإذعان له، والاعتراف بوحدانيته، والتصريح بأنه لا حول ولا قوة إلا به.

ولما فيه من الحث على الزهد في الدنيا، والإقبال على الأعمال الصالحة، كما قال: **«لَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» أي:** لا ينفع ذا الحط في الدنيا بالمال، والولد، والعظمة، والسلطان، منك حظُّه؛ **أي:** لا ينجيه حظُّه منك، وإنما ينفعه ويُنجيه الإيمان، والعمل الصالح، كما قال: **«الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ تَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا»** ^(١) [الكهف: ٤٦] ^(٢).

وقيل: قوله: **«أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ»** خبرٌ لمبتدأ محذوف، **أي:** هذا الكلام أحق ما قال العبدُ، فيعود على قوله: **«اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِنْ عَالَمَاتِ السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضِ...» أي:** تحميدك، والثناء عليك، وتمجيدك، هو أحق ما قال العبدُ.

وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، قال: «فَبَيَّنَ أَنَّ حَمْدَ اللَّهِ، وَالثَّنَاءَ عَلَيْهِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَفِي ضَمْنِهِ تَوْحِيدَهُ لَهُ، إِذْ قَالَ: **«لَكَ الْحَمْدُ» أي:** لك، لا لغيرك.

وقال في آخره: **«لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُغْطِي لِمَا مَنَعْتَ»**، وهذا يقتضي انفرادَه بالعطاء، والمنع، فلا يُستعانُ إلا به، ولا يُطلبُ إلا منه» ^(٣).

وقوله عن التَّحْمِيدِ: **«(وَمِنْ أَمَلٍ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ)»**: إشارة إلى الاعتراف بالعجز عن أداء حقِّ الحمد، بعد استفراغ المجهود، فهو أعزُّ من أن يُحسبَ، ويُعدَّ.

(١) ما يؤمله الإنسان.

(٢) شرح النووي على مسلم (٤/ ١٩٥)، مرقاة المفاتيح (٢/ ٧١٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٦٥)، (٨/ ٢١٢، ١٤/ ٣١٢، ٣٧٦).

فإنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَمَدَ اللهُ مِلْءَ السَّمَاوَاتِ، والأَرْضِ، ثُمَّ أَحَالَ الأَمْرَ فِيهِ عَلَى مَشِيئَةِ
 اللهُ تَعَالَى، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ الْحَمْدِ مُنْتَهَى، وَلَمْ يَنْتِهِ أَحَدٌ مِّنْ خَلْقِ اللهِ فِي الْحَمْدِ
 مَبْلُغَهُ، وَمُنْتَهَاهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِهَذِهِ الرُّتْبَةُ اسْتَحَقَّ أَنْ يُسَمَّى «أَحْمَد»؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَحْمَدَ
 مِنْ سِوَاهُ^(١).



(١) شرح أبي داود للعيني (٣/ ٣٦٤)، ونُخب الأفكار له (٤/ ٢٩٤).

الحديث التاسع والثلاثون

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهَاجِرَةُ الْبَحْرِ، قَالَ: «أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَجِيبٍ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟»، قَالَ فِتْنَةُ مِنْهُمْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ، مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِيْنِهِمْ، تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ بِفَتَى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا، فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا، فَاُنْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا، فَلَمَّا ارْتَفَعَتْ التَّقَتُّ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غَدْرٌ^(١) إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ، وَالْآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَ الْأَيْدِي، وَالْأَرْجُلُ، بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَفْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَدَقْتَ صَدَقْتَ! كَيْفَ يُقَدِّسُ^(٢) اللَّهُ أُمَّةً، لَا يُؤْخَذُ لِضَعْفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟»^(٣).

لَمَّا رَجَعْتُ مُهَاجِرَةً الْبَحْرِ، وَهُمْ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْحَبَشَةِ، فَصُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْحِكَايَةَ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَ هَذِهِ الْعَجُوزِ، وَهَذَا الْفَتَى الَّذِي دَفَعَهَا عَلَى الْأَرْضِ، وَكَسَرَ قُلَّتَهَا.

(١) أي: يا غادر.

(٢) يطهرهم من الذنوس والآثام.

(٣) رواه ابن ماجه (٤٠١١)، وصححه ابن حبان، وحسنه البوصيري والألباني.



الحديث الأربعون



عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يُخْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، - أَوْ قَالَ: الْعِبَادُ -، عُرَاةٌ غُرْلًا^(١) بُهْمًا»، قَالَ: قُلْنَا: وَمَا بُهْمًا؟ قَالَ: «لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرَبَ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدِّيَّانُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ، حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ.

وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَلَا أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ، حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةُ».

قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ، وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عَزَّجَلَّ عُرَاةٌ غُرْلًا بُهْمًا؟ قَالَ: «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ»^(٢).

هَذَا الْحَدِيثُ سَمِعَهُ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَهُوَ الْحَدِيثُ الَّذِي رَحَلَ جَابِرٌ لِسَمَاعِهِ، وَاشْتَرَى بَعِيرًا، وَسَارَ إِلَى الشَّامِ فِي شَهْرِ كَامِلٍ؛ لِيَسْمَعَ هَذَا الْحَدِيثَ الْوَاحِدَ.

(١) غير مختونين.

(٢) رواه الإمام أحمد (١٦٠٤٢)، والحاكم (٣٦٣٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٠)، والطبراني في الكبير (٣٣١)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وكذا صححه الهيثمي في الزواج (٤٠٣/٢)، وحسنه الهيثمي في المجمع (٣٥١/١٠)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢١٨/٤).

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بَلَّغْنِي حَدِيثَ عَنْ رَجُلٍ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاشْتَرَيْتُ بَعِيرًا، ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلِي، فَسِرْتُ إِلَيْهِ شَهْرًا، حَتَّى قَدِمْتُ عَلَيْهِ الشَّامَ، فَإِذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُنَيْسٍ».

وهو حديثٌ عظيمٌ في القصاصِ، اقتصاصِ الخلقِ بعضهم من بعضٍ في الحقوقِ، بالحسناتِ، والسيئاتِ، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥]، وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

حتى يُقْتَصَّ للبهائمِ، والحيواناتِ، من بعضها البعضِ؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَتُؤَدَّنَ الْحَقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلُحَاءِ^(١) مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ^(٢)»^(٣).

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى شَاتَيْنِ تَنْتَطِحَانِ، فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، هَلْ تَدْرِي فِيمَ تَنْتَطِحَانِ؟»، قال: لا، قال: «لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي، وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا»^(٤).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ، مِنْ عَرْضِهِ، أَوْ شَيْءٍ؛ فَلْيَحْلُلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ، وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ، أَخَذَ مِنْهُ بِقَدَرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ، أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ»^(٥).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اتَّذَرُونَ مَا الْمَفْلِسُ؟».

(١) التي لا قرن لها.

(٢) التي لها قرن.

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٢).

(٤) رواه الإمام أحمد (٢١٤٣٨)، وحسنه محققو المسند.

(٥) رواه البخاري (٢٤٤٩).

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له، ولا متاع.

فقال: «إِنَّ الْمَفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ؛ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

ولذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ»؛ فهو المَلِكُ، الذي بيده مُلْكُ السَّمَاوَاتِ، والأَرْضِ، وَمَنْ فِيهِنَّ، وهو الدَّيَّانُ، الْحَكَمُ، الذي يُجَازِي عِبَادَهُ بِأَعْمَالِهِمْ، إِنَّ خَيْرًا فَخِيرًا، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا^(٢).

وقوله: «ثُمَّ يَنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ، كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قُرْبَ»: فيه دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْمَوْقِفِ أَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ بَعْضٍ^(٣).



(١) رواه مسلم (٢٥٨١).

(٢) شأن الدعاء للخطابي (ص ١٠٥)، شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٢/ ٣١٤).

(٣) شرح كتاب التوحيد (٢/ ٣١٤).

ملخص أهم ما تضمنته أحاديث هذا الكتاب

- الله تعالى هو الأول قبل كل شيء، فهو الأول بلا بداية، كما أنه الآخر بلا نهاية.
- الإيمان بالقدر لا يتم إلا بالإيمان بمراتبه، وأركانه الأربعة، وهي: العلم، والكتابة، والمشية، والخلق: علم الرب سبحانه وتعالى بالأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل كونها، ومشيتها لها، وخلقها لها.
- الله خالق كل شيء، سبحانه وتعالى.
- المَوَاقِفُ التي أخذها الله تعالى على بني آدم ثلاثة: الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم حين أخرجهم من ظهر أبيهم آدم عليه السلام، وميثاق الفطرة، وما جاءت به الرُّسُلُ، وأنزلت به الكتب.
- إذا أتى الشيطان الإنسان، وسوس له: مَنْ خَلَقَ اللهُ؟ فيُدْفَعُ هذا بأمرٍ ثلاثة: بالانتهاء «قطع الشر مباشرة»، والتَّعَوُّذُ مِنَ الشَّيْطَانِ «قطع السبب الداعي إلى الشر»، وبالإيمان «اللجوء والاعتصام بالاعتقاد الصحيح اليقيني، الذي يدفع كل معارضي».
- نُشِيتُ لله تعالى ما أثبتته لنفسه، وما أثبتته له رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ جَمِيعِ الْأَسْمَاءِ، وَالصِّفَاتِ، وَمَعَانِيهَا، وَأَحْكَامِهَا الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِكَمَالِهِ، وَجَلَالِهِ، وَنُجْرِيهَا عَلَى ظَاهِرِهَا، مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ، وَلَا تَمْثِيلٍ، وَلَا تَكْيِيفٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

- الله تعالى حيٌّ قَيُّومٌ، والحيُّ: ذو الحياة الكاملة، لم يزل، ولا يزال حيًّا، لم يسبق حياته موتٌ، ولا يلحقها موتٌ، فهو الأول، والآخر، سبحانه وتعالى، والقيوم: القائم بذاته، لا يحتاج إلى أحدٍ، والقائم على غيره، يحتاج إليه كلُّ أحدٍ، يقوم بأمور السموات، والأرض، ومن فيهنَّ، فهو القائم على كلِّ شيءٍ.
- يحْكُمُ الله تعالى في خلقه بميزان العدل، فمن عمل ما يستحقُّ الرفع رفعه، ومن عمل ما يستحقُّ الخفض خفضه.
- حرَّم الله تعالى الظلم على نفسه؛ فالله تعالى مقدَّس ومُنزَّه عن الظلم، والظلم محالٌ في حقه سبحانه وتعالى.
- جميعُ الخلق مُفْتَقِرُونَ إلى الله سبحانه وتعالى في جلبِ مصالحهم، ودفعِ مضارهم، في أمور دينهم، ودنياهم، والعباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كله.
- جميعُ المخلوقات داخلَةٌ تحتَ قَهْرِ الله وسُلْطَانِهِ، فهو سبحانه وتعالى أخذُ بنواصيها، قادرٌ عليها، يتصرَّف فيها كيف يشاء، ويحكمُ فيها بما يريدُ: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦].
- الله سبحانه وتعالى عَظِيمٌ، ومن عَظَمَتِهِ: أنَّ السموات السَّبع، والأرضين السَّبع، وما فيهما، في يدِ الله، كخردلةٍ في يدِ أحدنا، ويَقْبِضُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ.
- من عَظَمَةِ الله، وعَظَمَةِ كَلَامِهِ سبحانه وتعالى: أَنَّهُ تعالى إذا تكلَّم بالأمر، وسَمِعَ أهل السموات كلامه، أُرْعِدُوا مِنَ الْهَيْبَةِ، حَتَّى يَلْحَقَهُمْ مِثْلُ الْغَشْيِ.
- لله تعالى صفاتُ العَظَمَةِ، والعِزَّةِ، والكِبَرِيَاءِ، ومن أسماؤه سبحانه وتعالى: الْمُتَكَبَّرُ، **أي:** العَظِيمُ ذو الكِبَرِيَاءِ، وقيل: الْمُتَعَالِي عن صفاتِ الخلق، وقيل: الْمُتَكَبَّرُ، والمُتَنَزَّه، عن السُّوءِ، والنَّقْصِ، والْعُيُوبِ.

• الْخَلْقُ خَلَقَ اللَّهُ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدِ اللَّهِ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ، وَلَا قَابِضَ لِمَا بَسَطَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضَ، وَلَا هَادِيَ لِمَنْ أَضَلَّ اللَّهُ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَى.

• نِعَمُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ عَظِيمَةٌ جَلِيلَةٌ، وَحَقُّهُ عَلَيْهِمْ كَثِيرَةٌ، وَالْعِبَادُ لَا يَقُومُونَ -مَهْمَا فَعَلُوا- بِحَقِّ عِبَادَتِهِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا عَلَيْهِمْ، وَلَا تَفِي أَعْمَالُهُمْ بِنَجَاتِهِمْ، فَلَوْ عَذَّبَهُمْ رَبُّهُمْ؛ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَرَحْمَتُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ.

• خَزَائِنُ اللَّهِ لَا تَنْفَدُ وَلَا تَنْقُصُ بِالنَّفَقَةِ، وَالْعَطَاءُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقْسِمُ الْأَرْزَاقَ، وَيُجْزِلُ الْعَطَايَا، وَيَمُنُّ بِفَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِيَمِينِهِ، وَبِالْيَدِ الْأُخْرَى الْمِيزَانَ، يُخَفِّضُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْفَعُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ، عَدْلًا مِنْهُ، وَحِكْمَةً، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

• إِنْكَارُ الْبَعْثِ يَتَضَمَّنُ تَكْذِيبَ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، وَفِي كِتَابِهِ، وَنِسْبَةُ الْوَلَدِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَتْمٌ لَهُ، وَتَنْقُصٌ؛ لِأَنَّهُ السَّيِّدُ الصَّمَدُ الْغَنِيُّ، وَجَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ.

• لَا يَتِمُّ تَوْحِيدُ الْعَبْدِ، وَكَمَالُ إِيْمَانِهِ، حَتَّى يَعْتَرِفَ بِتَفَرُّدِ اللَّهِ تَعَالَى بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ، وَالبَاطِنَةِ، عَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ، وَيُضَيِّفُهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى قَوْلًا، وَاعْتِرَافًا، وَيَعْتَرِفُ بِتَفَرُّدِهِ بِدَفْعِ النِّقَمِ، وَيَسْتَعِينُ بِنِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى ذِكْرِهِ، وَشُكْرِهِ، وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

• سَبُّ الدَّهْرِ فِيهِ أَذِيَّةٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَسَوْءٌ أَدَبٍ مَعَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُقَدِّرُ الْأُمُورَ، وَالدَّهْرُ هُوَ الزَّمَانُ، وَلَا فِعْلَ لَهُ، بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ.

• الْكَوْنُ كُلُّهُ خَاضِعٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَلِعَظَمَتِهِ، شَاهِدٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَاسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَالشَّمْسُ بِحَجْمِهَا الْهَائِلِ، وَحَرَارَتِهَا الْمُحْرِقَةِ، تَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ كُلَّ لَيْلَةٍ، وَلَا تَطْلُعُ مِنَ الْمَشْرِقِ، حَتَّى تَسْتَأْذِنَ رَبَّهَا، وَهِيَ فِي حَالِ سُجُودِهَا، فَيَأْذَنَ لَهَا.

• عرش الرحمن أوّل المخلوقات، وأعظمها، وأثقلها وزناً، وهو سَقْفُ المخلوقات، مُحِيطٌ بها، وهو مَقْبَبٌ، يعني: كَالْقُبَّةِ عَلَى الْعَالَمِ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ، اسْتِوَاءً يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ، وَكَمَالِهِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

• مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى: أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ، وَغَلَبَتْ، غَضَبَهُ، وَكَتَبَ اللَّهُ هَذَا فِي كِتَابٍ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ.

• التَّوَسَّلْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّعَاءِ، بِتَقْدِيمِ الْحَمْدِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَتَمَجِّدِهِ بِأَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَالتَّوَسَّلْ إِلَيْهِ بَعْبُودِيَّتِهِ، وَتَوْحِيدِهِ؛ لَا يَكَادُ يُرَدُّ مَعَهُ الدُّعَاءُ.

• اللَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ بَصِيرٌ، يَسْمَعُ جَمِيعَ الْأَصْوَاتِ، الظَّاهِرَةِ، وَالْبَاطِنَةِ، الْخَفِيَّةِ، وَالْجَلِيَّةِ، بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ، عَلَى تَفْنُنِ الْحَاجَاتِ، فَالْغَيْبِ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ، وَالسَّرُّ عِنْدَهُ عَلَانِيَةٌ، وَالْبَعِيدُ عِنْدَهُ قَرِيبٌ.

• مِنْ أَصُولِ الْإِيمَانِ، وَثَوَابِ الْعَقِيدَةِ: أَنَّ الْغَيْبَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَعِلْمُ الْغَيْبِ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ لِنَفْسِهِ، وَبِيَدِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحْدَهُ خَزَائِنُهُ، وَالطَّرُقُ الْمَوْصَلَةُ إِلَيْهِ، لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا هُوَ، وَلَا يُطْلَعُ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ شَاءَ مِنْ رُسُلِهِ.

• مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى: أَنَّهُ مَا مِنْ مَوْضِعٍ فِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، إِلَّا وَهُوَ مَشْغُولٌ بِالْمَلَائِكَةِ، يَتَعَبَّدُونَ لِرَبِّهِمْ؛ تَعْظِيماً لَجَلَالِهِ، وَأَدَاءً لِبَعْضِ حَقِّهِ، وَانْقِيَاداً لِأَمْرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

• لَا تَصِحُّ الشَّفَاعَةُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِشَرْطَيْنِ: إِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى لِلشَّافِعِ أَنْ يَشْفَعَ، وَرِضَا اللَّهِ عَنِ الْمَشْفُوعِ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ فِيهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَرْضَى أَنْ يُشْفَعَ إِلَّا فِي أَهْلِ التَّوْحِيدِ.

• مِيزَانُ الْأَعْمَالِ مِيزَانٌ حَقِيقِيٌّ مَحْسُوسٌ، لَهُ لِسَانٌ، وَكِفَّتَانِ، تَوَزَنَ فِيهِ أَعْمَالُ الْعِبَادِ،

وَيَكُونُ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَارَةً تُوزَنُ الْأَعْمَالُ، وَتَارَةً تُوزَنُ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ، وَتَارَةً يُوزَنُ الْعَامِلُ نَفْسُهُ، وَقَدْ يُوزَنُ كُلُّ ذَلِكَ.

- الصُّرَاطُ جِسْرٌ مَمْدُودٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، يَمُرُّ النَّاسُ فَوْقَهُ عَلَى قَدَرِ إِيْمَانِهِمْ.
- مِنْ كِمَالِ عَدْلِ اللَّهِ: أَنَّهُ يَضَعُ كُرْسِيَّهَ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ خَلْقِهِ، فَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ.
- الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ بِمُقَابَلَةِ الْحَسَنَاتِ، وَالسَّيِّئَاتِ، فَمَنْ زَادَتْ حَسَنَاتُهُ -وَلَوْ بِوَاحِدَةٍ- فَقَدْ أَفْلَحَ وَنَجَا، وَمَنْ كَانَتْ سَيِّئَاتُهُ أَكْثَرَ مِنْ حَسَنَاتِهِ -وَلَوْ بِوَاحِدَةٍ- دَخَلَ النَّارَ، وَمَنْ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُ، وَسَيِّئَاتُهُ، كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ.



